أعلام المسلمين
٧٠

صَلاحُ الدِّينْ الأَيُّوبِيّ

قَاهِرُ العُدْوانِ الصَّلِيبِيّ

بقلم
الدكتور محمد رجب البيومي

دار القلم
دمشق

أعلام المسلمين

٧٠

صلاح الدين الأيوبي

قاهر العدوان الصليبي

بقلم

الدكتور محمد رجب البيومي

دار القلم

دمشق

صلاح الدين الأيوبي

قاهر العدوان الصليبي

الطّبْعَة الأولىٰ

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

تُطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

هٰــذا الرَّجُــل

«كان رحمه الله خاشعَ القلب، غزير الدمعة، إذا سمعَ القرآن يخشع قلبه، وتدمعُ عيناه في معظم أوقاته، وكان شديد الرغبة في سماع الحديث . . . ويأمر الناس بالجلوس إجلالاً للحديث».

«وكان رحمه الله إذا اشتدت الحرب، يطوف بين الصفّين بنفسه، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة، ويرتّب الجنود ويأمرهم بالتقدّم والوقوف في مواضع يراها، وكان يشارف العدو حتى يُجاوره، ولقد قُرئ عليه جزآن من الحديث بين الصفين».

«لقد كان حسن العشرة، لطيف الأخلاق، طيّب الفكاهة، حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم، حافظاً لسِيَرهم، عالماً بأنساب الخيل، بحيث كان يستفيد محاضره منه ما لا يسمع من غيره . . . كما كان طاهر المجلس».

القاضي ابن شداد

«فلا تسمع إلاّ ألقاباً هائلة، وصفات لدى التحصيل غير حائلة . . . إلا صلاح الدين صاحب الشام وديار مصر والحجاز واليمن، المشتهر بالفضل والعدل، فهذا اسمٌ وافق مسمّاه، ولفظٌ طابق معناه».

«ومن مفاخر هذا السلطان المُزْلِفَةِ من الله تعالى، وآثاره التي أبقاها ذكراً جميلاً للدين والدنيا: إزالته رسم المكْس المضروب وظيفةً على الحجاج... إلى مكوس كانت في البلاد المصرية وسِواها، وضرائب، فمحا هذا السلطان هذه البدع اللعينة كلها، وبسط العدل، ونشر الأمن».

الرحالة ابن جبير

«أحكي لك ـ أي لابن شداد ـ شيئاً من نفسي، إنه متى يسّر الله تعالى فتح بقية الساحل، قسَّمتُ البلاد، وأوصيتُ وودّعت، وركبتُ هذا البحر إلى جزائره وأتبعتهم (الكفار) حتى لا أُبقي على وجه الأرض مَن يكفر بالله أو أموت».

السلطان صلاح الدين

«ولقد كان من شدة كرمه أن عماله كانوا ينكرون عليه المال، حتى إذا جاءت ساعة الحاجة أخرجوا إليه ما يريد؛ وهذا من كثرة بذله وعطائه».

«ولما استولى على دمشق لم يأخذ لنفسه شيئاً من خزائنها، بل وزَّع ما وجد على الأهالي، وكان يحترم كل مَنْ في خدمته، ويعاملهم معاملة ليّنة، فإذا وقع من أحدهم ما يسيئه كتمه ولم يُظهره».

«أما مجلسه فكان طاهراً لا يجسر فردٌ أن يقول سوءاً في جارٍ له، ولم يَرَ يتيماً إلا تحرَّكت فيه عاطفة الشفقة والحنان عليه، وكان فوق هذا محباً لأولاده وأهله، وكثيراً ما شارك أطفاله لعبهم».

كاتب أوروبي

ـ صاحب تاريخ المؤرخين ـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدّمـة

هذا بطلٌ بَدْريّ تأخر موعده عن عصر النبوّة حتى جاد به الزمن في عصر الحـروب الصليبيّـة، ليـؤدي دور أبطـال بَدْرٍ حين ثبتـوا للعدوان الغاشم، إذْ جاءهم من بلاد الشرك ليستأصل وجودهم، فحباهم الله بنصرٍ من عنده، وردّ الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً.

كذلك زحفتْ جيوش الفرنجة إلى ربوع المسلمين لتستأصل وجودهم، فقام أحفاد البدريين ممن آمنوا بالله ورسوله يؤدُّون فريضة الجهاد، وثبَّت الله أقدامهم في حلبة الصراع، وردَّ الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً.

ولعلَّ أهمَّ ما يربط أسباب صلاح الدين بأبطال بَدْرٍ هو إيمانه الراسخ الذي لا يتزعزع، إذ كان يعلم أنه بالنسبة لجيوش أوروبا ذات الدول المتعددة، والأساطيل المتدافعة، من الفئة القليلة التي لا تبلغ بعددها المحدود أن تقف أمام الحشود المتزاحمة.. ولكنَّه

يعلم أيضاً أن الله عز وجل يقول: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾، وكان ذلك الإيمان عدَّته في النَّصر، وبه مثَّل دوره الحاسم على مسرح التاريخ.

سيجد القارئ نماذج حيَّة لهذا الإيمان في صفحات هذا الكتاب، ولعلَّ أيسر نموذج نشير إليه هو قراءة حديث الرسول ﷺ بإسناده في حَوْمة العراك، حيثُ ادْلَهمَّ الموقف في ساعةٍ من ساعات الحرج، وكان القاضي بهاء الدين بن شداد يقفُ جوار البطل في الميدان، فقال له: يا مولاي لقد قُرِئَ حديثُ رسول الله ﷺ في مواقف كثيرة، ولكنّي لا أعلم أنه قُرِئَ في ساحة الحرب، فلماذا لا نقرؤه الآن؟ فأمر صلاح الدين بإحضار شيوخ الحديث بأجزائهم، ليقرؤوا كلام الرسول، وكان منشرح الصدر متفائلاً بما اقترحه صاحبُه القاضي، وقد عمَّتْ بركة رسولِ الله ساحةَ الميدان، فانقلبت إلى نصرٍ حاسم جناهُ المسلمون.

إن في هذا الموقف وحدَه، ما يؤكد إيمان البطل بأنَّه جنديٌّ من جنود رسول الله، يدافعُ عن المسلمين في أشرف ميدان، وبأنَّ الفئة القليلة التي يتزعَّمها في حلبة الصراع هي التي سيتمّ لها النصر المؤزَّر في الحياة، وما عند الله أوفى وأعظم من الأجر.

وقد كُتِبتْ مؤلفاتٌ كثيرة عن صلاح الدين، فيها ما أصاب الهدف، وأتى بالثمرة المشتهاة، ولن نبخس أحداً حقّه، وقد أشرنا إليها في هوامش الكتاب، حين كانت مصدراً للقول، ولكنَّ فيما أُلِّف عن صلاح الدين ما كُتِبَ برُوحِ الاستعلاء، كَتَبَهُ مدرِّسون

للطلاب، وهؤلاء قد صاروا مؤرِّخين لأنَّهم نالوا الدرجة العلمية التي تُمنَح للتحصيل والمذاكرة والنقل، لا للفهم والاستقراء والتحليل، وفيهم من يظنُّ أنَّه جاء بنقدٍ باترٍ حين يتصيَّد مواقفَ لا يعلم أسبابها، ولا يفهمُ دوافعها، فينهال على بطل هذه المواقف مؤاخِذاً لائماً، وكأنَّه أصبح رَجُلَ معاركٍ يُديرها ساعة الهول، ثم يحكمُ على نتائجها بالخطأ والصواب، وفيهم مَنْ يرجعُ إلى الموْتورين من مؤرِّخي أوروبا ليجعلهم مناره الهادي، فيصدِّق كلّ ما يفترون، مع أنَّ في كُتَّابِ الفرنجة من أَنْصَفَ صلاح الدين وكتَبَ عنه كأحسن ما يكتبه المنصفون، ولكنّ حبّ الاستعلاء على أبطال التاريخ يدفعُ الصِّغار إلى مهاجمة الكبار، بغْياً دون حق؛ ولأمثالِهم أُوجِّه هذا الكتاب، لا لأقول: إنَّ صلاح الدين كان مصيباً في كل ما أتى وتَرَكَ، من الأعمال. بل لأقولَ إنَّ الرجل كان عظيماً حقّاً في صوابه وخطئه، لأنَّه أراد الخير في كلِّ ما فعل، وقد وفَّقه الله في أكثر ما فعل، وهو بَعْدُ مدافعٌ لا مهاجم، وعادلٌ لا ظالم، ومتواضعٌ لا متكبِّر؛ فهو قدوةٌ ماثلة، وشاهدٌ أمينٌ.

وقد تكونُ حالة الأمة الإسلامية اليوم بحاجةٍ إلى أن تتذكَّر مواقف صلاح الدين، كيْلا تَيْأسَ من رَوح الله، فإنَّ أعداء هذه الأمة الآن قد جَلبوا عليها بخيولهم وقذائفهم، ومكرهم واحتيالهم، ووقفوا لها كلَّ مرصد، وأخذُوا يؤكِّدون لها معاني الهزيمة والنكسة والانحدار، حتى ظنَّ المرجفون ألاّ نصر ولا استقلال، وكذلك كان الشعور العام حين انتشر الوباء الصليبي، غازياً مقتحماً بلاد العرب،

فدهش المسلمون دهشة الفزع، وظنَّ بعضهم أنَّ الساعةَ قد دنتْ. ولكنَّ المؤمنين من أمثالِ عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين قد قاوموا المحتلّ الغاصب حتى دَحروه في أسوأ ظروف القتال، وتمَّت الكلمة العليا لله؛ فإذا كان لنا أن نأخذ اليوم عبرةً من أحداث الأمس، ففي سيرة صلاح الدين مواقف كثيرةٌ للعِظة والاعتبار، وهي بذلك نشيدٌ من أناشيد النصر، يتقدَّم المعركة الفاصلة فيُحيي الشعور، ويبعث الإقدام.

وقد تعمّدتُ أن يكون أسلوب الكتاب واضحاً مفهوماً، لا أُثقله بتتابُع الأحداث، ولا أملؤه بالأرقام والتواريخ؛ بل أعمدُ إلى الساطع البيِّن من الأعمال الصحيحة ذاتِ النتائج الحاسمة، لتكون بِتَتابُعها المتَّصل ترجمةً صادقةً لِما كان.

وإذا كان أصدقاء صلاح الدين من الكُتَّاب والقادة قد أدَّوا معه دَوراً قوياً في الميدان، فلم أَخْلِ الكتاب من صفحاتٍ تتحدَّث عن هؤلاء، لتتمَّ الأدوارُ في نسقهما الكامل؛ وبعض ما خصَّصتُه بهؤلاء الأبطال جاء في نسق روائي، يجمع حقائق التاريخ، دون أن أسمح للخيال بزيادةٍ ما. . وقد فاتني الكثير، وما ذكرتُ غير القليل؛ لأن الاستقصاء يتطلَّب مجلَّدات يقرؤها المتخصّص، لا كتاباً يطالعه المثقف. . وحَسْبي أن أقدِّم خلاصةً وافيةً ذات غَناء، وهاأنذا أُسلِم كتابي للقارئ الكريم، وقد يجد به بعض ما يرضيه. . وعلى الله قصد السبيل.

الدكتور محمد رجب البيومي

سطور عن صلاح الدين

١ ـ ولد بمدينة تكريت سنة (٥٣٢هـ).

٢ ـ وفد إلى مصر في جيش أسد الدين شيركوه للمرة الأولى سنة (٥٥٩هـ).

٣ ـ وفد إلى مصر ثانية في جيش عمه سنة (٥٦٢هـ).

٤ ـ وفد إلى مصر ثالثة في جيش عمه سنة (٥٦٣هـ).

٥ ـ تولى الوزارة سنة (٥٦٤هـ).

٦ ـ سقطت الخلافة الفاطمية سنة (٥٦٧هـ).

٧ ـ دُبِّرت مؤامرة لإحياء الدولة الفاطمية فقضى عليها سنة (٥٦٩هـ).

٨ ـ توفي نور الدين زنكي سنة (٥٦٩هـ).

٩ ـ سافر إلى الشام لتدعيم الوحدة سنة (٥٧٠هـ).

١٠ ـ محاولة اغتياله في الإسماعيلية سنة (٥٧٢هـ).

١١ ـ رجوعه لمصر سنة (٥٧٢هـ).

١٢ ـ معارك مع الصليبيين تكلّلت بالنصر سنة (٥٧٣هـ).

١٣ ـ عاد إلى الشام سنة (٥٧٤هـ).

١٤ ـ انتصارات قومه على الصليبيين في معارك شتّى سنة (٥٧٦هـ).

١٥ ـ بناء الأسطول المصري وظهور القوة البحرية سنة (٥٧٦هـ).

١٦ ـ العودة إلى مصر، ثم الذهاب إلى دمشق سنة (٥٧٨هـ).

١٧ ـ معركة حِطِّين الظافرة سنة (٥٨٣هـ).

١٨ ـ فتح بيت المقدس وتحريره سنة (٥٨٣هـ).

١٩ ـ معركة عكا سنة (٥٨٧هـ).

٢٠ ـ صلح الرملة سنة (٥٨٩هـ).

٢١ ـ وفاة صلاح الدين ـ رحمه الله ـ سنة (٥٨٩هـ).

* * *

الوَبَاء الزَّاحِف

نتحدثُ عن الحروب الصليبيَّة في عهدها القديم كأنّها شيءٌ فاتَ وانقطع، ولكنَّ الذي يتأملُ حاضرَ اليوم يرى الحرب الصليبية لا تزالُ ضارية موقدة، فالغربُ اليوم هو الغربُ بالأمس، على فارقٍ.. تختلفُ أدواته، وتتفقُ نتائجه، إذ كانت الحرب القديمة صريحةً سافرة، يتقدّم جنودها بالسلاح والنار والجيش غازين ناهبين، أما الحربُ التي نشهدها اليوم فهي حربُ الدهاء والاحتيال، حربُ الوقيعة والانتهاز، تنصبُ الشّباك عن قُدرة ماكرةٍ خادعة فتؤتي من النتائج مثلَ ما أتتْ سابقتُها من قبل، وهذه أدهَى وأفجع، لأنها تَخدعُ بعض الناس بأساليبها الملتوية، فتطمئنّ إليها نفوسٌ لم تَسْبر الأغوار عن فحص، ويقعُ الطير صريعاً حين يجد نفسه في الفخّ، ينقبض عليه دون أن يراه؛ لذلك كان من حقِّ أبناء اليوم أن يعرفوا ما كان بالأمس، ليروا الطريق واضحاً في خطواته مبدأً وغاية، وبهذه الرؤية يعتبرون، فيتيقّظون.

لقد زحف الوباء الصليبي على الديار الآمنة في الشرق دون بواعثَ منطقية تدعو إليه، وإنما هُو الجمهورُ الصاخب تؤثّر فيه الدّعايات الكاذبة، فيَنْقادُ لما يسمع دُون وعي! أمّا الذي بعثَ هذه

الدعاوي الكاذبة فرجلُ دينٍ، بل كبير رجالِ الدين في أوروبا، نظرَ إلى واقعه مقارناً بواقع سابقه، فوَجد الناس يهتفون بمآثر البابا السّابق ويَعدُّونه خليفةً صادقاً للمسيح، إذ نظرَ إلى رَعاياهُ نظرةَ عطفٍ وإشفاق، ذلك هو (غريغوري السابع) الذي نظّم شؤون الكنيسة، ونَبذَ عناصر الفوضى، وصارحَ كل مُعتدٍ بخطئة، وجعلَ رجالَ الدين من أتباعه يخافون بأسَه، إذْ يواجههم بالأخطاء على ملأٍ من الحشد المُتيقّظ، وأحلَّ الحلال، وحرّم الحرام ما استطاع.

فلما جاء (أربان الثاني) من بعده، وجَد الثّوب فضفاضاً واسعاً تتضاءل فيه قامتُه، ووجدَ مَن حوله مِن الرهبان يُواجهونه بما يعنّ لهم، فلا يملكُ أن يصدّهم بما كان يأتي به سالفه مِن صريح القول، وبليغ الرّد، وقد تكونُ لديه من المآخذ ما يخشى أن يُواجَه بها فلا ترتفع له قامة، وإذ ذاك أخذ يبحثُ عن مَجد يشغل الناس، ويُريهم أن نَظَرهُ أعلى، وغايته أبعد، كانَ البابا غريغوري السابع لا ينظرُ بعين الارتياح إلى الكنيسة البيزنطية في القسطنطينية، ويراها ذاتَ خطرٍ كبير في تقْليم أظفاره، وتَحْجيم سلطانه، ثم هو لا يستطيع أن يفْعل معها شيئاً، فلها شعبها وقانُونها ودولتها؛ ثم وَقعتِ القسطنطينية في عداءٍ مع السلاجقة حكّام المشرق، وقد انتصروا عليها بما هدّدها في مقرّ حكمها، وصار (بابا) الكنيسة البيزنطيّة يتوقعُ هجوماً يستلّه من عرشه دون حافظ، فهداهُ تفكيرهُ إلى أن يستنجدَ ببابا روما (أربان) وأن يقول له إنّهُ وحده حامي

المسيحيّة في أوروبا، وأنّه يُلقي له يد السلم عن طوع؛ إذ كانتْ هذه أكبر فرصة تسنحُ لهذا المتطلّع إلى العظمة، الضائق ذرعاً بمجد مَن سبقه.

لقد كان (غريغوري السابع) يفكّر في إصلاح الناس بأوروبا، ولا يمتدّ نظره إلى أبعد مما يُحيط به من الدولات المتشاجرة، ومن أمراء الإقطاع الذين يستقلّ كل واحد منهم بإمارةٍ تزيد أو تنقص، وبأسهم بينهم شديدُ، لا يحْسبهم أحدٌ جميعاً لوضوح التنابذ الذي يصل إلى قيام الحُروب دون انقطاع، وكان غريغوري يحاول إصلاح ذات البين حين يفدُ إليه رُؤوس المقاتلين، فيرأب الصدع، ويُجمع الشمل إلى آنٍ، ويطيرُ له ذكرٌ حميد بين حوارييه، أما (أربان) فقد وافتهُ الفرحة ليفرضَ رأيه على الكنيسة المزاحمة، وليبسطَ سلطانه على حشودٍ يجمعها من شتّى الأصقاع، لتدافع عن قبر المسيح في الشرق، بل لتملكَ ما حولَ قبر المسيح من دُول وعواصم. إنّ الغاية بعيدة، وإنّ الأمل لفسيح، ولا بدَّ أن يبدأ بالخطوة الأولى، وله أتباعٌ يُرسلهم في كل متّجه، ليقبض على الرأي الأوروبي العام، وهو رابضٌ في كنيسته لا يريم!.

اتجه البابا أربان إلى مدينة كليرمونت بفرنسا (١٠٩٥م) ليرأس أكبر مجمع يمثّل جميعَ دول أوروبا، ويحضره مئاتُ الفرسان مِن جُيوشِ الإقطاع، المتعدّد الأصقاع، فألقى خطاباً استهوى فيه نفوسَ العامة والخاصّة، أما العامّة فقد ضَربَ على أوتار قلوبهم حين تحدّث إليهم عَنْ إهانةِ المسلمين لقبر المسيح، وأنّهمْ يجعلون

الحيوانات تبول عليه، ولو كانَ لدى الحاضرين أدنَى وعي لَعَرفُوا أنّ المسلمين لا يعتقدون أنّ للمسيح قبراً، لأنّ الله قد رفعه إليه، ولم يُصْلب! فكيفَ يُهينونَ قبراً لا يروْن فيه شيئاً، ممّا يعتقده سواهم! وبَالغَ في إثارة الشعور الدينيّ فروى قِصصاً عن فظائع ارتكبها المسلمون مع الحجّاج القاصدين إلى بيت المقدس، وقد تَقعُ حوادث ما تضايق الحجّاج، ولكنّها ليستْ وليدةَ رأي عام يرى الانتقام من حُجاج بيت المقدس، إنما يقعُ ذلك شذوذاً من قطّاع الطريق في كل مكان، وهؤلاء لا يتورّعون أن يُهاجموا حجّاج بيت الله في مكة من المسلمين، سلباً لما يحملون من المال والمتاع! ولكنّ إشاعة ذلك مما يهيج الحميّة في صدور العامة، وقد وُفّق البابا إلى تحقيق ذلك الهياج، ولمس قدرةً لدى أحد أعوانه على الكلام المُثير، وهو بطرس الناسك، فأخَذ يحثّه على الخطابة المهيّجة في كلّ مجتمع يحلّ به!.

وإذا كانَ فرسان الأقطاع يبحثون عن ملذّاتهم الشخصية، وينسجون الآمال في امتلاك الإمارات، فإنّ البابا قد تحدَّث إليهم بما يفسح في تلك الآمال، فقال: إنّ هذه الرحلة الحربية إلى بلاد الشرق « ليست لاكتساب مدينةٍ واحدة، بل لامتلاك أقاليم آسيا بجملتها، معَ غناها وخزائنها التي لا تحصى، فإذا كان بيت المقدس مقراً لقبر المسيح، فلن يقف الأمر عنده، ولكنّه سيمتدّ إلى ممالك الإسلام في ربوع الكفار، لأنها خالصةٌ لكم من دون أولئك الكفار [المسلمين] وهي كما قالتِ التوراةُ تفيض لبناً وعسلاً».

وقد أجمع المحققون من كُتّاب الغرب أنفسهم على أن الروح الدينية في دُول أوروبا جميعها كانتْ من الضعف بحيثُ لا تحمل أوروبيّاً على الهجرة لإنقاذ القبر وحده، فالعامةُ والخاصةُ معاً كانوا غريقين في المعاصي، ولهم آثامُهم التي تحرّمها المسيّحية، وقد وعدهم البابا بغفران الذنوب جميعها، فالقاتلُ والسارقُ والزّاني وشاهدُ الزور وقاطع الطريق كلٌّ من هؤلاء إذا اتجه إلى بيت المقدس فقد غُفر ذنبه، وأصبح بريئاً من كل إثم.

وكانت صكوك الغفران التي يدفعها البابا للمذنبين نظيرَ مال مفروض (حتى أصبحت لدى المسيحيين وكأنها حق لا مرية فيه)، قد قرّبتْ فكرة الغفران من عقولهم، لأنّ الكنيسة التي تأخذ المال لتمنح الغفران هي التي جعلت الرحلة عَدْلاً للمال، فَمن سَافرَ فقد خَلُصَ من جرائرِ القتل والسرقة والزنى! . .

وإذا كانتْ جرائم الفرسان من حملة السيوف في إمارات الإقطاع أكثرَ من أن تحصر، فإنّ غفران هذه الجرائم لا يعدّ كافياً لاجتذابهم إلى الميدان، والبابا يعرف ذلك عن يقين، فلا بّد أن يُمنّيهم بامتلاك الدّوَل في الشرق، وعلى كلّ أمير أنْ يُهيّئ جيشاً خاصاً به ليحتلّ مقاطعة كبرى، أو دولةً بأكملها إذا استطاع، فيصبح ذا سلطانٍ ينعمُ بخير الشرق، وعسله ولبنه اللذيْن تحدثتْ عنهما التوراة! .

هكذا امتدت الآمال إلى أبَعد ما يتّسع له خيالُ فقير جائع مُذنب من العامة، وأملُ حريصٍ متطلّعٍ من أمراء الإقطاع، وخاصةً إذا كان الذاهبون إلى المشرق سيتركونَ ديارهم وأموالهم وأطفالهم الصغار فلا يخافون على شيء؛ لأنّ الكنيسة تقومُ بحماية هؤلاء، وستضمن لكلّ راحل حقه إذا عاد، ولنا أن ننقل من خطاب البابا قوله[1]:

«أيها الجندُ المسيحيّون، لقد كنتم تُحاولون من غير جدوى إثارةَ نيرانِ الحروب والفتن فيما بينكم، أَفِيقوا فقدْ وَجدتُم اليوم داعياً حقيقيّاً إليها، لقد كنتم سببَ انزعاجِ مواطنيكم وقتاً ما، فاذهبُوا وأزعجوا البرابرة، اذهبوا وخلّصوا البِلاد المقدّسة من أيدي الكفار.

أيها الجند! أنتُم الذين كانوا سِلعَ الشرور والفتن، فهبُّوا اليوم وقدّموا قُواكم وسواعدكم ثمناً لإيمانكم، وتسلَّحوا بسلاح الدين والتقوى، فأنتم بذلك تنالون النعيم الدائم.

إنكم إن انتصرتم على عدوّكم كانت لكم ممالك الشرق ميراثاً، وأنتم إذا خُذلتم فستموتون حيث مات يسوع، فَلا ينْساكُم الرب من رحمته، فيحلّكم محلّ أوليائه، هذا أوَانٌ تُظهرون فيه شجاعتكم، التي أظهرتموها وقت السلم، وإذا كان من المحتم أن

(١) صلاح الدين الأيوبي للدكتور أحمد البيلي (ص ٤١)، ط ثانية، مترجماً عن المجلد الثامن من كتاب (تاريخ المؤرخين)، ببعض التصرُّف.

تثأروا لأنفسكم فاذهبوا واغسلوا أيديكم بدماء أولئك الكفَّار».

وهنا ضجَّ السامعون بالبكاء، فقال البابا: «لقد أصبح جند النار جُنداً لله، يا قوم، إذا دعاكم الرب يسوع إلى مُساعدته فلا تتواروْا في بيوتكم قاعدين، ولا تُفكروا في شيء إلا فيما وقع فيه إخوانكم المسيحيّون من الذل والهوان والمسكنة، ولا تسمعوا إلا إلى القدس وزفراته، واذكُروا جيداً ما قاله المسيح: «ليس منّي من يُحب أباهُ وأمّه أكثر من محبته إياي. أمّا الذي يترك بَيْته ووطنه وأمَّه وأباه وزوجه وأولاده حبّاً فيّ ومِن أجلي، فسيخلّد في النعيم».

بعد هذه الخطبة الناريّة أخذ بطرس الناسك يجوب أرجاء أوروبا راكباً حماراً أعجف، مرتدياً ملابس رثّة، حافي القدميْن، يحملُ على صدره صليباً كبيراً، ويعلو صوته في بكاءٍ متشنّج وهو يحكي آلامَ المسيحيين في المشرق، وكيف بال العربي الهمجيّ على قبر المسيح.

ومن المصادفات العجيبة أنّ قحْطاً شديداً اجتاحَ القسم الغربيّ من أوروبا، فأهلك الحرث والنسل، وكثر المتسوِّلون الذين لا يجدون طعام اليوم دون إراقةٍ لماءِ الوجوه، إذ خَربتْ عشرات القرى، وأقْفرت المزارع من نباتها الأخضر، وأبصر الجياع أنفسهم في حاجة إلى ميدان خصيب، يتيحُ لهم الإنقاذ من الجوع الحاضر والموتِ المرتقب، فحين سمعوا نداء البابا يشير بخيرات الشرق ويعدُّها نهباً مباحاً للمسافرين، أقبل هؤلاء الجياع على الرَّحيل في همّةٍ دافعة، لأنّ فيه حلاًّ لما يعصر بطونهم من الجوع، وانطلق

الرّكب يجمع شتى الطوائف من أميرٍ وقائد وصعلوك، ومن شريفٍ ووضيع، ومؤمنٍ وقاتل وسارقٍ وناهب، ولكلٍّ أمله الخاص به، فالجائع يريد أن يأكل، والأمير يريد أن يكون صاحب عَرش، والمجرمُ يرغب في عفو الله ومغفرته!.

وقد فُوجئت الحملة الأولى بدفاع السّلاجقة حين اجتاحتْ آسيا الصغرى، إذ كانت لديهم بقيةٌ من القوة، فانقضّوا على العُراة الحفاة الجائعين انقضاضاً مبيداً، بحيث لم يسلم من هؤلاء غير القليل؛ ولكنْ هل تسكت الكنيسةُ على هذه الهزيمة، وبِم تعلّلها؟ لقد أذاعَ البابا أن النفوس لم تكن خالصة في حبّ المُسيح، وأن الجموع الزاحفة لم تنْضوِ تحتَ لواءِ قادةٍ يرسمون الخطط، ولا بدّ أن تعود الكرّة بقيادة مَنْ يفهمون أساليب الحرب، وهذا ما كان، إذ اجتمع في القسطنطينية عدّة جيوش متحالفة من اللّورين والألمان والنورماندين والفرنسيس، وأحسنُوا نظام السير وفق خطة تتجنّبُ أخطاء الأمس، فغنموا نصراً عاجلاً، واستولوا على الرّها وطرابلس وبيت المقدس.

أمّا كيفَ حلت هذه الكوارث، فالجوابُ واضح، لأنّ ضعف أمراء المُدن الصغيرة في الشام، وضَعْف الخلافتيْن العباسية والفاطميّة، وتفرُّق الأهواء دُون قائد يرأب الصدع. كلّ ذلك لا بدّ أن يلد الهزيمة والخذلان.

لقد دافع السلطان السلجوقي صاحب (قونية) هذا الطوفان المُزبد، ولكنه لم يستطعِ الصبر على الدفاع، إذ كان الطوفان الكبير

يحيط (قونية) من جميع نواحيها، فصمد للحصار خمسين يوماً، ثم استسلمت المدينة عن يأس، فأين كانت بسالة آل سلجوق، من الذين تفرَّقوا في مدن يحكمونها، ولكلّ امرئ منهم شأنٌ يُغنيه. لو أنّ حكام السلاجقة في دمشق وبيت المقدس وغيرها من ربوع الشام خفّوا لنجدة سُلطان قونية، لاستطاعُوا أن يخفّفوا آثار الحصار، ولكنّهم كانوا من التنافر بحيث خاصمَ بعضهم بعضاً، فأكلهم الأعداء.

ولن ننكرَ جهودَ مَن استبسلوا في الدفاع عن إنطاكية حيث صمدتْ للقتال تِسعةَ أشهر، وكان (باغيسيان) قائد الدفاع قد أفلحَ في إرهاق المهاجميَن، حتى أدخلَ في قلوبهم اليأس، ولكنّ الخيانة الآثمة قد هزمتْه حين استجاب أحدُ حرّاس الأبراج إلى إغراء الصليبيين بالمال والإقطاع، فانضمّ إليهم ليطلعهم على مداخل المدينة؛ فهاجموا باغيسيان في حندس الليل، وَدُوهِمَ النائمون، فلم يستطيعوا التماسك، أما صاحبا حلب ودمشق فقد جاءتْهما كتب الإفرنج الخادعة تُعلن أنهم لا يريدون بهما شرّاً إذا امتنعوا عن عون المحاصَرين، وأنّهم لا يقصدونَ غير البلاد التي كانتْ في أيدي الروم من قبل، وتمّت الخدعة، لأنّ هذيْن الغافليْن قد دُوهِما بعد ذلك، وحُقّتْ عليهما الهزيمة من قَبل، لأنهما قُتِلا يوم قُتِل الثور الأبيض.

وكانت مأساة بيت المقدس مما يَشيب له الولدان، فقد جرتْ به مذبحة منكرة وحشيّة لا يَعرفُ لها التاريخ مثيلاً ولا أتحدّث عنها

بغير ما تحدّث به الأوروبيون أنفسهُم، حيث قال المؤرخ الفرنسي (ميشوا) بهذا الصدد[1]:

«سرعان ما صارت المذبحةُ عامة، ذُبح المسلمون في الطرقات وفي المنازل، ولم يَعُدْ في بيت المقدس ملجأ للمغلوبين، فبعضُ الذين فرّوا من الموت ألقوا بأنفسهم من فوق الأسوار، والآخرون جَرَوْا جماعات يَختبئون في القصور والأبراج، وبخاصةٍ المساجد، ولكنهم لم يسلَموا من فتك الصليبيين، حيثُ دخلوا المسجد بسيوفهم ليصرعوا العزّل الهاربين. دَخَلهُ المشاة والفرسان، وفي وسطِ أشْنع ضوضاء، كنتَ لا تسْمع إلا الأنين وصيحات الموت، إذ كان الصَليبيون يسيرون على أكوامٍ من الجثث ليستأصلوا من يحاول الفرار.

وقال شاهدُ عيان هو (ريمون داجيل): ارتفعت الدماء إلى رُكب الخيْل وأعنّتها في المسجد، وكلّ الذين أبقى عليهم التعب من الذبح أُسروا طمعاً في أن يَفدُوا أنفسهم بالمال، ثم قتلهم الصليبيون، إذ أجبرُوهم على أن يُلقوا بأنفسهم من أعالي البروج، وكانوا يُخرجونهم من الأقبية وأعماقِ الأرض، حيث يذبحونهم فوقَ جُثث السابقين من الهالكين، إذ كانت الجثث مكدسةً لا في القصور والمساجد والشوارع فحسب، بل في أخفى الأماكن وأبعدها، ولم تنتهِ المذبحة إلا بعد أسبوع.

---

(١) نقلاً عن ترجمة الدكتور أحمد أحمد بدوي لفقرات من كتاب (ميشوا).

ويتّفق المؤرخون على أن عدد القتلى قد بلغَ سبعين ألفاً، وبعدئذ أُمر مَن بقي من المسلمين أن يدفنوا الأجسام المشوَّهة لأصدقائهم وإخوانهم، فكانوا يفعلون ذلك باكين، وجاء معهم مَن يبحث عن الأسلاب والغنائم بين الموتى».

فإذا تركنا ما قُتل من النفوس إلى مَا سُلب من المسجد الأقصى، فإننا ننقل عن ابن الأثير[1] قوله: «قَتَل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيدُ على سبعين ألفاً، منهم جماعةٌ كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وزهّادهم وعبّادِهم، ممن فارقوا الأوطان ليُجاوروا في المسجد الشريف؛ وأخذوا من عند الصخرة، نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة، وَزن كل قنديل ثلاثةُ آلاف وتسعمئة درهم، وأخذُوا تنّوراً من الفضة، وزنُه أربعون رطلاً بالشامي، وأخذُوا من القناديل الصغار مئةً وخمسين قنديلاً، ومن الذهب نيفاً وعشرين قنديلاً، وغنموا منه ما لا يقع عليه الإحصاء!».

لقد أفاضت كتبٌ كثيرة في وصف هذه المذبحة المنكرة، بما أجدُني أكلّف مشاعري عذاباً أليماً لو حاولت نقله، فحسبي ما قدمت! وهو بمضمونه مريع فظيع.

وأحب أن أشير إلى زعم روّجه بعضُ الذين يغمطون الفاطميّين كلَّ فضلٍ، إذ رأوا في مأساة الحروب الصليبية ما جعلهمْ يزعمون أنَّ خلفاء مصر حينَ رأوا شوكةَ السّلاجقة تزْداد في الشام،

(١) الكامل لابن الأثير (١٠/ ١١٧).

وتتوغّل إلى حدود القسطنطينية ـ راسلُوا الإفرنج في رومة يدعونهم إلى الاستيلاء على بيْت المقدس، وهو زعمٌ لم يُشرْ إليه مؤرخٌ أوروبي واحد، على كثرة مَن كتب من هؤلاء في تحليل أسباب الحروب الصليبية. وقد قال الدكتور البيلي في تفنيد ذلك[1]: «كيف يتّفق أنّ الفاطميّين يُراسلون الإفرَنج لمحاربة المسلمين، وهم أنفسُهم قد قاموا بمحاربة الإفرنج، ودافعوا عن عَسقلان لآخرِ لحظةٍ من قوتهم الحربيّة».

وفي الجزء الأول من (خطط الشام) للأستاذ محمد كرد علي سردٌ مُتقطّع لأعمالٍ حربيّة قام بها الفاطميّون في صدِّ الجيوش النصرانية الغازية، بلْ إنّ الجيوش الفاطميّة حين طلبتْ مؤازرة صاحب دمشق في معركة عسقلان لم تجد مُجيباً، ولو تمّ ذلك لفتح جبهةً أخرى تفرّق جهود الصليبيين، ولأمكن إتمام النّصر.

يقول الأستاذ محمد كرد علي[2]: «جهّز ملك مصر سنة (٤٩٦هـ) عسكراً بقيادة ابنه شرف المعالي، وسيّر الأسطول في البحر، فاجتَمع بالعسكر الذي خرجَ سنة (٤٩٥هـ) بساحل الرملة، والتقيا مع عسكر الفرنج فهزموهم، وحاصر شرف المعالي قصر الإفشين، وقَتلَ مَن به من الفرنج، فحضرتْ عِدّة مراكب لنجدةِ الفرنج، وحاصروا عسقلان، فرحل شرف المعالي إلى عسقلان من

(١) صلاح الدين (ص ٤٢).
(٢) خطط الشام (١/ ٢٨٥).

الرملة، وكَتَبَ إلى شمس الملوك صاحبَ دمشق يستنجده على الفرنج، فاعتذر عن ذلك».

وليت شعري أكانت جيوش الصليبيين التي اجتمعتْ من شتى أنحاء أوروبا شرقاً وغرباً خاضعةً لاستجابة أي طلب يصدر من الخليفة الفاطمي، وهي لم تستجبْ لتضرّعات إمبراطور القسطنطينية إلا بعدَ أن انتهز الفرصة بابا روما، وأعلن الغفران التّام لمن يذهب إلى بيت المقدس! إنّنا الآن في زَمن التمحيص الدقيق، ولم يعد التلفيق المذهبي الخاضعُ للأهواء المغرضة مادَّةً من مواد البحث العلمي، كما لم يعد حشد الروايات المتناقضة سبيلاً إلى سرد ما كان من أحداث التاريخ.

لقد زحف الوباءُ العاصف إلى المشرق، ولم يُفقْ المسلمون عند الصدمة الأولى، ولكنّهم جمعوا بعدُ شتاتهم المبعثر في ظل قيادات مُخلصة جابهت العدوان ببسالة صادقة، وسنرى من جهادِها الخالص من كل مأرب شخصي ما يبيِّن الواقع الصريح.

* * *

مَا قَبْلَ صَلَاحِ الدِّينْ

بعض الذين يُترجمون لعَلَمٍ من الأعلام يحاولون أن يطمسوا لألاءَ نُظرائه، وكأنّ كل إشادة بهم تعني تضاؤلاً مِنْ مجد هذا العلَم، وبعضٌ آخر في ترجمتهم للبطل أو العلم يُظهرون من أساليب الاستعلاء ما يجعلهم يُجسّمون مواقعَ الخطأ، وكأنّ البطل تلميذٌ أمامَ مدرّس يهديه سبل الصواب، وهؤلاء وأولئك يتجاوزون الحق فيما يكتبون، لأنّ السبيل واضحٌ لا يخفى على منصف، سبيل الميزان الدقيق لكل عمل، ولكل عاملٍ، دوُن الاعتزاز بشخصٍ مفرد!.

وصلاح الدين الذي نتحدّث عنه كان يدين بالفَضْل لأناس احْتَضَنوهُ ورعَوْه، وما زال يرعى لهم كلّ حق، حتّى في أشد الأوقات التي تُوجب عليه أن يتغاضى، إذ أنّه يحسّ في أعماقه أنّ رجولته تأبى عليه أن يتجاهل مكانةَ نُظرائه، وفيهم من خصّوه بالرعاية والتوجيه.

ظلّتْ كفّةُ الفرنج هي الراجحة في ميادين القتال الدائر في بلاد الشام، وظلّتْ آمالهم تزدادُ يوماً بعد يومْ حينَ يدورون بعيونهم فلا يجدونَ إلا مناوشاتٍ سريعة، تُشعلها حميّةٌ طارئة لا تلبثُ أن

تخمد، لا سيّما إذا توالى المدّ الزاحف من الغرب، ليعوّض ما قد يفْنى من الأرواح في ساحات المناوشات، وإذا اكتفى بعضُ أمراء المسلمين بمهادنةٍ ظالمة، تَقيه شرّ عدوانٍ سريع، وأَصِفُ العدوانَ بالسريع، لأنّ العدوان سيقع لا محالة، وكلُّ همٍّ أصحاب المُهادنة أن تُبطىءَ به الأيام، حتى تُلتَقَط الأنفاس.

أجلْ، لقد ظلّت كفّة الفرنج راجحةً ثابتة، حتى سمحت الأيام بظهورِ البطل الباسل عماد الدين زنكي، ومن بعده ولده البطل المثالي نُور الدين زنكي، فانتبه القوم إلى خطرٍ تلوحُ بوادره، وحاولوا المقاومة في ميادين شتّى، جعلت آمالهم البعيدة تقصرُ وتتضاءل، ثم جاء صلاح الدين فكان حاجب الرجّة الهائلة التي قضتْ على الآمال، وأوْقفت المعتدين على شفَا جُرف ينذرهم بالهوّة التي انفجرت تحت أقداهم، فاضطربوا حائرين.

لقد كان عماد الدين زنكي صاحب المَوْصل أوّل حاكم إسلامي نظرَ للخطرِ الصليبي نظرةَ الموْتور السليب الذي تتأجّجُ مشاعرهُ حفيظة وغيظاً، وكان ذا حنكة عاقلة تدفعه إلى تأمُّلِ ما يأتي وما يدع، فقد جالَ ببصره ناظراً شتّى الإمارات العربية الواهية من حوله، تلك التي تترَبَّص فناءها بين ليلة وليلة، وهي على حالٍ من التخاذل والتدابر يقدّمها لُقمةً سهلةَ الازدراد، فصمّم على أن يُوحّد الإمارات تحت قيادته طوعاً أو كرهاً، فضمّ الموصل إلى أكبر بلاد الجزيرة، ثمّ عبر الفرات فاستولى على حلب وجاراتها في ربوع الشام! واطمأنّ إلى قُوةٍ أخَذتْ تجتمعُ تحتَ سلطانه، ولم يَبْدأ

القتال حتّى نهض بحركة عُمرانية شاملة، فأحيَا الزراعة وأمَّن الطّرق، وشقّ الترع، ومهَّد سبيل النّماء الاقتصادي، ودَعا الفقهاء إلى القيام بدورهم في شرح قضية الجهاد، داعين إلى البذل والاستشهاد، وأهَاب بالشباب أن يشتركوا في كتائب تدريبيّة لا تنقطع مناوراتها الدائبة، حتى اطمأنَّ إلى أنه يستطيعُ أن يبدأ واثقاً من النجاح.

وكان الفرنج قد تجمَّعوا بينَ حلب وإنطاكية في مكانٍ يتوسّطه حَصنُ الأثارب، إذ أخَذُوا ينْهبون ويفتكون دوُن أن يجدوا الدّفع المصادم، ثم همْ في ساعةِ الخطر يفرُّون إلى الحصن المنيع، مطمئنّين إلى أسواره الحصينة، فأرسلَ عمادُ عيونه لمراقبة ما يصنعون بدْءاً من الفجر حتى يخيّم الظلام، وفي تَحديدٍ دقيق لموعدِ هجومٍ مُباغتٍ فاجأ القومِ بحشْد لمْ يتوقعوه، وأثْقلَ عليهم بما يُرسل من صواعق الموت، ففُوجئوا لأولِ مرَّةٍ بكفاحٍ لم يألفوه، وارتاعتْ نفوسهم حينَ وجدوا جثَثهم تتساقط تحت سنابك الخيْل، وقد وقف أمامَ الحصن من يَصدّون الهاربين ليرجعُوا إلى موقد النار في الميدان، وسقط الحصن، وهرب الأعداءُ إلى قلعةِ حارم، فتتبّعهم عماد الدين، فاضطروا إلى عَقد هدنة مسالمة، قَبِلَها عماد الدين، لا ليكفَّ عن القتال، بل ليجد الوقتَ الملائم لمعركةٍ جديدة.

وكانتْ معركة الحِصن أَوّلَ نصرٍ حقيقي اندحر به الأعداء،

فأخذتِ الثّقة المفرطةُ تتزعزعُ في نفوسهم، إذ رأَوْا قوةً جديدة لا عهد لهم بها من قبل، على حين عادت الثقة إلى الكتائب الإسلامية، حين أبصرُوا الأعداء يَفرّون في ذعر، فتأكَّدوا أن النّصر ممكن لا مستحيل!.

اجتمع أمراء الدول اللاتينية الأربع، يتشاورون بشأن عماد الدين، واتّفقوا على أن يَخوضوا معركةً تذهب بعارِ معركة (حصن الأثارب) فصمّموا على مهاجمة (حلب) وهذا ما توقعه عماد الدين إذ كانَ جيشهُ بقيادته يُحيط بها، فَرأى ألا يتركَ لهم وقتاً للتجمّع، فانقضّ بجنوده على اللاذقية، ودارتْ بها معركة طاحنة خَسر فيها الصليبيون خيرةَ شبابهم، ووقعَ في الأسر أكثرُ من سبعة آلاف، على حين ترك الهاربون من الذّخائر والأسلاب ما صارَ مدداً للجيش الإسلامي.

وهُنا صمَّم العدوُّ على الاستنجادِ بملك القسطنطينية، وكانُوا يتوجَّسون شرّاً من مطامعه، فلا يُبدُون مَظْهراً من مظاهر البشاشة نحوه، ولكنّهم وَازنُوا بين سيطرته وسيطرة عماد الدين، فرأوا أنّه صليبيٌّ مثلهم، ورآها الملك فرصةً مناسبة لِضمّ بعضِ البلاد إلى ملكه، فزحف بجيشه إلى حلب، وعَسْكر في نطاقها، ولكنّها امتنعتْ عليه، فانتقل إلى شيزر، وهي إمارةٌ صغيرة لا تحتاج إلى جهد كبير، وكأنّه أرادَ بالانتصارِ عليها أن يُثْبتَ لمن استَنْجدوا به أنّه ذُو شأن!.

وقد فَهِم عمادُ ببصيرته الحربيّة أنّ العدوّ القادم يريدُ نصراً

عاجلاً لا يكلفه الكثير، فسرعان ما خفَّ إليه، وقد أعملَ الحيلة الماكرة بدهائه، ليكسبَ بها ما يكسبُ من المعركة الساخنة، فبعثَ بداهيةٍ ممن يعرف إلى ملك الروم يُخوّفه من الفرنج، لأنّهم تركوه وحده أمام حلب، ولنْ يُسعفوه إذا الْتقى بعماد الدين، ومعه من الحشدِ المستبسل ما لا قِبل له به، وقد فكَّر الملك في قُدومه الطارئ على غير استعداد، ورأى من تَخاذل الفرنج أمامهُ ما جَعَله يميل إلى الانسحاب، وإذْ ذَاك هجم عماد الدين عليه ليذعره، فيفرّ تَاركاً آلاف الذخائر والأسلاب! وكانَ هذا الانتصار ذَا دويٍّ رنَّان في العالَميْن الإسلامي والمسيحي، حيثُ سرُّ به قومٌ، وفزع له آخرون.

ثم ماذا؟ إنّ عماد الدين للآن يتعقّب الفلول في معارك نائية عن ممالكهم الأربع، وكلُّ ذلك لا يشفي صدره مَهما كَسبَ النصر، فَليس لمثله أن يكتفي بالدّفاع عن عواصم الإسلام، ولكنْ لا بدّ من إسقاط عواصم الصليبيّين، وأقربها إليه (الرّها)! ولكنْ هل يهجم عليها وصاحبها متحفّزٌ متوثّب!! لقد لجأَ إلى الحيلةِ التي أسعفته من قبل، فجعل يُولّي حُشوده إلى ديار بكر وآمد وحمص، ليطمئنّ صاحب الرها إلى أنه في مأمن من الهجوم! وهذا ما وقع فعْلاً، حيثُ نزحَ الرّجلُ عن ولايته مطمئنّـاً إلى مَن خلَّفه من الجند، وكأنّ عيون عماد كانت ترقبه، فما علم برحيله حتى عجّل بمداهمة (الرّها) على حين غفلة من أهلها، وكانَ الهجوم كاسحاً مُشتعلاً، فسقطت الرّها في أيدي المسلمين، وكانَ عماد الدين كريماً، فترك غير المحاربين دون عقاب، وسمح للنساءِ والأطفال والشيوخ بالرّحيل دُون انتقام! مع أنّ مأساة بيت المقدس لم تغبْ عن خاطِره،

ولكنّه آثر الصفح، وعافَ الانتقام!!.

لقد كان سقوطُ الرّها أوّل نذير بالفناء للدول الصليبية، لأنّها قد شجّعت المسلمين على مواصلةِ التحرير، وأوقدتِ الحسرة في نفوس الهاربين، فأقبَل بعضهُم على بعض يتلاومون حيثُ لا ينفع الملام!! وكانَ من المنتظر أن يستكمل البطل جهاده، وقد بدأ الخطوات الأولى بنجاح بل باكتساح، ولكن يداً آثمة تربّصتْ به فاغتالته، وما اغتالت حركةَ التحرير، إذ ثبتَ لها من بعده ولده البطل المثالي (نور الدين).

إنّ نور الدين يحتاجُ إلى كتابٍ بكامله، لأنّ الذي يتحدث عنه لن يقصر حديثه على شجاعته وحدها، فهو في ذلك بطلٌ كغيره من الأبطال، ولكنّه سيذكر مروءته التي قلَّ أن يُوجد نظيرُها في التاريخ! حتى إن أكثر من تحدّثوا عنه قالوا: إنّه لم يأت بعد الخلفاء الراشدين غير عمر بن عبد العزيز ونور الدين، وهم غير مُبالغين فيما قرّروه؛ لأنّ روائعه النادرة قد قدمت الدليل!!.

لقد كانَ الصليبيون على ذُعر من عماد الدين، فلمَّا انتقلَ إلى رحمة ربه، رأَوْا أن يجمعوا أمرَهم لاستعادةِ ما فَقدوه من قبل، ظانّين أنّ مَن خلفه لا يبلغ مبلغه، وقد جاءتِ الكتائب بأساطيلها الزاحفة لتكون عوناً لمن يطلبون الثأر.

ومِن خزيِ الحياة أنّ نفراً من حكّام المُدن الإسلامية توهموا ما تَوهم الفرنج من قلة بأس نور الدين فانْدفعوا إلى معاهدة الصليبيين، ورَضُوا أن يدفعوا الجزية لهمْ عن صَغار!! وأن يكونُوا

عونَهم حين تأزفُ ساعة الهول مع البطل الجديد، وسابَق كلُّ مرتعشٍ أخاه في التزلُّف لعدوِّه، ولو كانَ عماد الدين باقياً يدير المعركة، لَوَجَّه جيشه إلى هؤلاء منتقماً غاضباً، ولكنّ مبدأَ نور الدين الذي اعتنقه حين انتقلَ إليه الأمرُ ألّا يُنازل مسلماً، وإنْ ظهر سَفَهُهُ، وعليه أن يتجرّع غيظه من فعله باذلاً وُسْعه الواسع في استمالته حتى يردّهُ إلى حظيرة المؤمنين؛ هذا المبدأ المثالي كلّفَ الرجل أعباءً جساماً، وأثارَ انتقاد رجال مِن فريقه، ولكنّه كان يثق بعون الله، فيردّ على المعترضين بأنّ الله لن يضيّعه، حين يمتنع عن نزال جنودٍ يعتقد أنهم غير راضين عن صنيع حُكَّامهم، وإنما أُجبروا على الإذعان لهم، وَهُم مسلمون قبل كل شيء.

وقد زَحفت الكتائب الجديدة من فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا يباركها القسُسُ الذين يتقدمونها بأمر الكنيسة إذْ ذكر مؤرخو الفرنج أنّ الجيش الزاحف بلغَ ألف ألفِ عنانٍ من الرجّالة والفرسان، وقد قصدوا أولاً بيت المقدس، فصلُّوا ما سَمَّوه صلاة الموت، مُعتقدين أنَّ كتائب الفرسان والبارونات وأرباب الحنكة العسكرية ستقوّض ما وقع فيه غير المدرّبين، ممّن سقطت الرها على أيديهم.

واتّجه الزّحف إلى دمشق باعتبارها تحتَ والٍ لا يملكُ قوة نور الدين، وفَطِن البطلُ المثالي إلى الخطر، فَدَعا للجهاد، واصطحبَ أخاه سيف الدين صاحب الموصل، وكانَ ذا حميّةٍ لبّت النداء في حماسة، لأنّ الأنباء الصاعقة عن فزعِ الدمشقيين قد ألهبت الغَيْرة الإسلامية في الصدور، وقد علم نورَ الدين أن الشيوخ والأطفال

والنساء قد ازْدحموا بالمسجد الأموي، يضجُّون بالدعاء حولَ مصحف عثمان، فقال في هدوئه المؤمن: شفاعةُ المصحف لنْ تُردّ، وهذه علامةُ النّصر، وكأنّه يذكي حميّة من معه.

وكانَ صاحبُ دمشق أحدَ من عاهدوا الصليبيّين على السَّلام ضدّ نـور الدين، ففـوجئ بغَدْرِ الحليـف، وتيقّـن من الهزيمـة الكاسحة، ولكنَّ مفاجأته الكبرى بتقدم نور الدين إلى نَصْره، قد هزّت نفسـه هزاً، فاندفعَ يُبدي الاعتذار باكياً لنـور الدين، فقابله باسماً راضياً، وَأوْقد نار الحرب حول دمشق، واندخرت البَارُونات بقيادة ملك الألمان اندحاراً لم يتوقعوهُ، ولكنّهم صمَّموا على جمع الشمل، والاتجاه الفوري إلى حلب مقرّ نور الدين، ظانّين أنّه جَمع كلَّ عدته في دمشق، وأنّه لا يستطيع اللحاق بهم حيثُ يدهمونَ حِصنه الحصين في غيابه، ولكنّه كان أسرعَ منهم خطواً، وكانَ أخوه سيف الدين عَضدُه الأشد، مع نفرٍ ممّن عَرفُوا معدن نور الدين، فلاموا أنفسهم إذ سَكتُوا عن نُصرته من قبل، وأقْبلوا طائعين.

أقولُ: مع نفرٍ فقط، لأنّ مجير الدين صاحب دمشق الذي كسبَ له نصراً لم يتوقعه، قد ساءَه أن يكونَ نورُ الدين بطل الموقف، فآثر التّعاهد مع الفرنج من جديد، وكَتبَ إلى نور الدين يُعلن أنه لا يرضى ببقاءِ بعض جنوده لديه، وليس بينه وبينه غير السيف، وسيوف الحلفاء من الفرنجة!!.

وهو موقفٌ كان الردُّ الطبيعي عليه أنْ يعجّل به نور الدين، بعد أن دَافـع عن حلب، ونَجـح في ردع المتحـرّشـين، وخَيَّـب

ما ترعرع في نفوسهم من آمال، ولكنّه وجدَ طوائف العلماء وكتائب الشباب المسلم تهرع إليه من دمشق، وتُعْلنُ أنها معه ضد الخائن المارق، وأنّه إذا جدّ الجد فلن يجد أحداً ممن يَتَظاهرُ بتأييدهم إياه، مسلمين وفرنجة، وكأنّ الحظ كانَ يُساعد نور الدين، لأنّ حلفاءه اللئام قد اتّجهوا إليه طالبين المَد الحربي، والجزية المالية معاً، قبْلَ أن يعصِفُوا بملكه، وهي كارثة صُبَّت عليه ولم يكنْ يَحسبُ حسابها من قبل، إذ ظنَّ أنّه بمعاهدته اللئيمة قد أَمِنَ كلّ شرٍّ يحيق به من تلقائهم، فسارَ في خزْيٍ تحت ستار الليل إلى نور الدين تائباً باكياً! يسأله الصفح، وقد كان حول البطل مِن رجال دمشق مَن لَعنوا مجير الدين في وجهه، ورَجَوا نور الدين أن يحاسبه على غدْره، ولكنّه استمع إليهم في مودّة، وطَمأنَهم إلى أنّ الرجل قد بلغ من الذلّة مبلغاً يوجب العفو والإغضاء، إذْ لا قِتال مع جريح مُستضعَف، وَحسْبهُ أن أَنابَ؛ وقد صَدقت فراسة نور الدين؛ لأنّ الفرنجة لم يتخيّلوا انضمامَ مجير الدين إليه في ساعة الهول، بعد أن نابذه العداء، فَنَكصوا عن دمشق، حتى تتهيّأ الفرصة السانحة بَعد مددٍ أوروبي جديد.

وفي هذه الملمّات الداجية ماتَ شقيقه سيف الدين صاحب الموصل، وجاءه الموصليون يريدونَه أميراً على بلادهم بعدَ انتقال شقيقه، ولو كان البَطلُ ذا رغبةٍ في النفوذ الدنيوي للبّى الرغبَة في عجلة، إذ لَيْس أمامه من يُعارضه، وقد كانت الموصل في حَوزةِ أبيه؛ فهو ليسَ بالغريب الواغل، ولكنّه شاء أن يَضرب المثل في السماحة، فقال للقوم شاكراً: لن أتخلّى عن مؤازرتكم إذا جدّ

الجدّ، ولكنّي أترك الموصل لأخي الصغير، ليحلّ محلّ أخيه، لأنّ أعباء الجهاد لا تتركُ لي فراغاً لإدارة الموصل. وهو ردٌّ ملطّف؛ إذ كانَ في طَوقه أن يُعيّن قائداً يصدِرُ عن أمره ويظلّ في حلب، وقد امتدّ سلطانه إلى أطراف بغداد!.

على أنّ كثيراً من مستشاريه لم يُوافقوه، إذ خُيّل إليهم أنه إذا مَلكَ الأمر بيده كانَ ذلك أقوى وأحزم، فظل يُناقشهم حتى آمنوا بوجهة نظره، ورَجع الموصليون يعجبون لملك زاهدٍ خَلاَ من الطمع، وكانتْ فرصةً للموازنة بين مسْلكه ومسْلَك أبيه عماد الدين، إذ كانَ الوالد ممن يَروْن أنّ ضمّ البلادِ في قبضة حاكم واحد أدْعى للاتحاد والنّصر، على حين يرى نجله نور الدين أن امتلاك القلوب أوْلى من امتلاك الربوع!!.

وجاءَت الأنباء لنور الدين مُعلنةً أن القائد الصليبي العَنيد (جوسلين) بطل الفرنجة الأوّل يجمع الفرنجة جاهداً للزحف القادم. وقد كانَ أسيراً من قبل في معركة دمشق، ورأى نور الدين أن يُطلعه بعد أنْ أبدى الاعتذار والتوسُّل، وحَلف ألا ينازل جيش نور الدين!!

جاءت الأنباء لنور الدين بما يعتزم جوسلين من الغدْر علانية دون تهيُّب، وكانت له عيونٌ في جيشه تأتيه بما يتمّ في السرّ قبل أن يبدأ الشرّ، فعلم أن ثورة الانتقام الغاضب في صدر الغادر ستدفعه إلى أن يجمع الحشود من الإمارات المختلفة، ليكون معتزّاً بقوتها الكاسحة، وقد أرسلَ كُتُبه في ذلك، كما جاءَ النّبأ من عيون نور الدين؛ فصَلّى لائذاً

بربّه، سائلاً عونه فيما سينْفجر من هَوْلٍ متوقع، وهداه تفكيره إلى منازلةِ جوسلين قبل أن يلتمّ مع الشمل، وذلك ميسُورٌ، لأنه ـ ثقةً بنفسه ـ يخرجُ إلى الصّيد مع كتيبة خاصة به قاضياً بعضاً من اللهو في قتالِ الحيوان لا الإنسان، وكأنّه يدرّب نفسه للمعركة المُقبْلة، ومن الخير أن تُوجَّه إليه كتيبةٌ مماثلةٌ، تنازله في رحلة الصيد فلا يستطيع الفرار؛ هذا ما فكّر فيه نور الدين بعد أن انتهى من صلاته سائلاً ربه أن يهديه طريق الصواب، وقد اطمأن إلى ما اهتدىَ إليه من حِيلة تدرأ الشر، فأعدّ الكتيبة الزاحفة، وحدَّد موعد اللقاء، وكأنّه كان يرى بظهر الغيب ما سيكون، إذ سارَ كلّ شيء كما دبّر، وَوقع جوسلين في الأسر ليلقى المصير!!.

لقد كانَ بعضُ الأغرار يرون في سماحة نور الدين غفلةً عن الانتقام الحاسم، ويظنّونه يأخذ بظواهر الأشياء لا ببواطنها، فلمَّا رأوْا كيف استطاعَ أن يأسر البطل الصليبي بأهونِ ما يُبذل من كفاح، عَرفُوا أنّ الرجل بعيد الغَوْر، قَصِيّ النظر، ولكنّ أخلاقه الرفيعة تنأى به عن الإسفاف.

ولم تكنْ هذه سياسته مع جوسلين وحدها، إذ واصلها مع عدوّ آخر هو (مليح بن ليون) ملك الأرمن، فقد كانَ يتحصّن في بروج منيعة، مِن دونها طرقٌ وعْرة تحتاج إلى عناء مفرط في الاقتحام، وقد دأَب على أن يُباغت المسلمين في معارك سريعة، ثم يلجأ إلى حُصونه آمناً، فكانت الأرضُ الوعرة عوناً له على النصر، ومثله ـ في شره ـ في حاجةٍ إلى الصبر الطويل، وقد عَرف نور الدين

أنـه يتعـالى على قـادة الفرنجـة في الولايتيْن المُتاخمتين، وأنّهم يتربَّصون الشرّ به مجتمعين، فأرسل من عيونه من يُخبره بذلك.

وتحقق (مليح بن ليون) من هول ما يُدبَّر له من ناحيةٍ كان يأمنها، ثم جاءَه من يطلبُ منه الذخيرة معونةً للجيش الصليبي المتأهِّب للقتال، فعرف أنهم يريدون استنزافه بحيلةٍ خادعة، ورأى أن يعاهد نور الدين ليتقوّى به على كيدهم، فلاقى نور الدين رُسله بحفاوة، وعاهَده على ألا يتربّص به إذا لَزم الحياد المطلق، فكَسبَ نور الدين بذلك معركةً سليمة دون أن يُريق قطرة دم من جنوده، وفُوجئ الفرنجة باحتماء (مليح بن ليون) بنور الدين، فعرفوا أنه أصبح منهم بمأمن منيع!.

على أن أعمال الحروب لم تُنسِ البطل المثالي أن يقوم بكافة ضـروب الإصـلاح الـداخلـي، بـاعتبـاره المـدد الأول للنضـال الخارجي، فشيّد القناطر والجسور، وأقام أبراج الحمام الزاجل على الطريق، فإذا حَاق الخطر بأيّ موقع إسلامي قام الحمام بدوْره السريع لينهضَ البعيدُ لمساعدةِ المأزوم، كما اهتمّ بأعمال الزراعة والتجـارة، وكـان يـأخـذ مـال الفـداء ليضـع أكثـره فـي مهـامّ المستشفيـات والملاجـئ والمدارس والمسـاجد، ويعدُّها جميعها في مسـتوى واحد من اهتمامه.

وقد ذكر ابن الأثير[1] أن بَعض أصحابه أخذُوا عليه كثرةَ

---

(١) مع الأبطال، للدكتور محمد رجب البيومي (ص ١٠١)، تلخيصاً لكلامِ=

نفقاته على الطلاب والقراء والفقهاء، فقال في ثقةٍ: والله إني لأرجُو النصر بهؤلاء، فإنما تُنصرون بضعفائكم، إنهم يقاتلون عني بدعائهم في الصلوات، وكان إيمانه الواثق يدفعه إلى الصمود في ساحات القتال، حيث الموت المحقق، فقد هجم عليه ذات موقعةٍ جيشٌ صليبي يفوقُ جيشه أضعافَ الأضعاف، وكانَ القتال حامياً ملتهباً، فاضطر كثير من الجند للانسحاب، وأصرَّ نور الدين في نفرٍ قليل من جنده على الثبات، ونظرَ الصليبيون إلى ثبات نور الدين في قلّته الضئيلة، فقالوا: إنّها مكيدةٌ مدبّرة تَدفعهم للهجوم كي يُفاجؤوا بما لا يتوقعون. وآثروا السلامة فانصرفوا مهرولين، وحَارَ نور الدين في تعليل ما رأى، ثم قطع حيرته بصلاة الشكر لله.

وقد حاصر الصليبيون دمياط، وجاء الخبر إليه ففزع، ورجع إلى المسجد يصلي داعياً راجياً، ثم جلس يستمع إلى حديث ديني يشرحه عالم بالمسجد، فورد بالحديث ما جعل السامعين يبتسمون، وتطلّع من يجاور نور الدين سائلاً إياه، لِمَ لَمْ تبتسم معنا؟! وكان البطل في وادٍ آخر؛ فقال لسامعه: والله إني لأستحي من رسول الله ﷺ أن تبتسم شفتاي والمسلمون محاصرون في دمياط!!.

قلت: إن نور الدين يحتاج إلى كتاب برأسه، وقد ظهرتْ كتبٌ خاصة به، ولكن أكثرها يذكر الأحداث التاريخيّة دون أن يلج إلى أعماقها، فيأخذ العبرة النافعة ويُقدّمها للقارئ إذكاءً لحميّته، ورفعاً لمستواه الخُلقي، وقد يكون الحديث بمضمونه في غنية

= كثير قاله ابن الأثير في الكامل.

عن التعليق، ولكنّ التاريخ يُقرأُ فيما يُقرأ للقدوة والعظة، وليس لمعرفة ما كان فحسب! ولن تكتملَ الخطة إلا إذا سِيقتْ من خِلال الحدث الباهر مشفوعةً بالتحليل العقلي لا بالحماسة الخطابية، وهذا ما يعوزنا كثيراً فيما نقرأ من تراجم المصلحين.

لقد كان عماد الدين زنكي وولده نور الدين مقدّمةً رائعة لصلاح الدين، وبمتابعة مواقفهما الجليلة نَصِلُ إلى متابعة مواقف صلاح الدين في حلقاتٍ متكاملة، يشهدها القارئ في تسلسلها المطّرد دون انقطاع! ولا أعني أنّ الكاتب ملزمٌ بسرد كلّ ما وقع، ولكنْ باختيارِ ما كان له سببٌ وثيق في مجرى الأحداث، وما كان مصدر قوة في تحديد المصير.

* * *

أسرة باسلة

البدوُ والكُردُ والبربر أقوامٌ جُبلوا على الحرية والبأس، يبذلُون ما في نفوسهم من شجاعة، وما في أيديهم من خير، دونَ تراجع؛ لأنّ الفطرة الأولى لا تزال تسيطر على أرواحهم، وهمْ يعطونك ما تريده من أنْبائهم الصادقة دُون حاجة إلى الخداع، إلّا إذا اتصلوا برجال السياسة فاطمأنُّوا إلى أساليب الدبلوماسية وحذقوا ضُروب المراوغة، ولكنْ لهم مع ذلك صدقُهم الوافي، ووضوحهم الساطع.

أقولُ ذلك لنعرفَ البيئة الكرديّة التي أحاطت بأسرة صلاح الدين قبلَ أن تتنفس الحياة عن وجوده، فهي بيئةٌ قريبة من البيئة العربية في البادية، شجاعةً وحميّةً وأنفةً واشتهاراً بالكرم والسخاء وعُزوفاً عن الصغائر، ولو عرف هؤلاء الفطريون أساليبَ الحُروب الحديثة، وملكوا أدواتها الصاعقة لا تثْبتُ أمامهم أمة من الأمم، فهم أهل نخوة وفداء واستبسال، ولكنَّ القوة الجسميّة ليست كل شيء في ميادين القتال.

اشتهرتْ نساءُ الكرد كما اشتهر الرجال بضروب الشجاعة، فالمرأةُ تُقاتل جوارَ الرجل، والقبيلةُ تأخذ دروس الفروسية في

الهجوم والدفاع تحسُّباً لغارة مفاجئة، أو توقعاً لمعاونةٍ كريمة يطلبُها حليفٌ معاهد، لذلك كانَ الأمراء من حولهم يتّصلون بهم ليأخذوا مِن رجالهم مَن يكونونَ عدّتهم في القتال، وقد عَرفوا فيهم الصراحة والوفاء، فهم أكثرُ اطمئناناً لهم من ذوي قَرابتهم الذين لا يخْلون من تنافُسٍ يُفضي إلى الشقاق، وحين أراد الفرس أن يُخضِعُوا الكردَ لطاعتهم وجدوا منهم شماساً وعنفاً وحميّة فلجؤوا إلى المسالمة، لأنّ قوتهم الحربيّة حنيئذٍ لا تَغلب قوماً يشنّون الغارات في الظلام ويعتصمون بالجبال في النهار، فتمّ لهم الغَلَبة على المدى الطويل.

ومن قبائل الكرد ظهر زعيم القبيلة شادي ـ والدُ البطلَيْن أيوب وشيركوه، وَجدّ صلاح الدين بن أيوب ـ وهو بطلٌ باسل عَرف الفرس مكانه فاصطنعوه، ولكنّه أبى أن يكونَ ممتثلاً إلا لما يراه الصواب؛ فتركهم إلى حياةِ القبيلة في (دُوين)، ثم انعقدتْ أواصر الصداقة بينه وبين مجاهد الدين بهْروز، وهو رجلٌ ذو همةٍ، سَمع عن شادي فاصطفاهُ ليكون ساعداً له في عمله السياسي بالعراق، تابعاً للسلطان مسعود السلجوقي، وأميناً على حفظ الدولة بهذا الإقليم، وكانَ من شأنه أنْ يبحث عن الشجعان في القبائل النازحة ليكونوا أعوانه في استتباب الأمن، دُون غَرض شخصي، لأنّ المواطن البغدادي ذُو عشيرة معروفة فهو يُمالئها وينحازُ إلى جانبها، وربّما أوقع خُصومَها في اتهامات باطلة تجرّ إلى نزاعٍ طويل، أما الغريبُ الطارئ من الأكراد فليسَ بِذي غَرَض غيرَ استتْباب الأمن.

وقد أبدى شادي البطلُ همّةً عالية لَفتَتْ الأنظار إليه، فرأى مجاهد الدين بهروز أن يكون عامله على تكريت، يقومُ بأمرها بين طائفة من قومه الكُرد، يعرفهم بطبائعهم واتجاهاتهم، فيحفظ وسائلَ الأمن، ويقضي على المنازعات الطّاحنة، لا سيّما أن وَلَديْه؛ أيوب وشيركوه قد بَلغَا مرحلة الشباب، ولهما صِيتٌ نابه بالشجاعة والمهابة، فهما سَاعِداه وعَضُداه، وهكذا أصبحتْ تكريت مقرّاً آمناً للأسرة النازحة من (دوين).

وكانت المنازعات في هذه الربوع لا تكاد تنقطع، وبغدادُ حائرةٌ فيما تصْنع بين المتنازعين، فلما تمّ الأمر لشادي وولَديْه شعر الكرد أنّ الذين يلُون أمرهم من بني جنسهم، ففاؤوا إلى طاعتهم، وأصبح القوم في مَنَعةٍ تدفع عنهم الغوائل، وماتَ شادي، فبقي وَلَداه يترأسان القوم دُون أن يَطْغى أخٌ على حقوق أخيه، إذ كانَ أيوبُ ـ وهو الأكبر ـ يرعى حقّ أخيه، ويغفر له ما قد يتورّط فيه من أخطاء، ومنها خطأٌ لم يَحُزْ رضا بغداد، فكان موضع لجاجٍ كما سيجيء.

وقد صادفَ أن صاحب الموصل عماد الدين زنكي قد هاجمَ بغداد بجيشٍ أعدّه لمنازلة الخلافة، وَمالأهُ السلطان السلجوقي على ما أراد، ولكنّ الخلافة استعانت بالفرس على الترك، فهُزم عماد الدين، وفرّ هارباً إلى تكريت، واحتمى بنجم الدين أيوب، فدفعتْه شهامتُه إلى معونته، وأقامَ له السفن، وسهّل له عبور دجلة سالماً إلى الموصل، وهو عملٌ متسرّع لم ينظر نجم الدين إلى عاقبته،

إذ المفروض أنّه يمثّل حاكم بغداد، وصاحب الأمر فيها، وعماد الدين زنكي عدوٌّ حارب الخليفة وحاولَ إسقاطه.

وقد تبرَّأ مجاهدُ الدين بهروز من صنيعه، فكيف يقفُ في جانبه بَدل أن يقبض عليه ويسوقه مخفوراً إلى مقرّ الخلافة! لقد كان الموقف صعْباً بالنسبة لبهروز، إذْ من المحتمل أن يظنّ الخليفة ومَن معه أنّه مجنّدٌ لما فَعلَ أيوب فهو مُحاميه ومجْتبيه، لذلك أرسل بهروز كتاباً يؤنّب فيه نجم الدين أيوب وينذره بالشر.

ثم عظمت المأساة حين قَتلَ أسدُ الدين عيْناً من عيون تكريت ذَا هيبةٍ ومقام لخلاف جرى بينهما، وارتفعَ الأمر إلى بغداد في وقتٍ كانت تتهيّأ لعملٍ حاسم ضدّ نجم الدين أيوب وأخيه أسد الدين شيركوه، وطبيعيٌّ أن يَشعرا بما يُبيّتُ لهما، فصمّما على أن يتركا (تكريت) إلى الموصل.

وفي الموصل عمادُ الدين، وقد أَسْلفَ إليه ما كان السبب في السخط عليهما، وكانَ الرجل عند ظنهما به، فأحسنَ لقاءهما، وأقطعَ لهما إقطاعاً كبيراً، وصارا من جُملة جنده، وكانَ في عماد الدين صدقُ نظرٍ في الناس، فأخذَ يخبر معدِنَي الوافدَيْن اللاّجئيْن عَن فراسةٍ تهديه، فعرفَ مكانهما من السياسة في الإدارة، والبسالةِ في القتال، فجعلهما في مقدمة مستشاريه، وقَذفَ بهما في المعامع المشتعلة، فحققا صدق نظره، ودوَّى لهما ذكرٌ جهير في المَوصل، وما انضمّ إليه من البلاد، وبهذه الرحلة الميمونة تمهَّد للأسرة طريقٌ سريع إلى القيادة والعَلاء.

ويذكرُ المؤرخون أنّ صلاح الدين قد وُلد ليلة رحيل أبيه نجم الدين أيوب إلى الموصل، وقد حَمله في الركب مُتسائلاً عن مصيره المجهول، إذ كان لا يَدري أيْن يكون موقعهُ من عماد الدين، حتى قيلَ: إنه تمنَّى أنه لمْ يولدْ في مثل هذه الظروف الغامضة، وما درى أنّ القدر قد هيّأهُ لقيادة الأمة جميعها إلى برِّ النجاة!.

لم يجهل الأخوان أيوب وشيركوه أنّهما في ظلٍّ بطلٍ محارب، وأنهما موضعُ اختباره، وعليهما أن يثْبِتَا لهُ أنّه في حاجة إلى جهدهما قَبْلَ أن يكونا في حاجة إليه، ولديْهما شجاعة موروثة تدفعهما إلى اقتحام المعارك وركوبِ الأهوال، وقد صحبهما عماد في أُوليات معاركه، فرأَى من قوة الشكيمة، وشدّة الاحتمال لديهما الشيءَ الكثير، وقد عَرفَا ثقة الحاكم في أُناس يُظهرون الإخلاص في السِّلْم، ولا يبْذلون جهدهم الجاهد ساعة الهَوْل، فلمْ يُبلِغا عمادَ الدين عنهم ما لَحظاه من التراخي، ورأيا أن يصارِحا بما جاش في نفوسهم على سبيل النصيحة المفروضة على كلّ جندي في ساحة القتال.

وعَرف عماد الدين عنْ غير طريقهما ما يكنّانه من الإخلاص له، فكانَا في المرتبة الأولى لديْه، ولعلّهما وَازنَا بيْن حياتيهما في تكريت، واتّساع نشاطهما عندَ عماد الدين، فرأيا أنهما كمن انتقل من قريةٍ نائية إلى عاصمة مزدهرة، كما خالَطا مَنْ في حضرة عماد الدين من الفقهاء والقضاة والعلماء، فَعرفَا من أحداث الماضي، ومِنْ وقائع الحاضر ما أمدَّهُما بثقافة لم تكنْ لهما من قبل، وقد

امتدتْ بهما الآمالُ إلى ما لم يكونا يتوقّعانه، والطفل ناعمٌ في مهده لا يَدريانِ من أَمره ما سيُشرق به صباحُه الوضيء.

وقد رأى عماد الدين بعدَ ما شاهد من بلاء نجم الدين أيوب أن يُقمه حاكماً على بعلبك بعد أن طرد عنها الصليبيين، وذلكَ لما لَمسهُ من مهارته الحربية والإدارية معاً، فقد كانتْ بعلبك مركزاً خطيراً للصليبية، تحشد فيه قوَّتها لمهاجمة حلب ودمشق معاً، وسقوطُها في يد عماد الدين يعني انهيار سندٍ قوي يمدّ العدو بالذخيرة والجنود حين تتلاقى الجيوش الهاجمة على إحدى البلدتين، وهو ما توقّعهُ نجم الدين حيثُ وَاصَل ليله بنهاره في تعبئة الروح العامة للشعب جوارَ تهيئة الذخيرة للجيش، وطلبَ من عماد الدين ما يُساعده على مبتغاه؛ فكانَ يُرسل له ما يريد.

وقد طالت إقامة نجم الدين نسبيّاً في هذه البلدة، وبها نشأ ولده صلاح الدين وأخذ يتلقّى دروس القتال، وهذا مَا لم يُتح لوالده نجم الدين أيوب، ولا لعمّه أسد الدين شيركوه، لأنّهما نشأا نشأةً بدوية خالصة، تعتمدُ فيها الحرب على الذكاء الفطري دونَ درْسٍ منظم، كما لم يُتح لهما ما أتيح لصلاح الدين من تلقّي العلم والتاريخ على كِبار العلماء مُنذ نشأَ، وهذا مما زادَ في خبرته الحربية؛ لأنّ دَرْس التاريخ الإسلامي يُورثُ عزةً في نفس المؤمن، حين يعلمُ الدارسُ الناشئ أنّ جيوش الإسلام قد اكتسحت مملكتين كبيرتين، بل إمبراطوريتَيْن عظيمتين في عهدِ خليفةٍ واحد، مسلّحةً بإيمانها الجازم.

وقد ظلّ أسد الدين في حاشية عماد الدين بالموصل، يستشيره في كلّ أمر، ويُوفدهُ رسولاً إلى أتباعه وخصُومه معاً، وهذه ثقةٌ لا شك فيها، ولكنّه لم يكن ذا استقلالٍ ذاتيّ في إمارةٍ خاصة كأخيه نجم الدين، ولعلّ عماد الدين لحظَ اتّئاد نجم الدين وطول صبره فرآه أجدرَ بالحكم في إمارةٍ خاصة، كما عَرف في أسد الدين اندفاعاً وتوثّباً وانتقاماً قد يُحدث الفرقة في الصف الواحد، فآثر أن يَبقى لديه يتلّقى أمره، دون أن يكون ذا استقلالٍ خاص.

ثم مات عماد الدين، وجاءَ ولده البطل نور الدين، وأَوْجُهُ استرضائه أقربُ إلى البطليْن من أبيه، لأنّه كان مُتسامحاً لا يأخذُ بالظّنّة، وكانَ يحب لجنوده من الجاه والحظوة ما يحب لنفسه دونَ استعلاء، ومثلُ هذه الروح الطيبة تجعلُ صاحبَ الكفاءة مُيسّراً السبيل إلى الظهور، لأنّ أفسدَ الأمور في قيادة الدول أن يكونَ الرئيسُ حاقداً على النابهين من مرؤوسيه حين يتقلّدون المناصب العالية بكفاحهم المخلص تحت رايته، وحينَ يَضمُّون إلى مجده أمجاداً قتالية، كانَ من المنطق أن تُعزَّز مكانتهم لدى صاحب الأمر، ولكنّ الغَيْرة من الظهور المفاجئ تقلب الميزان فجأةً، فتُكالُ التّهم للعامل المخلص، ويُنزع منه كلّ مجد، هذا إذا لم يُقتلْ أو يُودعْ في غيابات السجون.

ولا سبيل إلى توهُّم ذلك في عهد نور الدين زنكي الذي جعلَ كلّ همّه في شيء واحد، هو طرد الصليبيين، دون أن يَعْنيه مَنِ الطارد، ومَنِ الحائزُ لقلائد المديح، وقد تعرَّض نجم الدين لأزمةٍ

سياسية أودتْ بحكمه في بعلبك، حيثُ تربّص به معين الدين حاكم دمشق، وانتقل بجنوده إلى بعلبك ليضمّها إلى حُكمه، بعيدةً عن حكم نور الدين، وقوةُ معين الدين في دمشق أقوى عدداً وأكثرُ عدةً من قوة نجم الدين في بلدةٍ صغيرة كبعلبك، فأَرسل إلى بلاط نور الدين يطلبُ المدد، ولأمرٍ ما تأخر ما يبتغيه.

ويُعلّل ذلك بعض المؤرخين بانشغالِ نور الدين في مطلعِ حكمه بتسكين الثوائر حول الموصل، أو باستعدادٍ لهجوم مفاجئٍ على الجيوش الصليبية التي تقبع في الشام قريبةً من حلب موطن حكمه، والذي يتتبَّعُ سيرة نور الدين يجدُه لا يخفّ سريعاً، ولا يُقبل سعيداً على منازلةِ جيشٍ إسلامي، إذ إنّه يرى في ذلك تمزيقاً لقوىً حربيةٍ من الأفضل أن توجه إلى العدوّ الغازي المحتل، فهو لا يُنازع جيشاً إسلامياً إلاّ إذا ضاقَ به الصبر، وكادتْ روحه تبلغ الحلقوم.

وأمامَ تأخُّر النجدة من نُور الدين رأى نجم الدين أن يحفظَ الدماءَ الإسلامية من أن تراق دُون موجب، فآثرَ أن يُسلّمَ بعلبك إلى معين الدين مقابل الاكتفاء بعدّة قُرى من بلاد دمشق، يقومُ على أمرها! وقد عدَّ بعضُ الكتَّاب ذلك تخاذلاً في حقّ نور الدين، وفي حقّ نجم الدين نفسه.

والحق أنّ الاندفاع إلى القتال لا يكون بطولةً إلا إذا تهيأتْ أسبابه، وضَمن صاحبهُ النّصر باحتمال كبير، أمّا المسالمةُ حين يتعذر اكتسابُ النصر فهي بطولةٌ سلمية يقدِّرها مَن يزنُ الأمور

بميزانها الصحيح! وهذا ما فطن له نور الدين نفسه، فلم يشأْ أن يَحمل في صدره غضباً على نجم الدين، وقد كانَ أسدُ الدين شيركوه أخوه لاصِقاً به في حلب، فأقطعه نور الدين حمص وما جَاورها، وصارَ مقدّمَ عسكره، ولم يجلْ بخاطره أن يتعاهد نجم الدين مع شقيقه أسد الدين، فيخرجا عن طاعته.

وإزاءَ هذا الإغضاء التام عن تصرُّف نجم الدين، ذهَبَ بعض الباحثين إلى أنّ مسألة تسليم بعلبك كانتْ موضع اتفاقٍ بينه وبين سيده نور الدين لتفادي القتال في حربٍ أهلية، احتساباً للمعركة الموشكة مع الصليبيين، إذ جاءتِ الأنباء بزحفٍ صليبي جديد يتجه من أوروبا إلى الشرق، ولنْ يقف أمامَ هذا الزحف ـ الذي عُرف بالحملة الصليبية الثانية ـ غير نور الدين، ولكنّ هذه الحملة بقيادة (لويس السابع) الفرنسي و(كنراد الثالث) الألماني قد تعرَّضتْ لخطر السلاجقة، حيث قَضَوْا على أكثرها.

وأنا أرى أنّ جهود السلاجقة في مقاومة الاحتلال الصليبي تحتاجُ إلى بحثٍ جادٍّ مستقلّ، لأنّ أكثر المؤرِّخين يُغْضون عنها مع أهميتها البالغة، فقد رأيْنا في الحملة الأولى التي قادَها بطرس الناسك، كيفَ هُوجمتِ هجوماً ساحقاً من كتائب السلاجقة المنتصرة، حيثُ لم يسلم منها غير الثلث فقط، ولا يدري إلا الله ماذا سيكون الأمر إذا وَصلتْ جميعها سالمة في عهدٍ تفكَّك فيه المسلمون على نحوٍ يدعو إلى الرثاء، قبْل أن يبدأ عماد الدين خطوتَه الجريئة من بعد، وهاهي تلك الحملة الثانية بقيادة مَلِكيْ

الألمان والفرنسيين تأخذُ نصيبها الفاجع من سيوف السلاجقة، بحيث اضطرّ ملك فرنسا إلى الرجوع لبلاده دُون مواصلة المسير إلى الشرق، وأَصرَّ كنراد الألماني على الزحف، لا إلى الرّها لإنقاذها من نور الدين كما قُدّر ذلك من قبل؛ بل إلى دمشق بعيداً عن سيطرة نور الدين.

وقد نهض نـور الدين مع أخيـه غـازي إلى نُصـرة دمشـق، ولو انضمّ إليهما معينُ الدين، ودارت المعركة باتحاد هذه القوى المتساندة لأمكن النصر، ولكنّ معين الدين صاحب دمشق خافَ على ملكه بعد المعركة أن يقع في حوزة نور الدين، فرأى من مصلحته الخاصة أن يُراسل الفرنجة متعهّداً بتسليم بعض القلاع الهامة، وفديةٍ كبيرةٍ من المال! وكان لذلك أسوأ الوقع لدى المسلمين، إذ رأوْا خيانةَ معين الدين تُعطي المثل الشنيع للخُذلان والاندحار.

وقد أسرّها نور الدين وغازي في نفسيهما، ورَجعا ليُحكما الخطط في مناوءة الجيش الفرنجي الزاحف، وقد لَمَسا خوفه الأكيد من بأسهما، لأنّه لم يتجه إلى الرّها، وإنما آثر البقاء بعيداً عن الالتحام، وقد رأى نجم الدين أن الانضمام إلى نور الدين بعد خيانة معين الدين أصبح أمراً محتوماً، ولكن على مهل، ليستطيع خدمة نور الدين وهو بين أعدائه، وهنا عاد الأخوان نجم الدين وأسـد الدين إلى الالتئام في شـملٍ موحَّد، وتحت قيـادة بطلٍ أمين،

أحدهما وهو أسد الدين يخدم ظاهراً في حلب، والآخر وهو نجم الدين يخدم مستتراً في دمشق.

ثم توالت الأحداث على نحوٍ مفاجئ، فقد ماتَ الملك غازي ـ شقيق نور الدين وسيد الموصل ـ، وكانَ في مقدرة نور الدين أن يضمّ الموصل إلى حكمه، إذ لا وارِثَ له من صلبه، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، وهو بعدُ زعيمُ الأسرة، ورجلها الأول، ولكنه شاء أن يُرضي أخاه الأصغر قطب الدين، فعيّنه على الموصل مُستقلاً بها كشأن الملك غازي، على أن يترك إمارته بالشام تحت حكم نور الدين، ليكون الإقليم الإسلامي بأجمعه في حوزته، إلاّ ما نشز من عصيان صاحب دمشق.

وكانَ الجيش الصليبي في حملته الثانية، حين يئس من عودةِ الرّها؛ قد استولى على عسقلان وهي أكبر معاقل المصريين في الشام، وحين أحرزَ النصر بها طمع في الاستيلاء على دمشق، لينحصر سلطان نور الدين في حيّزٍ يمكن التغلب عليه فيما بعد، وزادَ طمع الصليبيين في دمشق حين جاءتهم الأنباء بوفاة صاحبها معين الدين، وتولية مجير الدين من بعده، وهو مَن لا سابقة له في الإدارة سلماً، والمعارك حرباً.

وهنا وجد نور الدين نفسه أمامَ عمل محتوم، يجبره على إنقاذِ دمشق من هوْلها المنتظر، فعقد مجلس حربه، وكانَ أسد الدين أكبر قائد فيه، وأَخذ يعرض الموقف من كافة وجوهه، لا سيّما وقد علم

بتهيئة الاستعداد الصليبي لاقتحام المدينة، واستقرَّ الأمر على أن يزحف جيش نور الدين بقيادة أسد الدين إلى دمشق، وأخُوه نجم الدين أيوب بها يعمل عمله المتفق عليه في الانضمام إلى سلطان نور الدين، بحيث لم يستطع الحاكم الناشئ مجير الدين أن يعمل شيئاً، وقائده أيوب يرى التعاون مع الجيش الإسلامي بقيادة أخيه، ولم يترك المجالَ لتردّدٍ محتمل، بل تقدّم إلى الجيش الزاحف مُرحّباً، وسلم دمشق إلى أسد الدين استجابةً لعاطفة إسلامية هي فوق كلّ مأرب ذاتي، أو انتماءٍ سياسيّ.

ولما كانت دمشق أكبر مدن الشام، وأكملها إدارةً وتنظيماً، وأقربها إلى العدو، رأى نور الدين أن ينقل مقرّ حكمه إليها من حلب، ونظر في رجاله فرأى نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه وصلاح الدين بن أيوب أخلص القوم غَيْرةً وأكثرهم كفاءة، فصمَّم على أن يكونوا في الموضع الأول من إدارة حكمه، وبادرَ فعيّن أيوب حاكماً عامّاً وشيركوه نائباً عنه، وصلاح الدين رئيساً (للشحنة) ـ وهو اصطلاح خاص بالأمن الداخلي ـ وبذلك أُتيح للأسرة الكردية أن تأخذ مكانتها في القيادة الإسلامية.

وإذا كان الحديث عن أيوب وشيركوه، ممّا ألمَّ به القارئ لهذه الصفحات، فإن حديث صلاح الدين، وانتقاله ـ على حداثة سنّه ـ إلى مركز هامٍّ من مراكز القيادة؛ لم يأتِ استجابةً لرغبة شخصية من أبيه أو عمّه، فنور الدين أحزم من أن تكون الأهواء عاملاً في الترقية إلى المناصب الرفيعة؛ وإنّما لمس الرجل الكبير

مواهب الشاب الطامح، وعرف له من المواقف الإيجابية ما هيأهُ لاحتلال مكانه المرموق.

وقد كان صلاح الدين ذا ولع شديد ببطولة نور الدين، وكان يقتفي مذهبه في السلوك الإنساني، واليقظة الحربيّة الواعية، ويقدّم من نشاطه ما أهَّله إلى احتلال مكانةٍ سامية في قلب نور الدين، كما أنَّ نشأته الدينية بين كبار العلماء وأعيان الفقهاء أمدّتْه بمنزلةٍ خاصة لدى سيده الكبير؛ إذ أنّ مجالس العلم لم تنقطع في قصر نور الدين يوماً إلاّ إذا اشتغل بعمل حربي يُفرغ الجهد تجاهه.

وفي مجالس العلم بالقصر، ومعارك الحرب بالميدان، أبدى الشاب الناهض ما هيّأهُ لمستقبلهِ السعيد، هذا إلى أنّ والده نجم الدين كانَ حريصاً على أن يُنَشّئ ولده على حبّ نور الدين وعلى استلهام مواقفه، وكانَ في نجم الدين تواضعٌ لا يُعهد في نظرائه، فهو لا يُؤثر نفسه بأية حظوة، وحسبُه أن الأيام تُسعفه بما يقدره له الله من مجدٍ صَغُرَ أو كبُر.

هذا الثّلاثي البارع، نجم الدين أيوب، وأسد الدين شيركوه، وصلاح الدين يوسف بن أيوب، كان الأمل المرتقب في تحقيق نصر قريب.

* * *

إلى مصر

من مزالق الكتابة التاريخية أن تشيع فكرةٌ مخطئةٌ عن إنسان أو جماعة، فيميل إليها باحث دون دراسة، فإذا عَمد للكتابة في موضوعها، أخذَ يبحثُ عن شتّى الروايات المختلفة، ليختار منها ما تقرّر في ذهنه من قبل، ولا بدَّ أنه يقرأُ كثيراً من وجهات النظر المعارضة، ولكنّه يتجاهلُ ما يقرأ، ويمضي في التدليل على منحاهُ متصيّداً ما يروقه من الأخبار خطأً كانت أو صواباً.

ومن ذلك ما ذهب إليه باحثٌ جهير الرأي من أنّ الفاطميين - وقد سمَّاهم العبيديين - كانوا أعداءَ الجمهرةِ الغالبة للمسلمين، وقد سَعدوا بهجوم الصليبيين على بلاد الإسلام، وعَدّ الخونة من أمثال شاور وضرغام يصدرون عن رأي الخلفاء في محالفة الصليبيين، إذ يُرحّبون ببقائهم في المشرق، ويُقدّمون لهم الأموالَ والعتاد كي يستمر بقاؤهم في الشام!! ولاَ أدري كيف يُعقل ذلك، وما ذاقَ الخلفاء الفاطميون مرارة الذل، ومؤامراتِ الاغتيال وشتّى ضروب الإهانة إلا مِن أمثال شاور وضرغام!! فكيف يكونون في خِيانـاتهم المتكررة يُعبّـرون عن قـوم يحملـون اللّقب العظيم، ولا يملكون في تصريف الأمور شِروى نقير؟!.

إنّ الناظر في التاريخ الزاهر للدولةِ الفاطمية في عهدها الأول يجدُ الحرصَ الزائد على العزّة الإسلامية، والعمل المتواصل لمناهضة الأعداء المتربصين ممّن يكيدون للإسلام، وقد كانَ القومُ أولي عزة حين كان الخلفاء مصدرَ الأمر والنّهي، وحين كان وزراؤهم أعلاماً يمتازون بالثقافة الواسعة، والإدارة الحازمة، والإخلاص الشديد، وقد كانوا على رغم الخلاف المتأصّل بين الدولتين العباسيّة والفاطمية لا يحجمون عن مساعدة بغداد حين يتعرَّض الإسلام لخطر صليبيّ، كما لا تحجم بغداد عن مساعدة مصر في مثل هذا الموقف، فهنا تنسى الخلافات، وتتبدَّد الإحَن، ليقف الجميع بُنياناً مرصوصاً في وجه العدوّ المنابز.

وأضربُ المثل بحادثٍ شهير هو حادثُ انصباب الروم على حمص وحماة وحلب سنة (٣٦٥ هـ) وهي يومئذٍ في حوزة الدولة الفاطمية، إذ روَّعوا الآمنين قتلاً ونهباً وأسراً، وطارَ النبأ إلى القائمين بالأمر في بغداد، فكتب معزّ الدولة إلى العزيز بالله الخليفة الفاطمي يُعلن ولاءهُ وولاءَ الخليفة العباسي لأمّةِ الإسلام بعامة، ويَعرض أن تشترك بغداد مع مصر في دفع العدو المشترك، وقدَّر العزيزُ بالله هذه الروحِ النبيلة فكتب إلى الخليفة العباسي شاكراً، وقال: إنّ جيش مصر ذُو كفاءةٍ قادرة على دَحر العدوان.

وسرعانَ ما خفّت الكتائب الإسلامية لأداءِ واجبها المفروض، فهربَ الروم إلى ما وراء نهر (المقلوب) ظانّين أنَ الماء سيكونُ حاجزاً دون الالتحام، ولكن الكتائب المجاهدة تخوضُ

الماء سابحةً في النهر، ومن ورائها الرّماة يقذفون بالنّشاب المتبادل بين الفريقين، حتى بلغتِ الفرقُة السابحة الشاطئ، وساعدت على إنشاءِ جسْر سريعٍ يصلُ ما بين الضفّتين، ودارتِ المعركة ليأخذ المسلمون بثأرهم الساحق، وليرجعوا سالمين منتصرين!!.

وإذا كانَ خلفاء الفاطميين قد خَبا بريقهم بعد العهد الأول من ازدهارهم، فقد رُزقوا وزراءَ عظماء حقاً، رفعوا منارَ الخلافة بجهد دائب، وسَعي متّصل، فكان اليازُوري وزيراً مصلحاً، أخذَ حظّه من العلم الغزير قبل أن يبلغ مكانه في السياسة، وبجهده انتشر الأمن وسعدت الرعيّة، وتلاهُ من لم يُحسن الأمر، فاهتزت البلاد حيناً من الدهر، حتى جاءَ أمير الجيوش بدر الدين الجمالي، فأعاد الأمن والسلام والرخاء، وكان هو الآخر عالماً فاضلاً قبل أن يكون وزيراً داهية، وقد أهّله علمه الغزير ليصبح داعي الدعاة، وقاضي القضاة، وهُما منصبانِ علمِيّان يُضافان إلى المنصب الوزاري، وقد بنى كثيراً من المشاهد والمساجد والمدارس، لأن الرخاء في عهده قد عمّ ونما، حتى قيل: إن عهده كان فاتحة خير وعز، إذ أعقبه وزراء نابهون كان خاتمتهم الشاعر طُلائع رُزّيك، إذ هو نادرة في أدبه وعلمه، كما هو نادرةٌ في مواقفه السياسية، وقد كان ذا إعجاب شديد بنور الدين زنكي، حيثُ تابع أنْباء بطولاته.

وقد أخذ عليه أنّه قام بعقد هدنة بينه وبين أعدائه، وأشار عليه أن ينقض الهدنة، وينقضّ على الصليبيين من الجانب الشرقي، حيثُ قام طلائع بن رُزّيك بإرسال جيوشه إلى الأطراف الجنوبية،

ليقع العدوّ بين جبهتين قويّتين فلا تستيطع الخلاص، وفعلاً كافحت الجيوش المصرية كفاح الأبطال، وأخذت أساطيل الكنانة تجوبُ سواحل الشام، وتنال من الإفرنج منالاً مبيداً، وفي قصيدة عامرة قالها طلائع بن رزّيك مخاطباً نورالدين ما يشير إلى ذلك حيث قال:

سَارتْ سَرايانا لقصد الشا م تعتسفُ الرمالا
حتى لقد رام الأعادي عنْ ديارهم ارتحالا
نُزجي إلى الأعداء جُرْدَ الخيل أتباعاً توالَى
فلو أنّ نورَ الدين يجعلُ فعلنا فيهم مثالاً
ويسيّر الأجناد جهراً كي ننازلهم نزالا
لرأيت للإفرنج طُرّاً في معاقلها اعتقالا
وتجهّزوا للسير نحو الغرب أو قصدوا الشمالا

ويقول في قصيدة أخرى مُخاطباً نورالدين:

فدعْ عنكَ ميْلاً للفرنج وهدنة
بها أبداً يخطي سواهمْ ولم يخطوا
تأمّلْ فكم شرطٍ شرطتَ عليهم
قديماً، وكم غدْر به نُقض الشرط
وشمّر فإنا قد أعنّا بكل ما
سألتَ وجهّزنا الجيوش ولن يُبطوا

وواضحٌ من البيت الأخير، أن نور الدين قد طلبَ اشتراك

مصر في عهد ابن رُزّيك، وأنّه استجاب لفوره، ثم كان من سوء الحظّ أن يتآمر على الوزير معتدٍ آثمٌ فيغتاله، لتنتهي بانتهائه صفحةٌ من صفحات الكرامة والعزّة، وقد ولي الوزارة بعده ولده العادل بن رزّيك، ولم يدمْ طويلاً، لأنّ عهد الوصولية البغيضة قد بدأ بانتقال شاور إلى القاهرة، وتقليده الوزارة بادئاً باغتيال العادل، ومضحّياً بشرفه وبدينه وبوطنه في سبيل أنانيته.

وهنا تبدأ الصفحات السّود من تاريخ مصر، لأنّ هذا الآثم المغتصب لم يرعَ حرمةً لخليفة أو رئيس أو قاضٍ، سوى مَنْ يتمسَّحون بأذياله من الأذناب، فكيف تُضاف آثامه إلى خليفةٍ أعزل صغير، لا يملك من أمره شيئاً، فيقال: إنّه أداةٌ تنفيذية لأحفادِ الخلفاء من العبيديين!!. لقد أراد شاور أن يجمع السلطان في يده دون منازع، وقد أتى من الصعيد بجيشٍ كثيف ليغتصبَ الحكم من العادل بن رُزّيك، وتمَّ له ما أراد، حيث استعانَ بأفراد من القوة الباطشة التي واكبتْه من أسوان.

وبعض كُتّاب التاريخ لا يضعون الرجال موضعهم الصحيح عند التعريف بهم، لأنّهم يتحدّثون عن شاور حين اغتصب الوزارة كأنّه صاحبُ حق، كما يتحدثون عَمّن خاصمه ونازعه حتى استجار بجيش من الخارج لصدّه كأنه صاحب حق أيضاً؛ وكان الأولى أن تُحدّد المواقف والأعمال والرجال تحديداً صحيحاً، حتى لا يقع أوزارُ الدخلاء على أمّةٍ مسكينة لا تملك من أمرها شيئاً، فشاورُ قاطعُ طريق في مبدئه، رأى طُلائع بن رُزيك أنّه بقوته الغاشمة يستطيع أن

يهدّئ ثورات الصعيد، حيث يتقابل عنصران خارجيّان، فَيهلكُ أحدُهما الآخر.

وحين تمَّ له الغلب جعله والياً حاكماً بأمره هناك، وهو مَا ظلّ ابن رُزّيك نادماً عليه طيلة حياته، وقد حذّر ولَده من شرّه فأوصاه ألّا يتعرّض له بعزل.

ولكنّ حميّة الشباب دفعتِ الابن المتسرِّع إلى إصدار قرار بعزله، فكان مِن الطبيعي ألّا يتخلّى هذا الشريرُ عن موقعه، بل كانَ من الطبيعي أن يخبر الأمور بحاسّته القوية، فيعلم أنّ الوزير الجديد ليس كأبيه، وأنّ في استطاعته أن يهجم على القاهرة ليحتلّها، ويصبح صاحب الكلمة العليا، فالخليفةُ ضعيفٌ عاجز لا يملك قوة، والشعب مجرّدٌ من أسلحة الدفاع فلا يستطيع الاعتراض.

وقد تمَّ كلُّ شيءٍ لهذا الغازي المسلّح، فامتلك ناصية الأمور، وأخذَ يتتبّع أعوانَ العادل قتلاً وتشريداً، بل إن عدوانه امتدّ إلى حاشية الخليفة نفسه، فقام باستئصال مَن يتوهّم فيه بأساً يجتمعُ به الناس حوله، وقد نازعه طامعٌ من جنسه هو الآخر قاطع طريق، إذ عزّ عليه أن ينفرد غاصبٌ بالوزارة، وكانَ له مقام بين كثيرين من ذِوي القوة والسلاح، وكلهم حاقدٌ على هذا الذي ظهر من تحت الأرض فجأةً ليحتلّ البلاد، ولعلّ الخليفة كان ضائق الصدر بتهجّم شاور، فأبدىَ عطفه على ضرغام! ووقف الغاضبان معاً وجهاً لوجه، كلٌّ منهما يحاول أن يفتك بغريمه.

ثم أوحت الخِسّةُ لضرغام أن يتصل بملك الفرنجة في بيت

المقدس ليؤازره على خَصمه، وكان (أَمُوري) يتحيّن الفرصة للانقضاض على مصر، وهو يخاف أن تقف في وجهه، فيتورّط في معركةٍ لا يرى نتيجتها الحاسمة، فلما جاءَه عَرضُ ضرغام وَجَد الثمرة قد نضجتْ فوق الشجرة، وكادتْ تسقط تِلقائياً، فإنّ غُصّةً في حلقه قد نشبتْ من انتصارات نور الدين في الشام، وأحسَّ جنوده بعجزه الشائن أمام ملكٍ قويٍّ شديد، فأراد أن يلفت الأنظار إلى مكسبٍ عاجل يغنمه في مصر!.

هكذا سمح هذا الخائن لنفسه أن يضع يده في يد المحتل الدخيل! وهكذا أرادَ شاور أن يدفع كيداً بكيد، فاتجه إلى ساحةِ نور الدين زنكي، لَا لأنّه يُحب أن يكون جندياً في معركة الشرف والكرامة، بل لأنّه يريد انتصاراً على خَصمه (ضرغام)، وقد اعتزم في نفسه أن تكون صلته بنور الدين بعد أن يكسب الجولة منقطعةً مبتورة، لأنه يعرف شعور المصريين نحو البطل الباسل، ويتأكدُ أنّ المسلمين جميعاً سيستقبلون جيشه بالترحيب والابتهاج.

وقد فُوجئَ نور الدين بمقدم شاور، واستمعَ إلى أنباء الخيانة الإسلامية التي اقترفها ضرغام، وأخذ يفكّر في أمر (أموري) بعد أن يحتل مصر، وتصبح بخيراتها وذخيراتها طعاماً له سهلَ الازدراد، وهي كارثةٌ محققة بالنسبة لجهودِ نور الدين، وقد أراد الله أن يُسهّل الغَزو لجيش نور الدين، حيث أن جيش الفرنجة تقدّم لاحتلال البلاد، واتجه نحو بلبيس، وأخذَ (أموري) يرهق ضرغام بطلب إتاوة مالية كبيرة، كان قد وعدَ بها من قبل، وليس في يده أنْ يُقدّم

منهـا ما يُشـبع رغبـة الملك الطامع، وخافَ أن تزحف جيـوش (أموري) إلى العاصمة، فتُسقطه ويصبح في مأزق أشدّ خطورة وأعظم أثراً، وكانَ النيل مرتفعاً، فقطع ضرغام الجسور في وجه الجيش الزاحف، وأغرقَ البلاد من ناحية بلبيس، فاضطرّ الجيش الصليبي للعودة!.

وهنا جاءت الأنباء لضرغام بأنّ شاور قد اتّجه إلى نور الدين في دمشق، وأنّ الجيش الإسلامي قادمٌ لا محالة، فندم ندماً شديداً على انسحاب الفرنجة، وأرسلَ يرجوهم في العودة على أن يبذل كلّ ما يـريـدون، وقـد جـاءت هـذه الأنبـاء علـى وجـه السـرعـة إلـى نور الدين، فرأى ذهابَ الجيش إلى مصر ضرورةً لا مفرَّ منها، واختار أسد الدين شيركوه قائداً للجيش، ومعه ابنُ أخيه صلاح الدين، وقد أعدَّ نور الدين جيشه بما يملك من عتاد، ولكي يغفل أمر الحملة عن (أموري) بدأَ بغزو الحدود القريبة من مَملكة بيت المقدس، ليعلم (أموري) أنّ الحرب خاصةٌ بهذا الميدان وحده، وأنه ليس في نيّة نور الدين أن يعملَ على الذهاب إلى مصر، وهي حيلةٌ سياسية بارعة.

ثم واصلَ أسد الدين السير بجيشه ومعه شاور يُرْشده إلى الطريق القريب، حتى التقى الجيشان في بلبيس؛ جيش ضرغام، وجيش أسد الدين، وكان جنود ضرغام لا يبذلون جهداً صادقاً في القتال، لأنّهم سيقُوا مضطرين إلى منازلة إخوةٍ يشاركونهم الدين والآلام والآمـال! فجعلـوا يتقهقـرون إلى جدران القاهـرة، ومـن

ورائِهم جيشُ أسد الدين، حيثُ وصل إلى الفسطاط، وعسكر بجيشه هناك.

وركب الهولُ ضرغام فانقضَّ على أموال الأوقاف يُرضي بها مَن حوله من الجنود ليقفوا معه، وهاجَ الناس عليه هيجةً شديدة، لأنه هو الذي جلب العار بمحالفة الفرنجة، ولأنّ الجيش الزاحف صديقٌ لا عدوّ، وهذا ما أحسّه الخليفة، فأعلن غضبه على ضرغام، ولكنّه لم ييأس، فجعل يطوف بالناس محاولاً أن يجمع الشمل، وفي ساعةٍ من ساعات غيظه ضرب جواده في غلظةٍ فَنَفرَ به نفرةً أوقعه على الصخر جريحاً، ورأى العامّة مشهدَه فأسرعوا نحوه فقتلوه، واحتزُّوا رأسه، وذهبوا به إلى قصرِ الخليفة! فكانت نهاسةً متوقعة لأمثاله من الغادرين.

انتهت الحرب الداخلية بين شاور وضرغام بمصرع خصمه، وعادَ شاور إلى الوزارة، وقد نظر فوجد المسلمين في مصر مستبشرين بوجود أسد الدين، وأنّه وإنْ كان خارجَ القاهرة إلاّ أنّه حديث الناس وشغلهم الشاغل، فرأى أن يقوم بعملٍ يكشف النقاب عن نيّته في الغدر، فأرسل إلى أسد الدين ثلاثين ألفَ دينار، وقال له: تستطيع أن ترحلَ بعد أن زالَ خطر الفرنجة ومات ضرغام، وكانت مفأجاة الغدر واضحة، لأن الاتّفاق بين شاور ونور الدين لم يكنْ على ذلك، بل كان على أن يبقى جيشُ أسد الدين بمصر، ليكون موقف الفرنج شديد الخطورة بين دولتين متساندتين في معركة واحدة.

وردَّ أسـد الدين في غضبٍ مُعلنـاً أنـه لَن يرحل حتى يـأمره نور الدين، وهُنا لجأَ شاور إلى الغدر الصريح فكاتب (أموري) ملك الفرنجة راجياً في عودته!! لقد كان بالأمس يخافُ شرّ الفرنجة، لا لأنهم سيملكون البلاد، بل لأنهم سيكونون عوناً لضرغام! وهاهو ذا يرجع إلى أعداءِ الأمس كي يكونوا حلفاء اليوم، ليقفوا معه أمام من استجار بهم في ذعر، وذهبَ إليهم بالشام خائفاً يترقب!!.

وقد أدركَ أسد الدين حرجَ موقفه إذ قلَّتِ المؤن، وحرص شاور على أن يمنع كلّ معونة من الزاد يقدمها المصريون لإخوانهم المقاتلين، فأشارَ أسد الدين على صلاح الدين ابن أخيه، أن يذهب على رأس فريقٍ من الجيش إلى بلبيس فسيجدُ من الأهالي كل مساعدة بعيداً عن سيطرة الوزير الغادر، وهذا ما تمّ فعلاً إذ زحف صلاح الدين إلى الشرقية، فوجد الاستقبال المرحّب، والضيافة الصادقة، ولكنّ جيش (أموري) قد زحف إلى (فاقوس)، وحضر شاور ليكون عوناً له في معمعة القتال مع مَن جمعهم من المرتزقة! وأصبح الجيش الإسلامي في مهبّ الخطر، لِنفاد الجزء الأكبر من الذخيرة.

وطارت الأنباء المزعجة إلى نور الدين فقصد بجيشه توّاً إلى قتال الفرنجة ببيت المقدس، وهم شراذم لا تصمد كثيراً للدفاع بعد انتقال (أموري) إلى مصر، وجاء مَن أخبرَ ملك الفرنجة بهجوم نور الدين فتوقع الخطر، وقال في نفسه: لئنْ سقطتْ مملكة بيت

المَقدس في يد نور الدين فلنْ ينفعني البقاءُ في مصر بين قومٍ من الأعداء سينقضّون عليّ، ولا آمنُ أن يُقتل شاور فيصبح المصريون على رأي واحد.

وكانَ خبرُ الرّحيل صاعقةً نزلت على رأس شاور، إذ لم يكتفِ الفرنجة بالرحيل فقط، بل طالبُوه بمبلغٍ ضخم لا يحصلُ عليه دون إرهاق، وما عليه إلا أن يُذعن، ولكن (أموري) تمسّك ببقاء جزءٍ من جنده كي يعود إذا تمَّ الأمر بينه وبين نور الدين على ما يرضاه!

وثارَ المسلمون الصادقون من أبناء شاور نفسه ـ وفي طليعتهم ولده الكامل ـ على ما تورَّط فيه من غدر، فبعثَ رُسلَه إلى أسد الدين قائلاً إنّه بذل الجهد كي يرحلَ (أموري)، فاشترط أن يرحل أسد الدين، فقال أسد الدين: لنْ أرحلَ حتى يسير آخر جندي من جنود الفرنجة، فاضطر (أموري) إلى التّنازل عن مطلبه، وكان أسد الدين يرى الرحيل وجهاً صحيحاً لا محيد عنه، لأنّ شاور باقٍ في الوزارة، ولا يؤمَنُ كيده مع قلة الذخيرة وتناقُص الجنود، وحسبُه أنْ أمِن الشّر من ناحية (أموري).

وقد عارض صلاح الدين في الرحلة، ولكن عمّه أخبره أن الرحلة إلى عود، وقد عَرَفا كلّ شيء عن مصر، فإذا قدمَ الجيشُ مرة ثانية فسيكون أكثر كفاءة، وأمكن موقعاً.

وبعضُ المحلّلين يذهب إلى أن الحملة الأسدية لم تُكلّل بالنجاح بعد الرحيل المُلزم، وهذا ما لا أراه، لأنّ النجاح يُقدّر بقدر

الظروف المحيطة بالجيش، والرحيلُ عند التشكّك في نتائج المعركة المتوقعة كسبٌ واضحٌ، لأنّه يدرأ خطراً محتمل الوقوع! وليس الشجاعُ مَن عرف كيف يهجم فحسب، ولكنه أيضاً مَن عرف كيف ينجو بجيشه حين تهبّ العاصفة دون خسارة محتملة!.

على أنّ توالي الأحداث لن يدع جيش نور الدين بعيداً عن مصر، لأن شاورَ قد اتّصل بالفرنجة ليبعثوا حاميةً منهم تظلّ في مصر بعد رَحيلِ أسد الدين، كيلا يطمع نور الدين في البلاد مرة ثانية! وهو عملٌ يمثّل الرعب الراعب في قلب شاور، لا مِن نور الدين وحدهُ بل من المصريّين الذين أصبحوا يمقتونه، وينتظرون يومه القريب، بل بعد تحالُفه مع الفرنجة في وجه أسد الدين من قبل، لذلك كان استنجادُه الثاني بجيش (أموري) حفظاً لحياته من ثورةٍ متوقَّعة لا شك فيها، وهذا الاستنجاد نفسه كان داعيةً قويةً لنور الدين كي يتدبّر الأمر بعد احتلال الفرنجة لمصر، وقد خَرجُوا من قبل، فمهّد لهم شاور طريقَ العودة من جديد!.

وكانَ أسدُ الدين من اليقظة بحيثُ واصلَ الطرْقَ الملحّ على أذن نور الدين كي يُسرع فيما ينويه من استئصالِ الفرنجة بوادي النيل، وتحقّق ما يأملُ، فسارت الحملة الثانية في ألْفي رجل من خيرةِ جند نور الدين، ووصلتْ إلى الجيزة بعدَ مجاهدات عسيرة، لأن الريح العاصفة قد هبّت على الجيش في الصحراء فأثارتِ الرمال، وكدّرت النفوس، وهي أزماتٌ تُقابَلُ بالصبر الجميل، وأصبح الموقف خطيراً، إذْ وقف جيشُ (أموري) على الشاطئ

الأيسر من النهر، وفي الجهة المقابلة يتحفّز جيش أسد الدين، وقد مضت أيامٌ دون أن يهمّ (أموري) بالعبور لخُطّةٍ يرسمها، لأنه يريد أن يدهم أسد الدين على غفلة في غَبش الظلام ذاتَ ليلة، حين يأوي الجنود إلى مضاجعهم آمنين.

وقد شاهدَ أسد الدين مراكب كثيرة تفد إلى جانب المعسكر الصليبي، فتأكّد أنهم يريدون العبور، وكانوا من الكثرة الكاثرة بحيث يستطيعون التغلّب على جُنده، فآثر أن يصدر أمره بالانسحاب إلى الصعيد، وعَرفَ الفرنجة أنّ الانسحاب دليلُ ضعف فتتبّعوا القوم، وقسّم أسدُ الدين القيادة بينه وبين صلاح الدين، إذ أَوحى إليه أن يتوارى مع فريقٍ كبير من جنوده خلفَ المزارع، بحيث لا يعلم الصليبيون عنه شيئاً، فإذا دارتِ المعركة بينه وبين الصليبيين، وقد أمنوا كلّ هجوم من الخلف، جاءَ صلاح الدين بمن معه فأعمل السّيف في ظهورهم، وبهذا التخطيط المُحكم كسبَ الجيشُ الإسلامي المعركة، وانسحب (أموري) إلى القاهرة، مرتدّاً بمن سلِم من جُنده، وهم من الكثرة بحيث كانت هزيمتهم موضعَ استنكار!.

كان الموقف دقيقاً أمام كثرة الجنود الصليبية وقِلّةِ جنود أسد الدين، مع المددِ المتواصل الذي يقدّمه شاور إلى جيوش الفرنجة، كافياً إياهم مؤونة الزاد والشراب، مقارناً بما يحيقُ بالجيش الإسلامي من ضيق لا يفرّجه إلا مساعداتٌ مستترة من الأهالي! وهذا ما دَعا أسد الدين إلى أن يُقسّم الجيش قسمين، حيث يبقى في

الصعيد، منتظراً الفرصة للهجوم على القاهرة ثانيةً حين يرى ذلك في حيّز الإمكان، أمّا صلاح الدين فمضى إلى الإسكندرية لاحتلالها، للدفاع عنها في وجه خطرٍ مترقّب، لأنّ الأسطول الإفرنجي يتوجَّه إليها إذا احتاجَ (أموري) إلى مَدد حربي!.

وقد قاسى صلاح الدين أهْوالاً كثيرةً في الدفاع عن المدينة، وأظهرَ من المهارةِ الباسلة ما جعل قلوبَ الناس داخلَ الثغر تلتفّ حوله، وتؤازرهُ ما استطاعت بما تملكُ من قُوت وعتاد!! لقد كانَ صلاح الدين في ضيقٍ متأزّم، إذ تحقّق ما ظنّه أسد الدين من وصولِ الأسطول الإفرنجي حاملاً صواعِقَه المدمّرة، ولكنه تماسكَ وظلَّ سبعين يوماً يكابد ما لا طاقة له به من المفاجآت المُرعبة، وقد بعثَ إلى أسد الدين مَن يخبره بحرج موقفه، فأسرعَ بالكرّة إلى القاهرة ليواجه الفرنجة بالجيزة، فيُلهيهم عن نزال صلاح الدين بالثغر، وكان ذلك عملاً موفَّقاً، إذ ما علمَ (أموري) بتعرّض جيشه للخطر حتى آثر الانسحاب مرتدّاً إلى القاهرة، وكان القتالُ قد أنهكه فعرضَ على أسد الدين أن يَنسحبا معاً من البلاد! وهو عَرْضٌ صادف هوىً لدى الفريقين المنهوكين، ويُمكن أن يقال: إنه مجردُ هدنة حتى يرتاح المتعبون!.

رحل (أموري) وفي نفسه لهبٌ يشتعل تحرّقاً إلى امتلاك مصر، لأنّه رأى من ثمارها وزُروعها وكثرةِ الخير فيها ما جعله يعقد مقارنةً بينها وبين القدس، فلا يجدُ أدْنى شَبه، وقد جاءتْهُ رُسلُه الذين أرسلهم لتوقيع المعاهدة في قصر الخلافة قبل رحيله بما بهر

سمعه من حديث الرفاهية في القصر وسقوف الذهب والفضة، وأرائك الحرير والديباج، وقصورِ الضيافة، ومطاعم الزاد، فقالَ لقومه: لقد كانتْ بغداد عاصمةَ الأمة الإسلامية مع وجود مكة والمدينة، وفي الأولى مكان الحج، وفي الثانية قبر نبي الإسلام، فلمَ لا أكونُ في القاهرة ممتَّعاً بخيرها، وتكونُ القدس عاصمةً دينيّة كما كانت مكة في عهد العباسيّين؟ ثم زادَ فحاولَ استرضاء ملك القسطنطينية بأنْ أصهرَ إليه وتزوَّج ابنته، ليساعدهُ على فتح مصر، ولا يُبدي أيّ منافسة قد تَعِنُّ له فيما بعد، فوعَده الملك البيزنطي بعدَ أن أَصْهر إليه.

ولم ينتظر (أموري) حتّى تأتي جيوشُ القسطنطينية فتكونَ عونَه على الغزو المنتظر، ولكنّه زحف بجيشه عَدوّاً مجاهراً، وحين وصل إلى بلبيس أعمل في أهلها القتْل والإحراق والسلب وهَدمَ المنازل، حتى كادَ يُعيد للأذهان من ذكرى بيت المقدس الأليمة، حينَ ذاقت الفناء المُبيد يوم اقتحامها، ومثلُ هذا الرعب الهائل لا يُبقي له أدنى صديق يحالفه من أبناء مصر.

وقد فُوجئ شاور بما سمع من أنباء القتْل والتدمير والاستئصال دُونما داعٍ، إذ لمْ يقم أحدٌ في وجهه شاهراً السيف! فكتبَ إليه يسأله عن مقصده، فتعلّل بأنّ شاور قد أرجأ إرسال المال المتفق عليه، وهو في حاجةٍ إليه الآن، وبدأ بالزحف نحو القاهرة، وخافَ شاور أن يحتلّ المعقل الأول من معاقل القاهرة وهي الفسطاط، فأمرَ بإحراقها في مأساةٍ مروّعة لم يَعرف لها تاريخُ مصر

مثيلاً، وهو عملٌ جنوني لا شك فيه، لأنّ الفرنجة مهما عاثوا بها فساداً لنْ يبلغوا بها حدّ الإحراق المبيد.

وقد أعجل الساكنين عن نقل أمتعتهم وما يحتاجونَ إليه من الضرورات حين شبَّ الحريق تحت تأثير النفط الملتهب، فخرجوا يهيمون على وجوههم رجالاً ونساء وأطفالاً وشيوخاً، ليجدوا في المساجد والمدارس والمستشفيات، بل وفي الشوارع الخالية مضاجع غيرَ آمنة يتكدّسون بها بعضاً فوق بعض، ولا غطاءَ ولا كساء ولا زادَ غير ما يتصدّق به إخوانهم في القاهرة، وقد جَزعوا لهول المصاب، وجزع الخليفةُ ومستشاروه لِما روّع البلاد من غزوٍ خارجيّ وحريق داخلي، فأرسلَ العاضد رُسله الباكية الصارخة مستنجدة بنور الدين.

ويقولُ بعض المؤرِّخين: إنّ الذي طلبَ الاستنجاد شاور. وهذا ما لا أظُنُّه معقولاً، لأن الكراهة المتبادلة التي وصلتْ إلى مرحلة الغليان بين نور الدين والوزير الخائن لا تدع له وجهاً يَلقى به نور الدين مستغيثاً، وكانَ أسد الدين يقدّر الموقف السيّئ أكبر التقدير، فأخذ يستحثّ نور الدين على الإنجاز؛ والذين لا يُفسِّرون المواقف إلا بالسبب الانتهازي يقولون: إن أسد الدين كان يطمع أن يحكم مصر، وينفصل عن نور الدين، ليصبح سيد نفسه، ولِيعيد للأسرة الكردية مجداً مستقلاً يُماثل الأسرة النوريّة في الشام.

وهذا مُستعبد قطعاً، إذ لو كان الاستقلال موضع تفكير أسد الدين، لتحدّث به إلى أخيه نجم الدين، وابن أخيه

صلاح الدين، ولكان صلاح الدين أسرع المستجيبين إلى السفر مع أسد الدين، ولكنّه أظهر كراهةً للرحلة في الغزوة الثالثة، وذكّر عمه بما كابد من الأهوال في الإسكندرية حين حُوصرت على المدى الأطول، وكادَ في بعض أوقاته المحرجة يختنق، لولا أن أسعفه الله بالصبر! وهو يخشى أن يُكابد في الغد ما كابدَ بالأمس، فما زال به أسد الدين حتى استجاب.

وابنُ الأثير في تاريخه يذكر أنّ الذي استغاث بنور الدين هو الخليفة العاضد، وقد أرسلَ شعورَ نسائه توسّلاً وتضرّعاً، وإعلاماً بأنه عاجزٌ عن حماية أهله، فكيف بنساء المسلمين؟ وهذا ما جعلَ نور الدين يصمّم على الغزوة الثالثة.. أمّا (أموري) فقد صمّم على اقتحام القاهرة رغم توسُّلات شاور وقوله: إن المصريين إذا رأوه كفّوا عن دفع ما يريد من المال، والملكُ طامعٌ ملحاح يحلمُ بالثراء العريض، ليملك ثروة يستطيع بها أن يجلب الجند الكثير من أوروبا للقضاء على قوّة المسلمين، بلْ ليملك مصر نفسها، فيكون قد احتلّها بما جَباهُ من ثروة أبنائها.

وقد يَئس نور الدين من صلاحيّة القائمين بالحكم في مصر خليفةً ووزيراً وقادةً بعد ما شاهد من الارتماء المخجل على أعتابِ الأعداء، وأسرّ لأسد الدين أن يعملَ على بقائه في البلاد دون رجوع، لتكون مصر والشام دولةً واحدة في منازلة العدوّ الغاصب، وهذا ما وَعاهُ أسد الدين، وعَزمَ على تنفيذه دون نكول، وقد كان

من رحمة الله به أنّ (أموري) قد أدركه الفزعُ حين علم بوصوله على رأس جيش كثيف، وقد لَمس ضعف شاور أن يعينه بما يرجوه، لأنّ الشعب ليس معه! ثم إن شاورَ حين علم بقدومِ أسد الدين أبدى النفور من (أموري) وأعلمه بضرورة مغادرة البلاد دون أن يحصل على ما يريد من المال، وجاءته الأنباء بأنّ جيش أسد الدين قد زُوّد بسلاح جديد سيكون فاصلاً في المعركة المقبلة، فرأى أموري من الأصوب أن يعودَ خائباً دون أن يتلاقى الجيشان.

وكان استقبال أسد الدين من المواطنين بالغاً حدَّ الروعة والاحتفاء، وقد نهض الخليفة من قصره إلى ملاقاته بخيمته، وهو ما لم يفعله من قبل لأحد، ونظر شاور فرأى الأمرَ مع الخليفة وأسد الدين على أحسن ما تكون به المودّة بين حليفَين، ونظر فإذا أسد الدين سيّد جنده، وحبيب الشعب المصري، وإذا الجموع رائحةٌ غادية تهتف باسمه، وفي زوّارِه من يرمُقونه بعين الشمات، ويعدّون أيّامه وكأن شمسه على مشارف الغروب، فاشتعل الكيد في صدره، وعزمَ على أن يُقيم حفلة للجنود الأسدية في قصره، يفدُ إليها أسد الدين مع خاصته وكبار مستشاريه آمنين غير متوجسين، ثم يفاجئهم بالاستئصال في مذبحةٍ دمويّة، كتلك التي كان يدبّرها لمنافسيه، ورأى أن يكون ولده (الكامل شجاع) يده في هذا التدبير الغادر.

وكان في (الكامل) نخوةٌ وإخلاص ومروءةٌ، فصرخَ في وجه أبيه، وقال له: إن عزمتَ على هذا الغدر فسأذهب إلى شيركوه فوْراً وأُعلمه بما تضمر، فقال أبوه مستعطفاً: والله يا بني لو لمْ أفعلْ ذلك لتقتلنّ قبلي بسيف أسد الدين، فصرخَ الابنُ العظيم في وجه أبيه: صدقتَ، ولئن قُتِلْنا ونحن مسلمون والبلادُ إسلامية، خيرٌ من أن نُقتل وقد ملكها الإفرنج، فإنّهم إذا سمعُوا بهلاك شيركوه رجعوا زاحفين، ومحالٌ أن ينصرنا نور الدين بعد الذي يكون!!.

ولعلّ الأنباء الخاصة بالمؤامرة قد تطايرَ صداها إلى أسد الدين، وهو يَعرف لدى شاور غدراً وغِلاًّ لا يخمدان، فأسرَّ إلى صلاح الدين بهواجسه نحو هذا اللئيم الغادر، ورأى أنْ يستشير الخليفة، فوقف منه على بُركان يشتعل في صدره من جراء آثام هذا الغادر، فصمّم على الإيقاع به، ووكّل ذلك إلى ابن أخيه صلاح الدين.

وأسدُ الدين يعرف أن شاورَ ماكر، ويعلمُ حقيقة ما يبيّتُ له من القادمين المنتصرين فيأخذ الحذر، إذ يسيرُ في موكبةٍ من الحرّاس يتقدّمونه من أمام، ويحرسونه من خلف، ويحتاطون به ذاتَ اليمين وذات الشمال، وله بعدُ من مرتزِقه الجنود من ينضمّون إليه ساعةَ الانتقام، فتسيلُ الدماء من الجانبين في غير ضرورة، لذلكَ رأى أن يعتكف أياماً في مَحلّه، ويُشاعَ أنّه مريض، ويأتيه

الأطباءُ للعلاج، وسيضطر شاور إلى عيادته، فيجلس معه دونَ حرس يحوطه، وهُنا يقوم صلاح الدين بدوْره في اطمئنان، وهذا أقرب ما يُتخيّل، لأن روايةً أخرى ذهبتْ إلى أنّه لقي مصرعه في طريقٍ عام، إذ كان صلاح الدين يُجاوره، ثم انتهز منه غفلة فأرْداه، وذلك مستبعد، فأيْن الحُرّاس، وأين الخاصّة المستجيبة لإشارته مُسلّحةً مدججة!

مهما يكن من شيء لقد لَقي الخائن مصرعه، ونهض أسد الدين من فوره إلى لقاء العاضد، فخلعَ عليه خِلْعة الوزارة ولقّبه بالملك المنصور.

ذهب عهدٌ، وجاء عهد، وأعزّ الله الإسلام وأهله، وأذلّ النفاق والغَدْر وأهله.

* * *

وِزارة صَـــلاح الدِّين

لم تَطل مدة أسد الدين في وزارته، إذ فاجأه الموت السريع دون مقدِّمات بعد شهرين من وزارته، وكانت له سيطرةٌ تامة في الدولة، فجنودُه من الشام يرعون مكانته ويعدّونه صاحب الفضل الأول في قيادة السفينة، وأعداؤُه من بقايا الفلول المتضاربة يحذرون بأسه، ويعلمون أنهم لم يستطيعوا مجابهته ومعهم الفرنجة والقصر، فكيف وقد أصبح يملك الدولة، ويُطيعه الخليفة؟! ويتوارى عنه من يرى في ظهوره مصدر ريبة تلحقهُ!

كان أسد الدين رجلَ الموقف دون منازِع، ولكنّ أَكْلةً دسمة أخذت بخناقه فما استطاع لشرّها دفعاً، وأُعلن موته في وقت عصيب تختلف فيه الأهواء، فمِن جنود الشام مَن يتطلع إلى مقامه، وليس واحداً في هذا التطلُّع، بلْ له منافسون يُؤذِن اختلافهم بتبدّد الشمل.

وفي قصر الخلافة مَن رأى نفوذه قد توارى ومكانته قد تضاءلتْ إذ حجبت شمسُ أسد الدين كلّ نجم شارق، ويرى في رحيله تَنفُّساً لغيْظه المكبوت، ومبدأً لعملٍ سرّي قدْ يأتي بخير ما يرجو، ويستطيعُ أن يتّصل بالفرنجة ليُعيد مآسي شاور وضرغام!

وماذا يضرّه لو عادتْ مآسي شاور وضرغام وهلكت الجموع، وتناثرت الدماء في حربٍ أهلية متى أفضى ذلك إلى سلطانه! والفرنجةُ في غضب مفزع لسيطرة جيش نور الدين وتولية قائده المحنك، ويَوَدُّون أن يجدوا الفرصة المناسبة لاحتلال مصر، وقد عرفوا نعيمها من قبل، وحلموا ببقاءٍ دائم بين النيل والمروج والحدائق.

كلّ ذلك كان واقعاً ملموساً تَهْجسُ به الصدور، ويتحدث به الرّصفاء في خلواتهم آمنين طامعين.. ولكنّ الموقف لا بدّ أن يُحسم على عَجل، وفي جيش أسد الدين فقيهٌ مرموقٌ يدين له الجنودُ جميعاً بالطاعة لصدق إيمانه ونزاهة مقصده، وترفّعه عن عَرَض الدينا، هذا هو الشيخ الإمام عيسى الهكاري، وقد دَرس الموقف في ذكاء، فعرف أنّ من الطامحين للقيادة (الياروقي) أحد قادة الجيش البارزين، وله ماضيه وجهاده، ومنهم (الجارمي) خال صلاح الدين وصديق أسد الدين، وقطب الدين ابن تليل، وهو لا يعمل في وضح النهار، بل يسعى في السّر ليبغّض الناس في الياروقي والجارمي، ومعنى ذلك في رأيه أن الثّمرة ستقع في كفّه! ومن ورائهم صلاحُ الدين أصغرهم سناً، ولكنّه أكثرهم جرأة وشجاعة وأشدّهم مكيدةً وافتراساً.

وهذا ما كان موضع تفكير الفقيه عيسى الهكاري، إذ أخذ يوازن ويقارن ويقارب ويباعد حتى استقر يقينه على اختيار صلاح الدين، ولم يجعل الأمر مجال تردّد وارتقاب، بل سعى إلى الياروقي فأفهمه أن الفقهاء وكبار الرؤوس في الجيش يرون

صلاح الدين أقـرب وأنسـب، وأنه سـيبعثُ الفرقـة في الجمع المتماسك لو نشز وخالف، ورأى الياروقي أنه لا طاقة له بخلاف الفقهاء، فجاهر بالخلاف مؤثراً أن يبتعد عن مصر جميعها ويلتحق بجيش سيده نور الدين، وهذا ما كان.

وقد ذهب الفقيه إلى الجارمي فأعلمه باستقرار الرأي على اختيار صلاح الدين، وأن الياروقي غَضِبَ وفارق، فإذا أراد مخالفة رأي الجميع فليرحل. وقال الجارمي في نفسه: إذا لم يستطع الياروقي أن يثبت أمام الرأي العام فماذا أفعل؟ فأعلن القبول. وطبيعيٌ أن يخضع ابن تليل، فليس له عضدٌ يحميه، وبذلك أصبح صلاح الدين رجل الموقف.

وذهب الفقهاء إلى العاضد مُعلنين اختياره باتفاق الجميع، وما كان له أن يُمهل، وبعض الكاتبين يرى أن العاضد هو الذي اختار صلاح الدين بدءاً، إذ رآه أصغر المرشحين سناً، وسيثير اللّجاج حين يستعلي عليه من يكبره، فتصبح الفتنة في الجيش الغازي؛ وهذا مُستبعَد، بل لا يُعقل، لأنَّ العاضد لم يكن ذا أمر ونهي، بل كان كلّ مبتغاه أن يتركه المتنازعون وشأنه في حدود قصره.

على أنّ صدور الخِلعة من العاضد، وتلقيب صلاح الدين بالملك النـاصـر قد جعل حـاشـية القصـر وفي مقدمتهم (مؤتمن الخلافة) كبير الحرس يتبرَّمون، فهم يعرفون يقظة صلاح الدين وأنه سيجرّدهم من كلّ حول، وستصدر القرارات باسم الخليفة دون أن

يكون له غير التوقيع، وهذا مما يشعل نفوسهم كمداً، وليس أمامهم غير الانتظار.

كان صلاح الدين منذ شبَّ عن الطوق يجعلُ نور الدين مثَلَه الأعلى، ويتمنى أن يكون حامي الإسلام في وجه الصليبيين امتثالاً لأمره وترسُّماً لخطاه. فلمّا أسعده الحظ بالحكم عادَ لهُ أملهُ مكبَّراً، وعزم على أن يكون سيفاً باتراً من سيوف الإسلام، وقال في نفسه: لقد جئت هذه الديار للمرة الثالثة مُرغماً، وقد شاءَ الله ذلك لأمر يريده، وها هي ذي بوارقُه اللاّمعة أخذت تلوح، ولن يصدّني صادٌّ عن هذه الغاية. ودعا بصديقه القاضي الفاضل، وكان أسدُ الدين يخصّه بحبٍّ وثقة، فقال له: أنتَ من الآن عوني! هدفنا واحد، ونصر الله لا يبعد، فهو قريب من المحسنين.

رأى صلاح الدين أن يجذب إليه قلوب المصريين والشاميين معاً، فبذل للفريقين أموالاً كثيرة كانت في حوزة أسد الدين من قبل، وقال: إنها ستجعل القوم صفاً واحداً معه أمام العدوّ المتربص بالوطن، ثم جاءه مدد حربي جديد من نور الدين، فآزر موقفه، لأنَّ هذا المدد القادم قد أقرَّ بالخضوع التام له، دون تنافس سابق قد تبرز دواعيه في وقت لاحق، وفي هذا المدد شمس الدين توران شاه بن أيوب ـ أخو صلاح الدين ـ، فازداد به أزراً ونفوذاً.

وإرسال شمس الدين إلى صلاح الدين يؤكد أن نور الدين لا يبغي غير قوّة الإسلام في مصر، ولو كان الرجل العظيم ذا دهاءٍ سياسيّ لخاف من اجتماع الأخوين البطلين على رأي واحد، وفي

قيادة جيش واحد قد يشذّ عن أمره، ولكنَّ دهاء السياسة لا يلج في نفس بطلٍ يريد الخير للإسلام لا لنفسه، فهو يعمل على قوة الجيش المصري ليكون شوكةً في جنب الصليبيين، وهذا مبتغاه الأوحد!

ولم تهدأ الأمور الداخلية في القاهرة، على النحو الذي أراده صلاح الدين، لأن الذين فقدوا نفوذهم في القصر قد عزَّ عليهم أن تُسلَّط الأضواء على الوزير وحده، وأن يتواروْا عن الأمر والنّهي مكتفين بطاعة أمير المؤمنين في رغباتٍ شخصية لا تتعدى مسائل الطعام والشراب، فقرر من يلقّب (بمؤتمن الخلافة) ـ وهو القائم على توجيه الحرس الفاطمي ـ أن يبعث إلى ملك الفرنجة برسالةٍ تدعوه لنصرة الخليفة، (وأموري) يتحرَّق غيظاً على مبارحة مصر، ويتمنى أن يعود مستنداً إلى ظهير داخلي يمده بالسلاح والزاد والمال.

وكان من حظِّ صلاح الدين أن تقع الرسالة في أيدي عيونه قبلَ أن تنتهي إلى غاياتها الأثيمة، فعرف ما يُدبَّر بليل، واستشار القاضي الفاضل فيما يجب أن يقوم به فوراً، فأشار عليه أن يُظهر أنه لم يعلم شيئاً، وأن يحبس الرسول في مكان خاص ليعتقد مؤتمن الخلافة أنه وصل إلى الملك الإفرنجي في سلام، ثم يقابل مؤتمن الخلافة مقابلة لا تفصح عن عداء، فيأمن جانبه، ويتخلّى عن حرَّاسه الشداد الذين يحيطون به في كل اتجاه، فإذا سنحت الفرصة لاقى حتفه في غير ضجيج صاخب.

ورأى صلاح الدين أن يتمهَّل حتى حانت الساعة المرتقبة، إذ

خرج مؤتمن الخلافة من القصر لبعض حاجاته، فداهمه مَن حزَّ رقبته وأجرى دمه، وكان له أكثر من خمسين ألفاً من جنود السودان يأتمرون بأمره، وكثيراً ما أثاروا الفتن في الدولة معتزِّين بتشجيع الخليفة الفاطمي وقيادة مؤتمن الدولة لهم، فلمّا علموا بالنبأ أعلنوا الثورة، وهاجموا الجيش الصلاحي حيث كان مترقِّباً منازلتهم أيقظ ترقّب.

ودارت معركة رهيبة انحاز فيها الخليفة أولاً لكبير حراسه، ثم تحقق هزيمتهم، فأصدر أمره باستئصالهم، والتبرُّؤ من آثامهم، واندفعت فلولهم إلى الجيزة، فأتبعهم شمس الدين ـ شقيق صلاح الدين ـ حتى قدر على إبادتهم، وارتحل من بقي سالماً إلى الجنوب في أقصى الصعيد! وبفراسة صلاح الدين عرف أن الحرس الباقي في القصر من الأرمن يكنُّ له ما يكنُّ الحرسُ السوداني، فأمر بتفريقهم وإبادة ثكناتهم، وذلك خيرٌ من انتظار معركة أخرى تُحصد فيها الأرواح دون داعٍ.

وكان الفرنجة على علمٍ بما وقع بين الحراس وجند صلاح الدين، واشتمُّوا من ذلك أن الخليفة غير راضٍ عن جيوش نور الدين؛ إذ تَشُلُّ إرادته، وتتحكَّم في شؤونه الخاصة، فضلاً عن شؤون الدولة، كما أن نور الدين قد أصبح سيد الموقف حين وقعت مصر في قبضته، فصارت له السيطرة على القواعد البحرية في الإسكندرية ودمياط وغيرهما، ومن شأن هذه السيطرة أن تجعل للمسلمين سيادةً تامة في الجزء الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط، بل أن تقطع كثيراً من المَدَد الوافد من أوروبا، لذلك عجَّل (أموري) ملك بيت المقدس بإرسال سفارة إلى أوروبا تطلبُ

من فرنسـا وإنجلترا وصقليـة وألمانيـا حملـةً كبيرة تستطيع اكتساح نور الدين، ولكنّ الخلاف مع البابوية والإمبراطورية قد ترك هذه السفارة دون نتائج ملموسة، فاضطر (أموري) إلى إمبراطور بيزنطة (مانويل كومينين)، فأعانه بأسطولٍ كبير استراح له (أموري) وعدَّه فاتحة نصر، وقد كتب معاهداتٍ بينه وبين نظرائه في الإمارات اللاتينية بالشام تضمن لهم قيمة كبيرة من الحاصلات الزراعية في دمياط والمحلة وقوص إذا تحقق الاستيلاء على مصر، وذلك ليضمن وقوفهم معه بمشاعرهم، إن لم يشاركوا بعتادهم وأسلحتهم!

ووقفت مصر أمام جيشين؛ يتجه أحدهما إلى دمياط بقيادة الأسطول البيزنطي، ويتجه الآخر إلى الجيزة بقيادة (أموري)، وقد سبق جيش بيزنطة، ولأمر ما رأى (أموري) أن يغيّر خطته وهو في الطريق، ففضَّل أن يكون شريكاً في معركة دمياط، حيث لا يضمن نجاحه إذا انفـردَ وحـده في معركـة الجيـزة، وفوجئـت المدينة بالأسطول البيزنطي يحاصرها، ثم بمجيء جيش (أموري) من بعده، ومعه أدوات الحصار من دبابات ومنجنيقات، وقد ألهم الله المواطنين أن يَضعوا السلاسل الحديدية الممتدة بعرض النيل في الميناء لتمنع سفن الأسطول.

أين كان صلاح الدين حينئذٍ؟ إنه لم يتوقع أن تكون دمياط موضع الهجوم، فلجأ إلى تحصين الإسكندرية وبلبيس باعتبارهما المسار المعتاد للجيش الصليبي، فلما جاءته الأنباء بمحاصرة دمياط سارع إليها، وهو في أوج عزيمته، وحدّة نشاطه، وطلب النجدة

العاجلة من نور الدين، وقد ساعدت الطبيعة على تراجع الحصار الصليبي، حيث فاض النيل مندفع التيار من الجنوب إلى الشمال، وللمصريين درايةٌ بالسبح في هذا التيار، فجعلوا يحملون الفخّارات حتى إذا اقتربوا من الأسطول أشعلوها بالنار، ورموها فوق الجنود والعتاد، فجعل الحريق ينتشر على مدى أزعج مَن بالأسطول، وقضى على أكثر المؤن، وهنا اقترح الإمبراطور البيزنطي أن يبدأ بالهجوم مع جيش أموري دون انتظارٍ مهلكٍ في الماء.

ولكن أموري تخوّف من قوة صلاح الدين بالمدينة، فآثر التريّث، ثم جاءته الأنباء أنَّ نور الدين قد هاجم ممتلكاتهم في الشام، وأن الصليبيين قد تركوا ديارهم زاحفين في العراء، فقرَّر الانسحاب على الفور، ورأى الإمبراطور البيزنطي أن المسألة مسألة حرب طاحنة، وأنَّه لا يستطيع أن يثْبتَ وحده بعدَ أن انسحب حليفه، وقد اشتكى جنودُه الجوعَ دون مورد، فبادر بالانسحاب ومن ورائه جيوش السبَّاحين تقذفهم بالنيران، فغرقت سفن كثيرة ومات جنودها غرقاً في اليم، ورجع صلاح الدين إلى القاهرة مكلّلاً بتيجان النصر. . لقد كان نور الدين عامل النصر الحاسم في غزوات أسد الدين، وها هو ذا يؤدي دوره البطولي مع صلاح الدين، فيكسب له النجاح. . .

عاد صلاح الدين إلى القاهرة بعد اندحار الصليبيين، وقد كَسبَ حُبَّ الشعب المصري وتقديره، لأن العلماء والفقهاء والأدباء قد اندفعوا يشيدون بالانتصار الساحق الذي حققه البطل القدير،

وامتلأت ساحات المساجد بخطباء يشدُّون أزره، لأن الفرنجة والبيزنطيين قد اندحروا لأوَّل مرة في تاريخ الحروب الصليبية دون أن يرهقوا الأمَّة بطلب أموالٍ هائلةٍ يجمعها أمثال شاور وضرغام، فيُطمِعون أعداءهم في بلادهم، ويتشوَّقون إلى إعادة الكرَّة لينقلبوا غانمين ظافرين.

وقد حار كتَّاب الفرنج في تعليل النصر الباهر الذي حقَّقه صلاح الدين على جيوش ملكَين كبيرَيْن، إذ لم يستطيعا مفارقة الماء، وظلَّت جيوشهما متحصّنة بسفن الأسطول، وفي رأي بعضهم أن الخوفَ قد تملَّكهم؛ إذ شاهدوا ماء الفيضان من الأسفل يعوق امتدادهم، كما هطلت السماء بأمطارٍ شديدة جعلت تُتلف السطوح الهشَّة من الأعلى! ويخيَّل إليّ أن فقدان الثقة بين المهاجميْن الكبيرَيْن قد ترك صداه في العمل على انتهاء الحملة دون أن تجني غير الخسران المؤلم. وهو توفيقُ الله ومشيئته، لأن المهاجم عدوٌّ باغٍ، والمدافع منتصر لنفسه يرجو عاقبة المجاهدين.

* * *

الخلافة الغاربة

لَم يَرْتَحْ صلاح الدين بعد رحيل الصليبيين، وكيف له بالراحة والدولة في حاجةٍ إلى ثبات داخلي، وأمان خارجي، ففي الداخل أشياعُ الفاطميين يَرَوْن الخليفة عاجزاً عن أن يمدّهم بخيره، لأن نائب صلاح الدين على القصر قد تحكم في كل شيء، فلا يسمح لهم ببعض ما كانوا يأخذون، ولا بد أن تشتعل نفوسهم غيظاً وحفيظة، وقد علّمته الأيام أنّ السكون الظاهري رَمَادٌ يُخفي الجمر المتأجّج؛ وفي الخارج لا يزالُ (أموري) متحرقاً إلى الهجوم على مصر، ولئن خاب في معركة دمياط فلأنّ جنود ألمانيا وإنجلترا وفرنسا لم تلْحق به، وإنما شاركه الإمبراطور البيزنطي، وكان يعملُ لنفسه واهماً حالماً، إذ طمعَ أن يكون هو الآخر ذاَ مُلك عريض على شاطئ النيل، وإذنْ فمن المحتمل أن تدُور الدورة من جديد، وتمتلئ المياه بأساطيل أوروبا تحت قيادة أموري، فلا بدّ إذن أن يُريه الفزعَ قبل أن يستقر على رأي.

ولو كان رجلٌ غير صلاح الدين لآثَر الراحة بعد عناء دمياط، وانتظر ما تأتي به الأيام، ولكنّه شاء أن تكون المبادرة في يده، فخفّ بجنوده إلى دير البلح قريباً من غزة، وأرهق حُماتها من

الصليبيين، ثم كرّ راجعاً إلى المعركة البحرية، حيثُ امتلأت شواطئ فلسطين بسُفنٍ حربيّة أخذت تظهر قوّتها الباطشة، وكأنّها تُنذر صلاح الدين بما سَيحدث، وكان البطل المسلم قد أعدَّ في مصر أسطولاً من السفن لمثل هذا اليوم، ثم أمَر فحُملت أجزاؤه مفككة على ظهُور الجمال عبر سيناء حتى نزلت بالبحر الأحمر، فأسرع المهندسون إلى تركيبها، واتجهت إلى بلدة (أيْلة) بحراً، على حين خفّت إليها القوة البرّية لاحتلال المدينة، وأبدى الجيش الإسلامي من المهارة ما عجّل بسقوط (أيلة) في قبضة صلاح الدين، واقتِيد أفراد حاميتها أسرى إلى القاهرة.

فُوجئ الناس بأسرى الفرنجة يدخلون العاصمة مُكبّلين بالأغلال، وما رأوْا ذلك من قبل، فامتلأتِ النفوس إعجاباً بصلاح الدين، وهو بذلك قد كسب قلوب العامة؛ إذ عَرفُوا أنه البطل المنقذ، على حين تَحَيَّر أموري فيما يصنع، وأدركه شبه اليأس، إذ كان يظن صلاح الدين قد أُرهِق بعد معاناة دمياط، وسيمكث أعواماً حتى يستعيد بأسه، وها هو ذا لم يسترحْ يوماً واحداً، وخفّ إليه بأسطول بحري لم يكن يتصوّر وُجوده من قبل!! لقد ضمن صلاح الدين رضا الشعب بما صنع، كما حقّق أمله في إرهاب صاحب بيت المقدس، وإزعاجه، ولم يَبقَ إلا أن ينظّم أموره السياسية في مصر.

ولكن ما هي هذه الأمور؟ إن نور الدين زنكي يكتُب إليه طالباً إلغاء الخلافة الفاطميّة وإعلان الخلافة العباسية، لتصير مصرُ سُنّية بعد أن كانت شيعيّة، وصلاح الدين رجُلٌ سنيٌّ مثل نور الدين، وتمنّى أن يحقق مبتغاه في أوّل سانحة تلوح، ولكنه يعلم أن انتقال الشعب في يوم وليلة من مذهبٍ إلى مذهب مما يصعب، فلا بدّ من دُعاةٍ يهيّئون الأذهان للانتقال المرتقب، وكيف بهم ومَنْ قَدم في جيش صلاح الدين من هؤلاء لا يكفي أن يقوم بالدعوة في القاهرة وحدها، فكيفَ بطول البلاد وعرضها؟.

لقد رأى من الأوفق أن يهيئ الأذهان ببناء المدارس التي تُذيع فقه أهل السنّة، وأنْ يَنشر من الكُتب ما يؤيد مذهب الإمام الشافعي، ولكنّ فقهاء الشيعة بمصر لا يزالون يتمسّكون بما درسوه، ولهمْ تلاميذ ينشرُون ما تعلَّموه، ثم إنّ شعائر الأذان والإقامة وغيرها شيعيّة الصِّبغة، والخطبة المنبرية تخصّ الخليفة الفاطمي بالدعاء، فترتفع الأصوات مستجيبة مؤمّنة! أيستطيع صلاح الدين أن يُصدر مرسوماً يجعل كل هذا الذي رسخت دعائمه مدَى قرْنين طويليْن هباءً بَدَداً في يوم وليلة! لذلك كتب إلى نور الدين داعياً إلى التمهّل حتى يحين موعد القطاف.

ولكن الرجل متشدّد، وقد خاطب الخليفة العباسي فيما عزم عليه، فآنَس منه بشْراً واستعجالاً، وقال: إن أكبر فَرحة تغمرُ صدره

حين تزولُ الخلافة الفاطمية عن مصر، لذلك كتب ثانيةً وثالثةً لصلاح الدين يأمره بقطع الخطبة الفاطمية، والدعاء للخليفة العباسي وحده؛ وإذا كان نور الدين يدرك مبلغ تأثير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين عليه، فقد اجتمع به، وأمرَه أن يُسارع بالرحيل إلى مصر لينفّذ ما اتفق مع الخليفة العباسي على إبرامه.

وسرعان ما حضر نجم الدين إلى البلاد، وعلم صلاح الدين بمقدمه، فرأى أن يكون استقبالُه في مشهدٍ ينطق بالروعة والجلال، إذ تقدَّم قوّاده ورجال دولته، وكبار العلماء والفقهاء في موكب مشهود، وحين رأى والدَه انحنى على يده مقبّلاً، وعانَقَ إخوته وجميع أسرته، وهي فرحة غامرةً قلَّ أن تتكرر في مشهدٍ عائلي مثل هذا المشهد، وشاء الخليفة العاضد أن يشارك في الاحتفاء بمقدم والد صلاح الدين، فترك القصر وخرج ساعياً إلى الترحيب به، وهو ما لمْ يصْنعه خليفةٌ من قبل في استقبالِ ضيفٍ قادم مهما كان عزيزاً ذا تجلّةٍ وإكبار.

ولعلّ العاضد كان يظن أنه بهذا الاحتفاء قد ضمن قلب الأب، وكسب رضا الابن فأصبحا يسيران في فلكه! وهو ظنٌّ خيّبته الأيام، لأن نجم الدين أيوب ما قدم إلى مصر استجابةً لأمر نور الدين، إلا تنفيذاً لرغبةٍ ملحّةٍ يجب أن تتحقق، وقد دار حوارٌ بين الأب والابن فيما أتى به الأب، فأطلعه صلاح الدين على وجهة

نظره في التريّث، لأنّ الشعب المصري قد بدأ يطمئن إلى عهده، ويراه خير العهود بالنسبة إلى أعوام سالفة ذاق فيها أشنع ضروب الشقاء، وعليه أن يحرصَ على هذا الحبّ فلا يأتي بما يزعزعه.

ثم إنّ الخليفة قد قُلمت أظفاره، فتبدّد حرسه الخاص، وكان قرابةً من خمسين ألف جندي يرأسهم مؤتمن الخلافة، فقام بهاءُ الدين قراقوش بالوصاية الدقيقة على كُلّ أمر من أمور القصر، فلا يدخل داخل ولا يخرُج خارج إلا بإذنه، أمّا أطباق الذهب وكؤوس الفضة وسيوف الزينة، فقد جُمعت لتكون أثمانها الوفيرة رصيداً في خزانة الدولة، وبعض ما اجتمع من هذه الأثمان شُيّدت به المدارس وأُقيمت الملاجئ والمستشفيات، وهذه قلعةُ الجند ـ وهي المعروفة الآن بقلعة صلاح الدين ـ قد أصبحتْ أكبر معقل للجيش، كما رمّم السور الخارجي بعد أن تهدّم بقذائف الصليبيين في معركة شاور؛ أفليس من الخير أن يستمر في نهجه الوئيد حتى تسمح الأيام بتحقيق رغبة نور الدين! إن نور الدين أميرٌ كبيرٌ وذُو دراية فائقة بأساليب الاسترضاء والاستمالة وجذب العامة إلى منهجه السياسيّ، ولا بدّ أن يكون ذلك مما دار في ذهنه، وفَهِمهُ حق الفهم، فكيف يتسرَّع!!.

قال نجم الدين: يا ولدي إن نور الدين كما تقول، وهو سيدنا الآمر دون شك، ولكنّ خطأه الأوحد أنه تعجّل فكتب إلى الخليفة

العباسي يُبشّره بزوال الدولة الفاطمية، فجاءت رسلُ بغداد تشيد به وتستعجله، فطمأنهم على تحقيق ما يُريد أمير المؤمنين، وكان على الخليفة العباسي أن يقنع ويتريث، ولكنّه بعث الوفود مرّة ثانية، وقد أعطى نور الدين كلمة، ولا يريد أن يخالف!.

فأجاب صلاح الدين معقّباً على حديث أبيه: وهل يدري الخليفة العباسي في بغداد والخليفة الفاطمي في القاهرة أمراً من أمور السياسة، حتى تكون لهما رغبة ما! وحتى ينهض نور الدين لتلبية مطلب الخليفة العباسي في أول فرصة تلوح!!.

قال نجم الدين: أعلم ذلك يا بني، ولكني أنقل لك ما كان كما كان...

وفي هذه الجلسة الحميمة خطر لصلاح الدين خاطرٌ نبيل، فدعا إخوته، والكبار من أسرته وبني أعمامه وأخواله ليخبرهم (دوان أن يعلم والده شيئاً عن قصده) أنه اعتزم أن يتنازل عن الحكم لوالده، فهو أدرى منه وأوْلى، وما انتظر قدومه على أحرّ من الجمر إلا ليريحه بتولّيه منصب الوزارة، وقد فاتح الخليفة الفاطمي في ذلك، فأَنِسَ منه قبولاً، وهو من الآن مرؤوس لا رئيس!.

أكبر نجم الدين ما سمع من ولده، وتخاطرت دموع الفرح من عينيه، إذ رأى من أمارات الوفاء ودلائل الإخلاص ما أثلج صدره، وأبهج نفسه، ثم قام إلى ولده فاعتنقه، وقال له: يا بني، أنا طوع

أمرك، ولن تترك موضعك الذي حباك الله به عن رضاً واختيار، وسأكون مستشارك الأمين، وناصحك الودود، فقرّ عيناً يا بني بما بوّأك الله من مجد، ولن تغيب عني شمس أشرقت على وجهك الكريم، فلا تعُدْ إلى مثل هذا الحديث من بعد، فأنت فلذة كبدي ونور عينيّ!.

أحسَّ والد صلاح الدين بمسؤولية فادحة تقع على عاتقه نحو ولده، وقدّرَ في نفسه أنهّ المسؤول الأول عن سعادته، فنهض ليغفو قليلاً كي يجمع قوى نفسه، وفي الصباح طلب القاضي الفاضل ليباحثه في مسألة إنهاء الخلافة، فلعلّ لديه حلاًّ مناسباً، وفي عبد الرحيم حنكة ودهاء، فقال لنجم الدين ـ وقد ألمّ بملابسات الموقف ـ: الرأي يا مولاي أن نبدأ بقطع الزيادة التي أضافها الشيعة إلى الأذان، وهي قولهم: «حيّ على خير العمل» فإن وجدنا صيحات الإنكار من الناس عرفنا أن الوقت لم يحن بعد، فَرضي الأب على اقتراحِ القاضي، وبادر صلاح الدين فأمر المؤذّنين بالتنفيذ، فلم يجد أدنى اعتراض، وقد يوجد من اعترض بينه وبين نفسه، ولكنّ احتجاجاً ما لم يظهر مع تكرار ذلك مرّات على التعاقب.

ورأى صلاح الدين أن يخطو خطوة تالية، فيقبض على من يظنّه موضع نفوذ لدى الشعب، وله هوىً في الفاطميّين، فلم يرَ من الرعيّة ما يدل على اعتراضٍ واضح.

وجاءت المرحلة الثالثة، وقد قرر نجم الدين ألا يشترك صلاح في تدبير أحداثها، حيث أنها لو أخفقت وَجد باب العذر واضحاً أمام الخاصة والعامة، إذ لم يشترك في شيء، وقد دَبَّر الموضوع في غيبته، هذه المرحلة هي أن يقوم نجم الدين في ملأ من حاشيته يوم الجمعة، فيأمروا الخطيب في خطبته الثانية أن يحذف اسم العاضد، ويذكر مكانه اسم الخليفة العباسي، واختير لذلك خطيبٌ شجاع ذو هوىً سنّي، وقد رأى أن يعدل عن بعض ما اتفق عليه، فحذف اسم العاضد، ولم يذكر اسم الخليفة العباسي، وهذا ما يعرف الآن بجسّ النبض، وقد ارتضاه نجم الدين منتظراً الأسبوع المقبل، لينطق الخطيب بالدعاء للخليفة العباسيّ.

وتمّ ذلك في موعده، فكان ذلك إعلاناً صريحاً بانقضاء العهد الفاطميّ، وجاءت الأنباء للعاضد فزاد مرضاً على مرض، وقيل: إنه قتل نفسه، لأنّه مات بعد ذلك بخمسة أيام، قبل أن تأتي الجمعة القادمة، فارتاح من دَبّروا خلعه، إذ وقاهم من الاضطرار إلى شرٍّ يحيق به إذا تآمر.

ولم يكن الهدوء عاماً كما توقَّع صلاح الدين وأبوه، لأن جماعة من أنصار العاضد قد عزّ عليهم أن يموت كمداً حين وُوجِهَ بخلعه، فعقدوا العزم على تدبير مكيدة سياسية تطيحُ بجند الشام، وترجع الحق إلى نصابه، وليس لهم من القوة الذاتية ما يُحقق هذا

الأمل، فرأوا أن يكون العون خارجياً من جهتين لا من جهة واحدة، فهناك الباطنية، وهم أشد كرهاً لنور الدين وصلاح الدين من أيّ طائفة مسلمة، ولهم انتقامٌ سريع عن طريق الاغتيال المفاجئ، حيث يضمّـون رهطاً من الفدائيين الذين يأتمـرون بأمـر شيخ الجبل، لا يسألون على ما قال برهاناً، وفي استطاعته أن يُرسل أحد هؤلاء فيغتال صلاح الدين بما حذِق من تستّر واستخفاء حتى يبلغ مراده.

أما من الجهة الثانية فهي جهة الفرنجة في بيت المقدس، إذ يضمنون لهم التأييد التام إذا زحفوا على مصر في جيش كثيف يتمكّن من القضاء على صلاح الدين، وهي رغبةٌ حارّة في نفوس الفرنجة يتلمّسون تحقيقها السريع بعد أن دمرهم أسطول صلاح الدين في البحر الأحمر، وولّوا على أدبارهم خائبين.

وكأنهم لم يكتفوا بهذين، فاتصلوا بوِلْيَم الفورماني ملك صقلية، ليهاجم الإسكندرية حين يُهاجم الفرنجة مصر من ناحية الشرق، فيقع صلاح الدين في شقّي الرحى غير مرحوم، وقد يأتي الفدائي الذي أعدّه شيخ الجبل في زيّ بطل شامي ينضمّ إلى حاشية صلاح الدين دون ريبة، وإذ ذاك يلتمس فرصةً تواتيه للانقضاض عليه، فلا يبقى بعده من يقود المعركة في طرفيْها المتباعدين؛ ومما شجع المتآمرين على سرعة التفيذ أن توران شاه شقيق صلاح الدين وذا القوة الباطشة في معارك القتال، قد سافر إلى اليمن في مهمة خاصة، فلا يقدر على أن يحلّ محلّ صلاح الدين إذا اغتيل،

ويضطربُ الأمر، لأنّ نجم الدين قريب عهد بمصر، وليس له من يدعو إلى رياسته.

وكان من الاتفاق المبرم بين المؤتمرين وملك الفرنجة (أموري) أن يبعث الملك رسولاً يُبلغ صلاح الدين تحياته، ويبحثُ عن شروط معاهدةٍ للسلام، فيكون ذلك مبعث اطمئنان لصلاح الدين كيْلا يأخذ أهبته، على حين استجاب ملك صقلية لأصحاب المؤامرة، فأعدَّ أسطولاً كبيراً يضم ستمئة سفينة تحمل قرابة ثلاثين ألف جندي، لتكون المعركة بتخطيطها المرتب، وعُدَدها الهائلة مكسوبة محققة النجاح!!.

وقد غاب عن المتآمرين أن أَحَدهم وهو الواعظ زين الدين بن علي كان يمقت كلّ اتصالٍ صليبي، ويراهُ كارثةً مروّعة على الإسلام والمسلمين، فأسرَّ ذلك في نفسه، وجعل يحضر حلقات التآمر ليبلغ صلاح الدين يوماً بيوم عمّا يحاك من ائتمار، ثم جاء رسول الملك (أموري) يبلّغ صلاح الدين تحاياه، ويَسْعى لمعاهدة سلام دائم، فكان ذلك أول تنفيذ عملي للمؤامرة.

وهنا أصدر الملك الناصر صلاح الدين أمره بالقبض المباغت على كلّ من اشترك في هذا التدبير، وصَلَبهم جميعاً، ومنهم عُمارة اليمني الشاعر الشهير، وعبد الصمد الكاتب، والعويس القاضي، وعفا عن امرأة ذات اتصال بالبيت الفاطمي كانتْ تحضر الاجتماعات، وتحمّس المتآمرين شفاءً لما تجد من الغيظ والأسى

بعد وفاة العاضد، عفا عنها صلاح الدين وكانت عاملاً من عوامل الانقضاض، إذ لم يرَ من اللائق أن تُقتلَ امرأة وتُصلب مع من شاركوها في الاتجاه.

وجاء اكتشاف المؤامرة كالصاعقة على نفس (أموري) إذ كان يعقد أملاً كبيراً على النجاح بمساعدة الملك الصقلّي، ولم تمضِ أيام حتى لقي حتفه حزيناً، أما أسطولُ صقلية الذي أرسله (وليم النورماني)، فقد وصل إلى مياه الإسكندرية ليعلم قائده أن (أموري) قد تلكأ وصمّم على ترك الميدان، ومات دون أن يعهد لأحد من قواده بالسفر إلى مصر في طليعة جيش! ثم بدا له أن يقوم بهجوم على بعض السفن التجارية الراسية في ميناء الإسكندرية، فأغرقها لأنها لم تكن سفناً حربية، حاول الصقلّيون اقتحام الثغر، فرأوا مقاومة عنيفة من المسلمين، حيث ثبتُوا أمام الخطر، وبعثوا كتائب تولّت إحراق كثير من السفن، ثم اشتد الهلع حين وصلت كتائبُ صلاح الدين على جناح السرعة، فهاجَم النورمان وأحرَق خيامهم، واضطرَّ من بقي إلى الهرب المذعور.

وبهذا الانتصار أكّد صلاح الدين رسوخِ قدمه سياسياً ومحارباً، وأصبح التآمر عليه خطراً يهدد بالاستئصال، ففرغ من مكايد الموتورين في مصر، ليسير إلى عدوّه في عرينه الحصين.

* * *

بين بطلين عظيمين

يتحدث بعض الناس عن نور الدين وموقفه من صلاح الدين وموقف صلاح الدين منه، كما يتحدثون عن خَصْمين عنيدَيْـن، يحاول كل منهما أن يفتك بصاحبه، وكأنهما شاور وضرغام، وهذا التصوّر وليد قراءة متعجّلة فيما دار بين البطلين من حوار، لأن الواقع الملموس يشهد بأن نور الدين ما كان ينظر إلى صلاح الدين على أنه غريمه ومنافسه، بل على أنه أحد قواده، وقد تريث عن تلبية مشيئته في بعض الأمور، وهذا ما يكون موضعاً للعتاب لا م‌اراً للعداء، كما أن صلاح الدين كان يعترف على رؤوس الأشهاد أن‌ه جندي من جنود نور الدين، ومتى أمره فلا بدَّ أن يطيع.

ثم إن البطلين الكبيرين كان يجمعهما غرض مشترك أخذ عليهما كل مأخذ من حياتيهما، لم يُشغلا إلا به، هذا الغرض هو دحر الصليبيين وردّهم على أعقابهم خاسرين، ومتى توحّد الغرض كان سبيل الاتفاق سهلاً، مهما وُجدت بعض الخلافات في تسيير بعض الأمور.

بهذه المقدمة ننتقل إلى عرض ما كان بين الرجلَيْـن قبل أن يرحَل نور الدين إلى رحمة الله، غافلين عن كلّ ما قيل عن غلّ مستتر ومكايد تدبّر، فلم يكن نور الدين حين أرسَل إلى

صلاح الدين بعض الجنود النورية لتشدّ أزره في معارك النزال بالذي يريد أن يجعلهم عيوناً عليه، لأن الجنود جميعاً جنوده قبل أن يكونوا جنود صلاح الدين، ولن يكونوا أقل إخلاصاً ممن جاؤوا بعدهم، فليس من الهيّنِ أن نقبل قول من قال[1]:

«إن حنق نور الدين بدأ منذ تولّى أسد الدين شيركوه الوزارة، وكأنه لم يكن يرجو فتح مصر وخلاصها من الفرنجة على يديه، بحيث قال أحدهم: لقد جرى ذكر فتح مصر، فوالله ما ابتهج به نور الدين، وظهرت في مخايل قسماته وفلتات كلامه الكراهية لذلك، فقد قدّر طموح شيركوه على نفوذه».

وهذا كلام ينكرهُ الواقع لأنّ نور الدين لم يُرسلْ جيشه إلى مصر بقيادة أسد الدين إلا وهو يرجو أن يتمّ خلاصها على يده، فكيفَ لا يبتهجُ بما تحقّق من مأمله!! وعلام أرسل الجيش إذا كان لا يرجو له أن ينجح في مسعاه؟! أيُعقلَ أن يرسل جيشَه الكبير ليبوء بالانهزام، ويخفقَ قائده الذي يجاهد تحت رايته.

ثم يقول الباحث[2]: «ولكن حقد نور الدين على آل شادي بلغ أقصاه لمّا استحوذ صلاح الدين بعد وفاة عمّه على وزارة العاضد، إذ تأكّد نور الدين من طموحهم، وأنهم يعملون لأنفسهم، فكان كثيراً ما يقول متحسراً: مَلَكَ ابن أيوب».

---

(١) الناصر صلاح الدين: للدكتور عبد المنعم ماجد، (ص ٨٢).
(٢) المصدر نفسه، (ص ٨٣).

وواضحٌ أنه كان لابدّ أن يقوم بالوزارة أحدُ قوّاد جيش نور الدين، فإذا وقع الاختيار على غير صلاح الدين، وملك زمام الأمر في يده فإنّ ما زَعَمه الباحث من تكدّر نور الدين كان سيحدث لِمَنِ اختير من القواد غير صلاح الدين!.. على أن الذي يهوي بهذا الوهم أنّ نُور الدين نفسه هو الذي أرسل نجم الدين أيوب والد صلاح الدين إلى مصر، وأمَرَه أن يقف بجوار ابنه، فكيفَ يخاف استقلال إمرة صلاح الدين، ويعدّ ذلك شرّاً خطيراً يحيق به، وقد أرسل إليه أكبر عَضُد يشدّ أزره، ويقف بجانبه مسدِّداً موجهاً، وهو بَعْدُ أبوه الذي لا يرى في الدنيا أعزّ على نفسه منه!!.

أما أنّ صلاح الدين كان يريد الاحتفاظ بمكانته الجديدة، فهذا ما يتحتّم أن يكون، وكلّ إنسان من العقلاء يجد نفسه في أعلى مراكز القيادة لا يحبُّ أن يضيع منه ما ملَك، ولكنّه مع ذلك كان يعرف أنّ نور الدين سيده ومولاه، ويتمنّى أن يكسب رضاه؛ فمسألة الحقد والحسد قد يتخيلها كاتب أوروبي يكتب تاريخ الحروب الصليبية في هواه، ويحسُّ في أعماقه أنّ أبطال الإسلام جميعاً كانوا خصومَ قَوْمه في معركة النضال، أما أنْ نُجاريَهم فيما يؤوّلون دون دليل واضح، فهذا ما يجب أن ننأى عنه.

وقد قلتُ أكثر من مرّة: إن لكل مسألةٍ من مسائل التاريخ عدّة أوجهٍ مُحتملة، ومن يريد انتقاص بطلٍ من الأبطال لا يعدم أن يرى في وجهٍ من الوجوه ما يُشبع رغبته الشخصية في الانتقاص، ولكن ذلك شيء والواقع شيء آخر.

لي أن أعرض صفْحاً عن كل ما استنتَجهُ بعض الدارسين من دلائل البغض المتبادل، لقد كان هدفُ نور الدين الأول أن ينازل الصليبيين في أسرع وقت، وإذا كان صلاح الدين قد انتهى من أمر الدولة الفاطمية فعليه أن يهيّئ جيشه إلى السير السريع لغزو (الكَرَك)، حيثُ ينهض نور الدين للكرك من جهتها المقابلة، فيقع الأعداء بين جَبهتين، وهذا ما يضمنُ له أسباب النّصر. . فإذا أبدى صلاح الدين بعض التمهّل؛ فلا بدّ أن يثير غضب نور الدين، ولو كان نَجْلُ نور الدين نفسُه مكان صلاح الدين، وتلكّأ عنْ قدومه السريع إلى الموقعة الحاسمة، لغَضب نور الدين واشتدت ثورته.

لقد أرسل صلاح الدين إلى مولاه هدايا ثمينة من الأموال والنفائس التي غنمها من قصور الفاطميين، ولكنَّ نور الدين وراء هدفه الأسمى، صاح برسول صلاح الدين: إنّا لم نرسل صلاح الدين ليجلب لنا الهدايا والنفائس، إنما أرسلناه ليستعدّ بالمال في سبيل الغزو المنتظر، وعليه أن يفهم رسالته من الآن!! وهو ردٌّ قد يرى فيه صلاح الدين تسفيهاً لصنيعه، ولكنه الردّ المنتظر من أمير عظيم يتحرّق شوقاً إلى لقاء الأعداء، وإزاء هذا الردّ بعث صلاح الدين إلى الرجل العظيم يُنبئُه أنه لن يتأخر عن الذهاب إلى الكرك.

وفعلاً ذهب نور الدين بجيشه، وانتظر صلاح الدين فلم يتأهّب، وهذا موضع المؤاخذة، والذين يقولون: إنّ تأخره لمرمىً سياسي هو الخوف من انقضاض بقايا الفاطميين على الحكم في

غيبته، قد تكون لهم وجهةٌ فيما يقولون، ولكن القائد إذا وقف عند كل احتمال يعْرِض له فلنْ يتقدّم شبراً واحداً، وإنما عليه أن يَخلُفَ في مصر من يقوم مقامه مدجّجاً بالسلاح ! فيمنع العُيون الهاجعة أن تستيقظ.

ذهب نور الدين ولم يأْتِ صلاح الدين، وأرسلَ الرجلُ الغاضب رسالةً نارية إلى قائده المتأخّر عن وعْدٍ قدّمه من قبل، وكانت الرسالة من الشدة بحيثُ أغضَبتْ أحد فرسان صلاح الدين، فصاح في الملأ : «ولماذا يتكلم نور الدين هكذا، وكأنّنا لا نساوي شيئاً في رأيه، لو جاء إلينا الآن لقاتلناه بسيوفنا».

كانت حماقة طائشة دفعتْ هذا الشاب المتعجّل أن يندفع هذا الاندفاع بين قوم كلهم جنود نور الدين، فأدرك نجم الدين أيوب ـ والد صلاح الدين ـ خُطورة ما قال هذا المتعجّل، فصاح به: «ماذا تقول أيها الأحمق، نحن جميعاً خدمُ نور الدين، ثم اتَّجه إلى صلاح الدين ولده، وقال له أمام الجمع الحاشد: لو جاء نور الدين كنتُ أنا وخالك هذا ـ وأشار إلى شهاب الجارمي ـ أول من نُقبّل الأرض بين يديْه! وكلّ الجيش طوعُ نور الدين مثلنا. . . وهذه البلاد التي نحن فيها بلادُه، وله الأمر فينا، ثم التفت إلى الجند وقال: «نحن هُنا عبيدُ نور الدين أتفهمون؟! باسمه فتحنا هذه البلاد، وباسمه نَنتصرُ في ميدان الجهاد!!».

قال صلاح الدين: الأمرُ ما قال والدي، ولئن أرسَلَ لي

نور الدين رسولاً صغيراً يقوُدُني بالزمام إليه لأَطَعتُ، وها أنا ذا ذاهبٌ إلى الكرك!!.

تحرّكَ القائد عَلى رأس جيش من مصر، وفي تصوّره أن معركة حامية تدور حول الكرك، ولكنه في طريقه يأتيه خبران حزينان، أحدهما موتُ والده حيثُ وقعَ عن فرسه في ميدان اللعب بالصولجان فشُجّت رأسه، ولم يستطع الطبّ إنقاذه.. أما الخبر الثاني فوفاة البطل الشهيد نور الدين، أكبر عدوّ للصليبيّين، وحاملُ الراية للهجوم والدفاع!! هنا وَجد صلاح الدين نفسه رجل العبء الثقيل، لأنه تلميذ نور الدين.

جمع صلاح الدين مستشاريه (وأقربهم إلى قلبه القاضي الفاضل)، لينظر ما يصنع، فانتهى الرأي إلى الرجوع إلى القاهرة حتى ينجلي الموقف في إمارات الشام النّورية بعد رحيل نور الدين، وقد أدرك أن نزاعاً سيشبّ بين الأمراء، كلٌّ يحاول أن يستأثر بملكِ نور الدين بدعوى حماية ولده الملك الصالح إسماعيل، وهو غلامٌ لم يبلغ الحادية عشرة بعد، ويحتاجُ إلى من يُدبّر الأمر حتى يبلغ سنّ الرشد.

وفعلاً حصل النزاع على أشدّه، وبدتْ أطماع صاحب الموصل ـ وهو شقيق نور الدين ـ في الاستيلاء على بلاده، باعتباره وصياً أميناً على ابن أخيه، ثم جاءت الأنباء إلى صلاح الدين بأنّ بعض الحاكمين في إمارات الشام، قد اتصلَ بالفرنجة ليكونوا عونه إذا تشاجر مع مناوئيه!! فعادت لُعبة شاور وضرغام إلى الشام، وهي التي دفَعتْ

نور الدين إلى إرسال أسد الدين كي يحمي البلاد من بلاء الفرنجة الزاحف، فلا بدَّ إذن من أن يتجه صلاح الدين إلى الشام ليحمي هؤلاء الصغار من الوقوع في شَرَك الصليبيين حين انصرفوا إلى تحالف ظاهري بالنسبة للفرنجة، حيث يبدؤون منه السطو الكاسح على ما كان حصيناً راسخاً في عهد نور الدين.

وإذا كان نور الدين قد انتقل إلى رحمة الله، وإذا كان لم يأخذ من الصيت المدوّي في الأجيال المتلاحقة ما أخذ صلاح الدين، فإنه قدّم النموذج الرائع للإخلاص المتفاني، والشعورِ الحادّ بالمسؤولية الدينية. وبعضُ الذين يزِنُون الأشخاص بالنتائج لا بالنيات المخلصة، يحكمون عليه بأنه لم يستطع أن يُسقط إمارةً صليبية كما فعل أبوه عماد الدين، وكما أُتيحَ لتلميذه صلاح الدين من بعده، وقد نسي هؤلاء أنّ الرجل العظيم جابه الحملات الصليبية المحتشدة على نطاقٍ واسع لم يكنْ في عهد أبيه، كما ربّى صلاح الدين ونشّأَه على الإخلاص والفداء، وأعطاه الجيش الذي صار به قائداً مجاهداً، ولولاه لم يكنْ لبني أيوب صَدىً يتردّد، فهو إذن عظيمُ المكانة بين سابقه ولاحقه، ويزيد عنهما شدّة إيمانه التي جعلتْه لا يذوق النوم ليالي طوالاً، حين يدهم المسلمين كارثٌ صليبي في أية بقعةٍ إسلامية، وله صلواتٌ خاصة في محرابه يأخذ منها زاده القوي على النضال، إذ يحسّ بعون الله ينهلّ عليه في ركوعه وسجوده، وقد صدق تاج الدين شاهنشاه حين استشهد أثناء الترحُّم عليه بقول القائل:

جمـع الشجـاعـة والخشـوعَ لـربّـه
مـا أعظـم المحـراب فـي المحـراب

وأحبُّ، وقد فرغت من تحرير هذا البحث أن أختمه بقول شاهدٍ صادقٍ عن حقيقة شعور صلاح الدين نحو أستاذه أثناء مظاهر الخلاف الذي أشرتُ إليه، ليقضي على كل ما حرّره من يريدون تجسيم الخلاف بشكل يصوّر الأنانية الذاتية، والهوى الشخصي، حيث قال صلاح الدين للقاضي بهاء الدين ابن شداد بعد انتقال نور الدين إلى رضوان ربه:

«كان بلغنا عن نور الدين أنه قصدنا بالديار المصرية، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نُكاشف ونخالف ونشقّ عصاه، ونلقى عسكره بمصافّ نردّه إذا تحقق قصده، وكنتُ وحدي أخالفهم وأقول: لا يجوز أن يُقال شيء من ذلك، ولم يزل الخلاف بيننا حتى وصل الخبر بوفاته»[1]! وهذا اعترافُ صلاح الدين بلسانه، فقطعتْ جهيزةُ قول كل خطيب.

* * *

(١) النوادر السلطانية: لابن شداد، (ص ٢٧).

في سَبيل الوحْدَة

يقول الشاعر العربي:

لقد كان في الهجران ما يَـزَع الهوى
ولكـن شـديـدٌ فـي الطبـاع انتقـالهـا

ولو لم تكن الطّباعُ عسيرةَ الانتقال، ولو لم تكنْ الشهواتُ شديدة السيطرة على النفوس؛ ما جازَ لحكّام صغار تقف سيطرةُ الواحد منهم عند بلدةٍ واحدة وما يجاورها من القُرى أن يُعلنوا الشقاقَ، ويتسارعوا إلى محالفة الأعداء كي يَهزموا صلاح الدين. وقد جاء صلاح الدين من القاهرة إلى الشام لا ليعزِلهم عن مواقعهم، بل ليثبّت أقدامهم لو انضمّوا تحت رايته المجاهدة، كما كانوا من قبل تحت راية نور الدين.

كان على كلّ واحد منهم أن يراجع نفسه مراجعةً واعية، فيسأل: هل سأخسر شيئاً إذا كنت ظهيراً لصلاح الدين؟ بل كان لا بدّ أن يغلبه شعوره الديني فيسأل: ولماذا يجاهد صلاح الدين؟ ومَن يُجاهد؟ وما الفرقُ بين بطل إسلامي غيور وَدّع الحياة وتلميذٍ له أخَذَ مكانه عن جدارةٍ لا يبلغها سواه؟!.

لو أقبل بعضهم على بعض يتساءلون في تَعقُّلٍ، لعلموا أنّ وجودَ مثل صلاح الدين من رحمة الله بهم، فهو حافظهم ـ بعد الله ـ من عدوان الفرنجة، ولن يستطيعوا جميعاً أن يسدّوا مسدّه إذا تعرَّضتْ بلادهم الصغيرة لعدوان كاسح، من حملات الفرنجة، وقد أظهر الصليبيون الفَرحة برحيل نور الدين، وحسبوا ساعة النصر دانية لولا ما تلبّسهم من الخوف الكارب من قوة صلاح الدين، وهم على أتمّ استعداد أن يتعاونوا مع مخالفيه؛ مسلمين أو غير مسلمين ليكونوا حَشْداً متآزراً متسانداً أمام حاكم مصر وحده.

لقد كان أكبر أملٍ للفرنجة أن يقف أمراء الشام والموصل والجزيرة معهم ليصبح خليفة نور الدين دُون نصير!! وهاهم أولاء يَروْن آمالهم تتحقق حين يُسرع هؤلاء الصّغار إليهم صاغرين يطلبون الحماية من صلاح الدين! كأنْ لم يأتهم من قبلُ ما فعله الكامل بن شاور حين صاح في وجه أبيه: لأن أموت قتيلاً بسيفِ بطل مسلم، خيرٌ من أن أعيش ذليلاً تحت رحمة عدو صليبي، وكأنهم لم يعلموا أنّ العدو الغادر سيفتكُ بالأغنام الشاردة واحدةً واحدة، إذا خَلا له الطريق وغاب وجه صلاح الدين.

لقد علم صلاح الدين فرحة الصليبيين بموت نور الدين، وعَرف ببصيرته أنّهم سيبتلعون مدن الشام مدينةً مدينة، فيحققون ما حالَ نور الدين دون تحقيقه، فرأى من الواجب أن ينهض مُسالماً إلى أمراء الشام ليصارحَهم بما يلمح في الأفق من غيوم، أجلْ، ذهبَ مسالماً، لم يأخذ معه غير سبعمئة جنديٍّ توقعاً لاحتمال

هجوم غادر من عدوٍّ صليبي، وحين أتى دمشق سالماً حمد الله أنّ نَامتْ عيون الفرنجة عنه، لأنّه خشي أن يزحف في جيش مكتمل العدّة والعَدَد فيظنّ أمراء الشام أنّه جاء لحربهم وإرغامهم بسيوفه، وقد وفّقه الله فأرسل رسوله قبل أن يطرق دمشقَ ليخبر الناس بالمسجد الجامع أنّه جاء زائراً مسالماً، لا خصماً محارباً، وأنه سيتدارس الموقف بعد رحيل نور الدين مع خلفائه على الإمارات في الشام، لتلتئم الصفوف تحت راية واحدة، وأنه يكنّ للملك الصالح نجل نور الدين ـ وكان عمره لا يتجاوز أحد عشر عاماً ـ كلَّ ودٍّ لذكرى والده، وأعظم احترام وتقدير لأسرته المكافحة.

وسمع الناس صلاح الدين في صِدقه ومُسَالمته، فعرفوا أن الله لم يترك المسلمين هَمَلاً بعد نور الدين، بل هيّأ من يُمثّل دوره ويتابع خَطْوه، وقد جاءتْه الأنباء أن سيف الدين غازي حاكم الموصل ـ وهو ابن عم الملك الصالح ـ قد نَشز عن صداقته، ورآه طفلاً صغيراً لا يستطيع القيام بأعباء الحكم، فأراد أن يضم إمارته إليه، لا بالاتفاق الودّي، بل بالغزو القاهر؛ وكأنّ عمّه نور الدين لم يُبوّئه مكانه في الموصل، ولم يهيّئ له سبل الملك بما بذل من مال وعتاد ورجال.

جاءت الأنباء إلى صلاح الدين بما اعتَزَم عليه سيف الدين، فعرف أن نُذر الشر قد بدأتْ تلوح، وأنّ ما حسِبَه من قبلُ من شتات الفرقة وسِعة الشّجار أصبح حقيقة واقعة، فاطمأن إلى ما ظهر من

دمشق من سلامٍ واقتناع، وتوجه إلى حمص فامتنع أميرها واعتصم بالقلعة...

على حين اجتمع الأمراء الوصوليون بالملك الصالح، ليفهموه أنّ صلاح الدين قد جاء لِيُريحه عن الملك، وأن ما يقوله عن حمايته إياه سرابٌ يخدع به الناس، والملك الغلام لا يتعرّف وجه الحق فيما يسمع، وقد همُّوا جميعاً على مقاتلة صلاح الدين، عالمين أنهم لم يثبتوا لجيشه قدر ما ينهزمون، فدفعهم الطيش السفيه إلى الاستعانة بحاكم طرابلس (ريموند) عارضين له المال والسلاح كي يتقدّم بجيشه لنصرتهم من هول صلاح الدين! وقد استجاب (ريموند) فرحاً، وأخذ يجمع الجيش الصليبي للزحف، ولكنّ صلاح الدين لم يمهله بل تَحرّك قاصداً طرابلس، وحين جاءَته الأنباء بأن الجيش الإسلامي في طريقه إلى طرابلس؛ انكفأ إلى قلعته، وأعلن أنه مسالم لا محارب.

وهكذا وقَى الله المسلمين معركة كانت وشيكة الالتهاب، على أنّ القوم قد فكروا في اغتيال صلاح الدين، ولكنْ من الذي يجرؤُ على ذلك؟ إنهم الفدائيون من أنصار (سنان) شيخ الجبل، فاتصلوا بهم ليحضر من يأنسُ من نفسه الكفاءة على اغتيال صلاح الدين، وكادت تكون مأساة لولا أنْ سلّمه الله، ولم يلتقط صلاح الدين أنفاسه بل انكفأ إلى حمص فاستسلمت قلعتها، وكذلك فعل ببعلبك وعاد إلى حلب، محققاً ما أراده من الانتصار.

رأى أمراء الشام أن الأمر جدّ، وأن ملك الفرنجة قد أحجم،

ومؤامرة الباطنيّين قد فشلت، فلم يبقَ لهم من أمل غير الاستنجاد بسيف الدين غازي صاحب الموصل، وقد أفهموه أن جميع بلاد نـور الدين سـتكون تحت سـلطانه، إذا تعـاون معهم على دَرْء صلاح الدين. وأخذوا يجمعون من الأسلحة والجند ما سيكون مدداً فعّالاً في قتال صلاح الدين، وقد اغترّ سيف الدين بما حدّثوه عن ذخيرتهم وجيشهم، فَقَدِم سريعاً، وطلب لقاء الملك الصالح نجل نور الدين، ودعاهُ إلى أن يكون في طليعة الجيش يسير معه خطوةً خطوة، ليعرف الناس أنه جاء ليثأر لابن أخيه من مُستَبدّ غادر جاء ليطرد ابن سيّده.

وأراد صـلاح الدين أن يحسـم الشـر دون قتـال، فأرسل إلى سـيف الدين غـازي يقول له أنه يرغـب في الصلح حقنـاً لدماء المسلمين، ونكايةً في الفرنجة الذين يَسرّهم أن يتقاتل المسلمون فتذهب ريحهم، وأنّه على استعدادٍ أن يسلّم له البلاد كما كانت، على أن يبقى في دمشق نائباً للملك الصالح بها! وهذا عرض سخيّ تقدّم به صلاح الدين عن رغبةٍ في رأب الصدع، لأنه لم يرد غير أن يضمن أنّ البلاد ستكون في أيدٍ مسلمة، وأن سيف الدين إذا بقي في دمشق نائباً للملك الصالح؛ فقد حفظ له حقه، ورعى واجب أبيه، وهو في جهة ثانية سيربص بين سمع الفرنجة وبصرهم، فيكون على حذر منهم، كما يقف سدّاً منيعاً أمام مدن الشام، ولعمري هذه التضحية بعينها، ولو عقل القوم لفرحوا بما أوتوا، إذ وجدوا في معاهدة صلاح الدين واقياً لم يحلموا به من قبل.

ولكنهم لم يستجيبوا لما فيه صَوْنُهمُ الآمن، فصمّم سيف الدين أن يخوض المعركة ليطرد صلاح الدين نهائياً، فكانت النتيجة أن انهزم مع أعوانه شر هزيمة، وقد تفرقت الجنود بدداً بحيث لم يلْتئم لهم شمل، وخصومُهم من ورائهم يأسرون ويستولون على الذخيرة حتى انتهوا إلى حلب، فتوارى الأمراء مقهورين.

أما سيف الدين فقد عاد إلى الموصل خائفاً يترقب، وجاءته الأنباء الكاذبة أنّ صلاح الدين في طريقه إليه، وهي إشاعة لا سبيل إلى تصديقها، لأن صلاح الدين لن يغامر بجيشه إلى مطارح نائية بعيدة عن عدوه الحقيقي وهو الجيش الصليبي، ولعلّه كان سيتركه في بلده حتى يغيّر موقفه مع الأيام، هذه الإشاعة الكاذبة عجَّلت بلقاء الجيشين؛ إذ زحف سيف الدين بجيش جديد جَمعه من أطراف البلاد حتى بلغ ستة آلاف مقاتل، وكان النصر لصلاح الدين، إذ سيطر على الموقف في بسالة، وفرّ القادمون في ذعر، وتركوا من الغنائم ما قوّى الجيش الصلاحي. وبذلك تبدَّد أمل سيف الدين، ومضى صلاح الدين يحتلّ ديار بلاد الشام وقُراها فتسلم إليه مقادها عن طوع.

وأثناء ذلك دهمتْ صلاح الدين فرقةٌ مغتالة من الخوارج بدسيسة من أحد الأمراء الموتورين، لبسوا لباس المصريّين، وقدموا حوله، فهوى أحدُهم بالسكين على رأسه، ولولا حديدُ المغفر لقتلهُ لساعته، ولكنّ الله حاطه بعنايته؛ وكان صلاح الدين مالكاً أمْره، فأمسكه بيده، ولكن المجرم كان ذا بطش فأخذ يحاول

الطعن في رقبته بيدٍ، ويدُ صلاح الدين تعْصُرُ يَدَهُ الأخرى، حتى قدم جنده، فأخذوا هذا القاتل ليلقى حتفه، وأصيب البطل بعدّة خدوش جرى بها بعض الدم، ولكنها سارعت بالالتئام.

وقعت هذه الجريمة أمام قلعة (إعزاز)[1] ـ التي كانت تحت حصار الجند ـ، فقاومت عدة أيام، ويئس أهلها من الانتصار فتراسلوا بالصلح، فقبل صلاح الدين ما عرضوه من المسالمة، وقد فوجئ صلاح الدين بابنة نور الدين تتقدّم إليه وكانت من المحاصرين، وهي في سنّ العاشرة، فتلقّاها بالحبّ والإكرام، ومنحها المال والذهب، وسألها عما تريد، فقالت: «إنّ أهل إعزاز يُريدونها دون سلطان عليهم»، فابتسم صلاح الدين وقال: «وهبتُ البلدة لك أنت، فامنحيها لهم، وسألها عما تريد، فقالت: أحبّ أن أذهب إلى حلب جوار أسرتي، فأصرّ على أن يرافقها بنفسه إلى أسوار المدينة إكراماً لذكرى أبيها، وعادتْه أريحية التسامح بعد لقاء الفتاة الصغيرة، فأمرَ بفك الأسرى جميعهم، وقدّمَ العلاج لجرحاهم، وفيهم أناسٌ من علية القوم، فانقلبوا يشيدون بمروءته ويهتفون بذكره، ثم أغدق عليهم من الهدايا ما لم يكونوا يتوقعونه.

وهذا الموقف يحتاج إلى شاعر يصوره، وإلى عالم نفسي يحلّله! لقد كان البطل غاضباً على قومٍ ناوَؤُوه دون أن يبدي لهم عداء، ثم فوجئ بضربات غادرة كادت تفقده حياته لولا أن منّ الله

---

(١) وردت هكذا بالهمزة في أولها، وذكر ياقوت أنها تقرأ أيضاً بدون همزة، وروى شعراً في ذلك.

عليه، فنجا متأثراً ببعض الجروح، وكان في ذلك ما يُشعل فيه حمية الانتقام، ولكنه فُوجئ بطفلةٍ صغيرة هي ابنة سيّده العزيز، برزتْ له على غير انتظار، فحركت في صدره كوامنَ بعيدةَ القرار، يختلجُ بها حبٌّ وتقديرٌ ووفاءٌ لراحلٍ عزيز، كانَ قدوةَ صلاح الدين ومَثله الأعلى الكبير، فَذهَب عَن صدْره كل غضب، وأشرقتْ صفحةُ محيَّاه بالابتسام! وسألته الصغيرة شيئاً كبيراً جداً، هو أن يتْرك البلدة جميعها لأهلها دون والٍ يتبعه! وسرعانَ ما استجاب، حيث لم يرد أن ترجع الطفلة العزيزة خائبة الرجاء!! ورأى من كرامة والدها أن يذهب معها بنفسه لتصل آمنة إلى أسوار حلب.. أليس للمؤرخ أن يستعين بالشاعر في تصوير هذا الموقف النبيل.

وبعد: فهلْ سهلتْ مهمة صلاح الدين بعد انتصاره هذا؟ إن حزنه الكبير لتفرُّقَ كلمة المسلمين ومحاربة بعضهم بعضاً يُوازي حزنَه لتسلُّط الفرنجة على بيت المقدس وما والاه، والحلُّ الأمثل في رأيه ورأي مستشاريه أن يحاول جمع الإمارات الإسلامية كلّها صفاً واحداً تحت رعايته، لأن نشوزَ حاكمٍ واحد يدعُو غيره إلى تقليده، بل يدعوهُ إلى تَحالفٍ سيئ مع الفرنجة!

لقد عَرف صلاح الدين أنّ أكبر أعدائه في معركته مع الصليبيين هو ما يسمّى الآن (بالطابور الخامس)! هؤلاء الذين يُظهرون الولاء للقائد الباسل، وهم عيونٌ عليه لمن عادوه، ثم إنهم كَمُنافِقي المدينة في عهد الرسول ﷺ، لا يزالون يبغون الفتنة، ويبذُرون بواعث الشقاق، وهم أمام النّاس حريصون على نصْر

الإسلام، ثم يكونون عامل تثبيطٍ إذا جدّ الجدّ، وقدّ اضطّر صلاح الدين إلى جمع الحشود للنزال، وقد صدَق قول الله في هؤلاء، ومثلهم من خَلفهم في عهد صلاح الدين ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٦ـ٥٧].

أقول هذا ردّاً على من كتب سيرة صلاح الدين فقال: إن اهتمامه الكبير كان في توسيع سلطانه وامتدادِ نفوذه على حساب جيرانه، وقد حاربهم حتى اضطرّهم إلى الخضوع؛ مَع أنّ قراءة التاريخ قراءةً محايدة، تدلّ على أنه مدّ إليهم يد السلم عقب كل منازلة، ودعاهُم إلى الالتئام في معسكرٍ واحد تحت قيادته، ولكُلِّ أميرٍ بَلْدَته التي يستقل داخلياً بأمرها، فما وَفَّوْا بعهد، أو استكانوا إلى هدوء، وهكذا اضطُرّ صلاح الدين إلى منازلتهم اضطراراً، وتابع إخضاعهم عن يقين صادق بصواب ما يأتيه.

رجع صلاح الدين إلى مصر بعد أنْ أخذ العهود على من انتصر عليهم من الأمراء ألّا يخلُّوا بموثق، وكان بينه وبين الفرنجة هدنة ظنّ أنها ستحترم، ولكن القوم حين علموا انتقاله إلى مصر، زحفوا في كثرتهم الكاثرة إلى الشام، فلم يستطِيعُوا الاستيلاء على بَعلبك لشدة مقاومتها، فولّوا وجوههم نحو دمشق، فقاومتْ ما قاومت ثم انخذلت مَقهورَة، وجاءَ النبأ إلى صلاح الدين، فهُرع على غير استعداد تام إلى فلسطين الجنوبيّة عند الرملة، وكأن ملك القدس كان يعرف زحفَه السريع، فبادر بحشد قوّته جميعها لملاقاة

صلاح الدين، وإذا كانت الحرب سجالاً يومٌ لك ويوم عليك، فقد انهزم صلاح الدين، وكاد يقع أسيراً لولا أن أنجاه الله، وقد كَتب إلى أخيه شمس الدين توران شاه يقول له: «لقد أشرفْنا على الهلاك، وما نجّانا الله إلا لأمر يريده». ولم يجد بدّاً من الرجوع إلى مصر ليعدّ العدة التامة من جديد، فتمكّن في مدة ثلاثة أشهر من تهيئة الجيش.

وانتقل الخبر إلى الفرنجة فبادروا بمحاصرة (حارم)، ولم يكن لدى الملك الصالح ما يستطيع به المقاومة، فعَرض عليهم مالاً جزيلاً ليرحلوا عنها، فرحلُوا إلى حين، وقد فُوجئ صلاح الدين ببناء قلعةٍ صليبيّة بالقُرب من سهل بهناس لدى مكانٍ يسمّى (مَخاضة الأحزان)، وكانَ منطقةَ حرامٍ متفقٍ عليها بين الطرفين، ولكنّهمْ لم يرعوا ذمّةً لعهد، وصلاح الدين يعرفُ خطر القِلاَع في اكتساب النصر، لأنّها تحمي الجيش، وتصون الذخيرة، وتُطيل أمد المقاومة، فصبر على غيظ.

وقد اغترّ صاحبُ القلعة (بلدوين الرابع) بما لديه من مددٍ حربي، فزحفَ بجيشه على دمشق، وعجّل صلاح الدين بإرسال ابن أخيه الأمير فرُّوخ شاه لمنازلته على رأسِ جَيْشٍ مدرَّب مستعد، فصبر وجاهد حتى كسب النصر، وكاد (بلدوين) يقع أسيراً لولا أنه تَنكَّر في ثياب السّوقة وفرّ هارباً، فرّ هارباً ليجمع جيشاً آخر يقاوم جيش صلاح الدين حيثُ يقيم.

وقد كان البطل الباسل محاصراً القلعة (مخاضة الأحزان) حيث صمَّم على إزالتها ونهْب ما تحتويه، فتمّ له ذلك، وعزّ على

(بلدوين) أن يُطرد من القلعة وأن تُصبح أطلالاً دارسة بعد أن تكبّد في تشييدها ما تكبّد، فجمع جيشاً عَاونه فيه زملاؤه من أمراء الفرنجة، وسارَ من صَفد إلى الأردن نازلاً (بمرج العيون)، حيث دارت معركة حامية انتهت بانتصار المسلمين؛ وبعضُ الذين يتحفَّظون في تقدير ما كَسَبتْه المعارك وما خسرته يقولون إن قيمة المعركة الحقيقية ليستْ في نتيجتها، ولكن في أسرِ أمراء الصليبيين من كبار القادة، ومنهم (ريموند) صاحب طرابلس، و(بلدوين) صاحب الرملة، و(حوج) صاحب طبرية! وليت شعري إذا انتهت المعركة بأسر هؤلاء الكبار ووراءهم زحوفٌ من أتباعهم، فكيف لا تكون ذات شأن جبّار، لا سيما وقد اضطرّ هؤلاء أن يفتدوا أنفسهم بما لم يستطعْ كاتب صلاح الدين إحصاءه إلا بعد جهد شديد، على أن أسْـر هؤلاء لا بد أنه قد أتى عقب معركة طاحنة مستميتة، فلِمَ نحاول تهوينها؟!.

وقد كان تخريب قلعة (مخاضة الأحزان) وهزيمةُ موقعة (مرج العيون) سبباً لانهيارٍ نفسي في صفوف الجيش الصليبي، فرأى المهزومون أن يعقدوا هدنة جديدة تمتد عامَيْن! وخالَف في ذلك صاحب طرابلس، فاكتفى بتقديم الفداء دون اشتراط، وأسرَّها صلاح الدين في نفسه، وبعضُ الناس يلومونه أن أطلق سراح من لم يوقِّع على الهدنة، إذ ليس ذلك من الحكمة الحصيفة، وفاتَهُم أن صلاح الدين يعلمُ في أعماقه أنّ معاهدة هؤلاء لا تخرج عن كونها حبراً على ورق! وأنّ صاحب طرابلس كانَ أصدق منهم، لأنه أفصح عن نفسه دون كيد مستتر، فهو أكرم ممن يعاهدون ويغدرون.

وقد انصرَف البطل إلى معارك جانبيّة مع صاحِب أرمينيا، ومع (قليج أرسلان) كُلّلت بالنجاح، وتركتْ له صدىً هائلاً في ربوع بلاد الشام، فهرع الجميع إلى محالفته ومن بينهم صاحب الموصل وصاحب الجزيرة، وأربل وكيفيا وسلطان قونيا وملك أرمينيا وغيرهم، يقول الدكتور أحمد البيلي[1]: «ومن هذه المحالفة ندرك ما وصل إليه السلطان صلاح الدين من المركز الكبير الهامّ، وما وصلت إليه قوّته، حيث انتشرَ اسمُه فيما بين البحر الأسود وخليج فارس شرقاً، والبحر الأبيض المتوسط غرباً، كما أن هذه المحالفات دلَّت دلالة واضحة على إمكان جمع هذه الإمارات، والدخول بها مع الفرنج في حرب دينيّة مقدسة، كما كانت بلا شك الحجر الأول الذي وُضع للحروب القادمة مع الفرنج».

ولا يُنتظر في دنيا السياسة أن تسير الأمور على نهج واحد، لأنّ الأطماع الذاتية ليست وليدة استجابة عقلية تأمر بالخير وتنهى عن الشر، ولكنّها تخضع لانفعالات عاطفية تجد تأثيرها الحادّ عند الأقزام أكثر مما تجد هذا التأثير عند العمالقة! لقد أنهى صلاح الدين دوراً كبيراً من جهاده فاطمأن على ما قدَّم، وبادر بالرحيل إلى مصر، فقد طال عهده بالاغتراب عنها، رحل إلى مصر وفي خاطره أنه سيعود.

* * *

(١) صلاح الدين الأيوبي، للدكتور البيلي، (ص ١٤٢).

إصلاحات داخلية

لم يكن صلاح الدين قائداً حربياً فحسب، ولكنه كان قائداً إدارياً يُلمّ بمرافق الدولة جميعها، ويُعين لها الأكفاء الممتازين من نوابغ الرجال، وكانَ حَسَنَ الفراسة فيمن حوله، فهوِ يزن معارفه وزْناً دقيقاً، ويضع كل رجلٍ من رجاله موضعه المناسب لمواهبه، ومن حُسن حظّه أن زمانه قد سَمَحَ له بوجود رجالٍ أقوياء يجمعون إلى الإخلاص: الصبر على العمل، وانتقاء أيسر السبل لإتقانه؛ ومن هؤلاء العاملين العظام القاضي الفاضل في مجال التعليم، وحسام الدين لؤلؤ في قيادة الأساطيل وبنائها، وبهاء الدين قَرَقوش في بناء الأسوار والقناطر المائية، وغيرهم ممن لا نحيط بهم على درجة التحديد من أمراء دولته، وأفضلهم من أسرته المقربين.

ففي مجال التعليم بذلَ الأموال الطائلة في بناء المدارس والخوانق والمساجد، حيث كانت حافلةً بحلقات الدرس، ولو لم يُشغَل بالحروب الطاحنة لازدهر عهده بأعلام الفكر كما ازدهرَ عهدُ الرشيد والمأمون، ولكنّه على جهده الجاهد في حروب الفرنجة كانت له فلسفةٌ خاصة في اتجاه التعليم، إذ رأى أن يكون فقهُ أهل السنّة منتشراً بعد انتهاء العهد الفاطمي، فبادرَ بإنشاء المدارس

الدينيّة على أشمل وجه وأسرعه، وقد أنشئت في عهد الخلافة الفاطمية مدارسُ معدودة في القاهرة والإسكندرية، أمّا في العهد الأيوبي فقد امتدّت المدارس إلى غيرهما، وقد أحصى المقريزي أربعاً وعشرين مدرسة أُنشئت بالقاهرة وحدها لعهده، وكَتَبَ الأستاذ المستشرق (كريسويل) بحثاً مُفصّلاً عن هذه المدارس في كتابه عن العمارة الإسلامية في مصر، وكان شَغَفُ صلاح الدين بتدريس الفقه السنّي مصدر اهتمامه حتى قبل سقوط الخلافة الفاطمية. وينقل الدكتور أحمد فكري في كتابه (مساجد القاهرة ومدارسها)[١] عن المقريزي ما يلي ببعض التصرف:

«روى المقريزي أنّ صلاح الدين أنشأ في سنة (٥٦٦هـ) عندما كان وزيراً للخليفة العاضد، مدرسةً أمر ببنائها بجوار مسجد عمرو، عُرفت أولَ الأمر بالمدرسة الناصرية، وعُرفت بعد ذلك بمدرسة (ابن زين النجار) ثم عُرفت بالمدرسة الشريفة، وكانت برسم الشافعية، كما كانت أول مدرسة عُملت بديار مصر ـ لتدريس الفقه السني ـ، وشَرع صلاح الدين في السنة نفسها بإنشاء مدرسةٍ أخرى لفقهاء المالكية بجوار المسجد العتيق ـ مسجد عمرو ـ، وسمّيت المدرسة القمْحية لكثرة غلّة القمح التي كانت تدُرُّه أوقافها.

وفي سنة (٥٧٠هـ) أنشأَ قُطب الدين خسرو ـ وهو أحدُ أُمراء صلاح الدين ـ مدرسةً بالقاهرة سمّيت بالمدرسة القطبية نسبةً إلى

---

(١) مساجد القاهرة ومدارسها، للدكتور أحمد فكري، (٢/ ٥٠).

منشئها، ووقفها على الفقهاء الشافعيّة، وفي نفس السنة أُنشئت مدرسة ابن الأرسوفي باسم صاحبها التاجر العسقلاني، وكان موقع هذه المدرسة بمصر الفسطاط، وأوقف صلاحُ الدين في سنة (٥٧٢هـ) مدرسةً على فقهاء المذهب الحنفي، وكانت من جملة دار الوزير المأمون البطائحي وعُرفت بالمدرسة اليوسفية، من أجل أن سوق اليوسفيين كان يومئذٍ على بابها، وهذه المدرسة كانت أولَ مدرسة وُقفتْ على الحنفية بديار مصر».

ومضى صاحب كتاب (مساجد القاهرة ومدارسها) يُشير إلى أسماءِ مدارس أخرى كمدرسة الخبوشاني، ومدرسة التقويّة، وهذا يدل على اهتمام الملك الناصر بحركةٍ تعليميّةٍ كبرى تغطّي مساحاتٍ كبيرة من مصر، كما يدل على أنّ الأعيان من الأمراء والتجّار قد أسهموا في هذا النشاط التعليمي حبّاً في العلم، أو تقرُّباً إلى الحاكم.

ولا شكّ أن القاضي الفاضل الفقيه العالم الأديب كانَ له أكبرُ الفضل في اتّجاه صلاح الدين، وقد بدأ فَبنى مدرسةً بجوار داره كانت فريدةً في بابها، لأنها جُعلت لتدريس الفقه المالكي والفقه الشافعي معاً، والعهدُ بِكلِّ مدرسةٍ ممن ذكرنا أن تَستقلّ بمذهبٍ واحد، كَما جَعل في هذه المدرسة قاعةً للإقراءِ، أي لإقراء كتاب الله بالقراءات السبع، وأسنَد أستاذيّتها إلى الإمام الشاطبي عَلَم الأعلام في فن القراءات.

وقد زاد القاضي فضمّ إلى هذه المدرسة الفسيحة ذاتِ الشُّعَب

المتعدّدة جُملةً عظيمة من الكتب النادرة في سائر العلوم، يُقال: إنها بَلغتْ مئة ألف مجلد! وبها مصحفٌ كبير جداً مكتوبٌ بالخطّ الكوفي يَسمّيه الناس (مصحف عثمان)، وقد أُفرد في مكانٍ خاص بجانب المحراب في إطارٍ زجاجيٍّ، فكانَ الناس يتبرَّكون برؤيته، ومن يَقدِرُ عَلَى أن يقنِعَ المسؤول بالقراءِة فيه أمداً قصيراً عَدَّ ذلك غَنيمةً كبرى حظي بها، وأخذَ يفاخر بأنه قرأَ في مصحف عثمان.

وقد عُرِفت مدرسة القاضي الفاضل بالمدرسة الفاضلية، نسبةً إليه، وإنّ مدرسة تضم مئة ألف مجلّد علميّ لتُعطي دلالةً على الثروة العلمية التي وُجدت في هذه المؤلفات، كما تدلّ على أن ما قيل أنّ صلاح الدين أَحْرق كلَّ الكتب الخاصة بمكتبات الخُلفاء مبَالَغٌ فيه إلى حدٍّ لا يُصدَّق، إذ كَيف تجمعُ مدرسة واحدة ـ وهي مدرسة الفاضل ـ: مئة ألف مجلد!! مع أن القاضي قريبُ العهد جداً بزَمنِ الإحراق المزعومِ، وطبيعيٌّ أن تكون لكل مدرسة مجلداتٌ أخرى، وإن لم تبلغ مبلغَ مدرسةِ القاضي، مما يعصف بكثير من الأكاذيب.

وقد قال الأستاذ محمد فريد أبو حديد[1]: «إنّ من الخطأ أن نظنّ أن صلاح الدين قد أدخلَ المدارس بمعناها الحديث، لأنها اقتصرت على العلم الدينيّ فقط، أمّا التعليم الصناعي وغيرُه من العلوم المادية ذات الصلة بالحياة فلم يكنْ ذا شأن في هذه المدارس، وهذا لا يؤخذُ به صلاح الدين، لأن التعليم في هذه العصور بكل مكان كانَ خاصّاً بالعلوم الدينيّة بالمدارس الرسمية،

---

(١) صلاح الدين الأيوبي، للأستاذ أبي حديد، (ص ١٢٦) وما بعدها.

أما الاتجاهُ إلى العلوم الأخرى فأمرٌ عَرفتْه العصور التالية، وليسَ معنى هذا أنّ هذه العصور لم تَعرف أساطين كباراً في الطب والهندسة والجبر وسائر العلوم، بل معناه أنّ دراسة هذه العلوم كانت محصورةً في أساتذة يجمعون حولهم نفراً من التلاميذ الموهوبين، وقد لا يكونُ للأستاذ أكثرَ من تلميذ يحمل عنه علمَه.

على أنّ صلاح الدين قد أنشأَ البيمارستان وزوّدَه بأشهر الأطباء، وأنفق عن سعةٍ في بنائه وإحضار أدوات العلاج، مما يدل على أن مسائل الطب والصيدلة وما تطلبهُ من حساباتٍ دقيقة في تقدير العلاج كانت موضع الرسوخ من أساتذةٍ كبارٍ، ولكنهم لم يجلسوا في مدارسَ ذاتِ حلقاتٍ! ودراسةُ مسائلِ الفقه في مذاهبه المختلفة خَلَقتْ وعياً إسلاميّاً كبيراً بالقانون لم يوجد مثلُه في أوروبا حينذاك، لأن الفقهاء لا يدرِّسون لطلابهم في هذه المدارس مسائل العبادات من طهارة وصلاة وزكاة وصيام وحج فقط، بل يدرسون أبواب المعاملات من بيْع ورَهْن وحَجْر وشفعة وربا وخَيار وزراعة وإجارة، كما يدرسون مسائل الأحوال الشخصية من زواج وطلاقٍ وميراث، ومسائل الحدود الخاصة بالقتل والفساد في الأرض والزنا والسرقة وشرب الخمر، وإنّ إلمام الطالب بالقانون الإسلامي في شتّى فروعه لهو مصدر تنويرٍ ساطع، وتمييزٍ للحلال والحرام، وتلك ثقافة ممتازة لها أثرها البعيد.

ننتقل إلى الناحية المعمارية، لاسيما في مصر، التي اهتمّ بها صلاح الدين كثيراً، فقد أخذت نصيباً كبيراً من جهده، لأنها في

صميمها تتّجه إلى صيانة مصر من الهجوم الصليبي، وكان أول ما اتجهت إليه همّته هو إعادة بناء سور القاهرة الذي بناهُ جوهر الصِّقلي من اللَّبِن عند قيامه بالأمر في القاهرة، ثم أتت عليه العوادي فاضطرّ بدر الدين الجمالي إلى ترميمه من جديد، ولكنْ من الطوب اللّبِني أيضاً، حتى إذا كان العهد الأيوبي، عَرف صلاح الدين قيمة هذا السور في الدفاع عن العاصمة، إذ لاحظ فجواتٍ كبيرةً تخترقه، وهذه الفجوات تسمحُ بعبور الجيوش المهاجمة بمعدَّاتها الثقيلة، وكانت الصلةُ بين الفسطاط والقاهرة مقطوعةً، فأراد صلاح الدين أن يجْمع العاصمة القديمة مع العاصمة الحديثة داخل سورٍ واحد، ليملأَ الفضاء الشاسع الذي كان مبسوطاً بينهما بمختلف وسائل العمران، وهو بذلكَ يرمي إلى غرَضَين كبيرَين: أولهُما تحصينُ العاصمة أمام الحملات المحتمَلة من الصليبيّين، وثانيهما إقامة قلعة داخل السور تحمي السلطان وجنوده في ساعة الخطر، إذا همّت ثورةٌ داخلية بالعصيان.

ولم تكن القِلاعُ معروفةً لدى المصريين، ولكنها منتشرةٌ في الشام، وقد ساعدتْ على احتماء من يلُوذ بها سواء كان مسلماً أو صليبياً، كما أدى بأن يكون ما حول القلعة عامراً بالأسواق والمتاجر، وقد وَكّل بتنفيذ بناء السور والقلعة أحد أمرائه المشهورين بالصرامة والجد، وهو بهاء الدين قَرَقوش الأسدي، وكانَ الرجل ذاَ قدرةٍ على العمل الجاد صباحَ مساء، حتى لكأنه خُلِقَ من حديدٍ لا من دَم ولحم، وقد حَمَل بأسَه على مَعاونيه، فكان يُرهقهم إرهاقاً شاقاً، حتى ضُرب به المثل في الشدّة القاسية،

فأصبحَ (حكم قرقوش) في المثل العامي دالاًّ على الظلم والاضطهاد، وهي دلالةٌ ليست صحيحة، إذ فرقٌ واضحٌ بين الظّلم الذي يغصبُ الناسَ حقوقهم، والجدّ الذي يدفع إلى العمل الكادح.

ولا أنكر أنّ الأمير قرقوش كان يحتاج إلى رأْفةِ صلاخ الدين وحنانه ليُريحَ من ينفّذون أمره، ولعلّه نظر إلى أنّ أكثر العمال من أسرى الصليبيين وعددُهم ستّون ألفاً، فآثر أن يشغلهم طيلة اليوم، وهذا غير جائز، لأنّ للأسير في حُكم الإسلام حظّهُ من الراحة والاطمئنان، والمعاملة بالتي هي أحسن.

وقد أتمّ قرقوش ما نيط به في ستة أعوام لم يهدأ فيها العمل الجادّ ليل نهار، حيث كانت المصابيح تُضيء فوق الأسوار لتُري العاملين مسالك الطريق، وفي سبيل إعداد هذا العمل الضخم في وقته القصير، أمَر قرقوش بهدم عددٍ كبير من الأهرامات الصغيرة التي كانت بالجيزة، كما أزال ما اعترض الطريق منها إلى السور من أبنية عامرة، وفيها المنازلُ والمساجد، فضلاً عن الأضرحة والقبور.

ولصلاح الدين فَضْل حين جعل القاهرة مأوى للخاصّة والعامة من أبناء البلاد، لأنّ من سبقه من الحكام كانوا يبنون ديارهم في حيّز مستقلّ عُرِف بالقطائع أو العسكر، فلا يسمحون لغير الحرّاس من الجند أن يقيموا في هذه العواصم المستحدَثة.

ولم تتمّ القلعة على وضعها النهائي في عهد صلاح الدين، ولكنها اكتملت في عهد الكامل حينَ جعلها مقرّاً لسُلطته، ولم تكن

القلعة وحدها موضع اهتمام صلاح الدين، إذ أمر قرقوش ببناءِ عدّة قناطر على النيل بالجيزة، فكانت كجبلٍ ممتد فوق الماء، لأنّ أحجار الأهرام قد كانت موادّ هذه القناطر، ثم بنى برجاً في شمال القاهرة، ثم بالمقْس ـ نسبة إلى الماقس وهو جابي الضرائب ـ، وكان البرج من الاتساع والارتفاع بحيث أصبحَ قلعةً أخرى أطلق عليها العامة قلعة قرقوش، في حين أُطلق على القلعة الأولى اسم صلاح الدين.

ولم تكن القاهرة موضعَ اهتمام الملك الناصر فقط، بل تَعدّاها إلى الثغور التي تفدُ إليها سفن الأعداء، وقد عرف قيمة تحصين هذه الثغور عندَ محاصرته بالإسكندرية في المرّة الأولى، وعند هجوم الحملة الصليبية على دمياط غِبَّ تملّكه الوزارة بعد أسد الدين، وقد كانت دمياط في العهد الفاطمي داراً لصناعة السفن الحربيّة، وعُرفت من ذلك الوقت بجودة الصناعة حتى الآن، فأهلُها مَهَرة من خيرة الصناع، وقد انتقل إليها صلاح الدين فور حكمه فجهزها بالسلاسل الحديدية الواقية، لأن هذه السلاسل هي التي عاقت جنود الحملة المشار إليها من اقتحام المدينة حينئذ، إذ كانتْ تُشدّ بين بُرجيْن ضخمين من الحجر الصوّان كيْلا تُضعفها السلاسل المشدودة إليها، وقد ضعفت السلاسل فعمل على تقويتها، ولم يغفل عن سور دمياط، إذ رأى أن يُرمّم ليكون حامياً للمدينة عند الهجوم المباغت، وجميعُ ذلك يتطلّب جهداً جسمياً، وذخيرةً مالية كبرى، لم يشأ الملك الناصر أن يضنّ بهما، لأن أدواتِ الدفاع في المحلّ الأول من تفكيره السليم.

أما الإسكندرية فقد وجدت من اهتمام البطل جهداً مضاعفاً، وقد أَمَر برمي أكثر من أربعمئة عمودٍ من الأعمدة الرومانية الضخمة المحيطة بالبحر الأبيض في الماء، لتكون عائقاً للسفن المهاجمة، فتعوقُ العدو عن الانتقال إلى الشاطئ، وانتقل إلى الأسوار بالمدينة فجدّدها وأحاطها بالخنادق، ولم يكتفِ بمباشرةِ عامله قرقوش على العمل، بل ترك القاهرة إلى الإسكندرية ليشرفَ على التنفيذ بخبرته العملية، وكذلك فعل بدمياط حيثُ وَالَى الإشراف بنفسه رَدحاً من الزمن، وقد بلغَ ما أنفقه من التحصينات في دمياط وحدها مليون دينار، وما أنفق في تحصينات الإسكندرية أكثرُ، لامتداد رُقْعتها، وضعف سورها الذي تكلّف كثيراً في ترميمه واستعادة قوّته.

وبامتدادِ نظره الحربي الواعي انتقل إلى شبه جزيرة سيناء، فأنشأَ مراكز الحراسة بها، وقد كلّفه ذلك جهداً كبيراً، لأن هذه المنطقة الصحراوية هي التي تفصلُ بين مصر والفرنجة في بيت المقدس، وعن طريقها هَجمَت جيوش الفرنجة، فلا بدَّ من حمايتها بالقلاع الضخمة، وهذا ما فعله؛ مما أرعب الصليبيّين!!.

ولا أحبُ في هذا المقام أن أغفل كفاح قرقوش في أكثر ما تحدثتُ عنه، لأن العامة لدينا ظلموه إذ اعتبروه في أقوالهم مضرب المثل في الحُكم الظالم، كما أشرتُ من قبل، وفي كلامِ ابن خلّكان عنهُ ما يكفي لإنصافه، حيث قال عنه[1]:

---

(١) وفيات الأعيان: (٣/ ٢٥٤)، تحقيق محي الدين عبد الحميد.

«ولما استقلّ صلاح الدين بالديار المصرية جعلَه زمامَ القصر، ثم نابَ عنه مُدةً بالديار المصرية، وفوّض أمورَها إليه، واعتمدَ في تدبير أحوالها عليه، كانَ رجلاً مسعوداً وصاحب همّة عالية، وهو الذي بنى السور المحيط بالقاهرة ومصر وما بينهما، وبنى قلعة الجبل، وبنَى القناطر التي بالجيزة على طريق الأهرام، وهي آثارٌ دالّة على علو الهمّة، وعَمّر بالمقس رباطاً، وعلى باب الفتوح بظاهر القاهرة خان سبيل، ولهُ وقف كثير لا يُعرف مَصرفه، وكان حسن المقصد جميل النيّة... وكانَ له حقوقٌ كثيرة على الإسلام والسلطان والمسلمين، والناسُ ينسبون إليه أحكاماً عجيبة في ولايته، حتى إن الأسعد بن مماتي له جزءٌ لطيف سماه (القاشوش في أحكام قرقوش)، وفيه أشياءُ يبعدُ وقوعها من مثله، والظاهر أنها موضوعة، فإن صلاح الدين كان معتمداً في أحوال المملكة عليه، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوّضها إليه».

أمّا الاهتمام بإعداد الأسطول البحري، فقد كانَ من مهام صلاح الدين التي شغلت باله، حيث أمر بإعداد السفن الحربيّة الكافية لمنازلة العدو حين اعتدّ بقدرته المتفوِّقة في هذا المجال، وقد كان لمصر أسطول بحري في العصر الفاطمي أدَّى دوره القتالي بنجاح، ثم أُصيب بكارثةٍ أليمة لا من الأعداء، بل من وزير مصر الحاكم بأمره، إذ خاف (شاور) أن يستولي عليه (أموري) ملك بيت المقدس، وبَدل أن يعمل على تقويتِه وإنمائه أحرقَ جزءاً كبيراً منه، وجَاء العبيدُ فنهبوا ما بقي من حطامه! وهكذا تُحرق الفسطاط تارة،

ويُحرق الأسطول تارة أخرى على يد شاور!!.

فلما حُوصرت الإسكندرية على عهد صلاح الدين وجد الأسطول ضرورةً ملزمة، لا لوقاية الإسكندرية فحسب، بل للهجوم على أعدائه في موانئ الشام، فأَمَر حسام الدين لؤلؤ بالإشراف على تهيئة الأسطول الحربي، آخذاً ما يعنّ له من أشجار البلاد ومواد البناء الحربي، كما بحث عن مَهَرة الصنَّاع في الدولة فجعلهم تحت إمرة حسام الدين، وخصّص للأسطول إقطاعاً خاصاً، وموارِدَ زراعيّة يكون نتاجها خالصاً لتعميره، وأعطَى لحسام الدين سلطة مميزة بين رجال الدولة، حيثُ جعل قولَه لا يُردّ في كل ما يطلب، وقد اهتمَّ حسامُ الدين بما كُلّف به، وواصل العمل حتى بلغت قِطَع الأسطول مبلغاً أورث الأعداء الذعر، وظَهرت باكورة نشاطه في معركة (مرجِ عيون)، حيث قاوم حسام الدين أسطول الفرنجة، فحطّم بعضَ سفنه، وغنم سفينتين كبيرتين تحملان أكياسَ الذهب مع ما تحمل من عدد القتلى، ورأى صلاحُ الدين أن يفرّق هذا الذهب على المقاتلين في عرض الماء، فأصابهم خيرٌ كثير، كما دفع إلى الصناع ما ملأ جيوبهم بالدنانير، حتى قال صاحب الروضتين[1]: «لقد ظفر بالمال أناسٌ كانت وجوههم لا تعرف وَجْه الدرهم، ولا عين الدينار».

وقد تعرَّض الأسطول لهزيمة في بلدة صور كانت موضعَ الألم للمسلمين، ولكنّه لم يلبثْ أن استعاد نشاطه في معركة عكا، حيث

(١) الروضتين: (٢/ ١١).

أسرع لؤلؤ بخمسين سفينة حربية إلى أسطول الفرنجة فبدّده ـ كما سيأتي تفصيل ذلك في حديث خاص بأمير البحر ـ، وغَنِم ما فيه وانتقلتْ جنودُه إلى المدينة المحاصرة، فقدّمت الزاد والسلاح، فقويت نفوس أهل عكّا بنجاح الأسطول، وقوي جنانهم[1]، وفزع الصليبيون فجمَّعوا كل سفنهم لمنازلة الأسطول المصري، ولكنّ المعركة انتهت بانتصاره الحاسم، ثم غَنم مركباً وصل لإنقاذ الفرنجة في المعركة بعد انتهائها، غَنِمه بما فيه وَمَنْ فيه.

ومضت أيامٌ وتجدّد القتال البحري بعد وُصول سفن كثيرة من أوروبا، استطاعُوا بها أن يُحاصروا عكّا، فلا تستطيع المؤونة أنْ تصل إلى أبنائها، وأدركت حسام الدين حيلته فأعدّ سفينة كبرى، وأمرَ رجاله بأن يَلبسوا لِباس الصليبيين، وأن يحلقوا لحاهم، ويُعلّقوا الصلبان، فظنّ قادة الفرنجة في الأسطول أنّ القادمين إخوانهم، وتركوا السفينة تسير نحو بيت المقدس، فاتّجهت إلى عكا بما تحمل من زاد، وفكّتْ كربةَ المحاصرين الذين أعوزهم الطعام والشراب، وتكرَّر ذَلك حتى فطِن الفرنجة إلى حصافة التدبير، ودارت معَركةٌ امتدت وقتاً طويلاً في حساب الكرّ والصيال.

وللأسطول جهادُه الشاق في كل موقف، ومن أظهر مواقفه انتصاره على الأسطول الإفرنجي حين قدم في عدة هائلة تتعقَّب حجَّاج بيت الله، ولم يكتفِ بسلب ما يحملون، بل أعمَل السيف

---

(١) الكامل لابن الأثير: (١٢/ ٢٠).

تقْتيلاً وذبْحاً للعزّل المسافرين، وكانت غضبةُ صلاح الدين على (أرناط) صاحب الكَرك الذي تولّى ذلك ـ ذاتَ غيظٍ وحفيظة، فأورده مورد الوبال بعد أن تَمكّن منه في موقعة قادمة، لأنه أهان رسول الله ﷺ بقولٍ ساقط قفّ له شعر صلاح الدين، وأقسم أن ينتقم، وقد كان!.

هذا بعض جهاد الأسطول، وإذا كان ابن خلّكان قد أنصف بهاء الدين قرقوش بما نقلْته عنه من قبل، فلي أن أُنصف حسام الدين لؤلؤ، فأنقل للقارئ قصّة عنه كتبتها تحت عنوان (أمير البحر) وهي في الصميم من تاريخ صلاح الدين.

* * *

إلى الشام من جديد

ما طالعتُ صنوف المصاعب التي كابدها صلاح الدين في حياته الحافلة بالأهوال إلاّ تذكرت قول أبي تمام:

قـد علِمْنـا أنْ ليـس إلاّ بشـقّ — النفس صار العظيم يدعى عظيماً
طلبُ المجدِ يُورِثُ المرءَ خَبْلاً — وهمومـاً تُقَضْقِضُ الحَيْزومـا
فتـراهُ وهـو الخلـيّ شجيّـاً — وتـراه وهـو الصحيـحُ سقيمـا
تيّمتـه العُلـى فليـس يَعُـدُّ — البؤسَ بؤساً ولا النعيم نعيما
كـلّ حـالٍ تَلقـاه فيهـا ولكـن — ليس يُلفَى في حالة مَذْموما

ذلك لأن صلاح الدين منذُ وُلِّي وزارة العاضد لم يبتْ ليلةً واحدة مستريحاً، فأعداؤه يحوطونه من كل جانب، أعداءٌ بارزون يَعرفهم بعدائهم السافر حين خرجوا من ديارهم آثمين مُفْتَرين، وأعداءٌ متستّرون، منهم حُلفاؤه من المسلمين، يُظهرون الودّ ويبطنون الكيد، ومنهم أقرباؤُه من بني عمه وبني أبيه، إذ ينغّصون عليه مجده، ويرون أنهم أحقّ به منه، مع أنّ أباهم أيوبَ نفسه قد رأى نَجلَه أحقّ بالمجد منه، وارْتَضَى أن يعمل تحت رايته، لأنّ حنانَ الأبوة لم يَدعْ مجالاً للمنافسة، أمّا قُرْبى الأخوة والعمومة فسهلٌ أن تنفصم عراها لدى الأنانيّين.

لم يكد صلاح الدين يرجعُ من الشام ليستقرّ في مصر، حتى أحسَّ بالقلق يأخذ عليه مضجعه إذا نام، فيبيت متقلّباً على الشوك، ويغيم وجهُ الأفق في عينيه إذا قام، فلا يرى الصبح مشرقاً بل قاتماً، وقد حسب ظنوناً خالَها بفراسته الوقّادة دانيةَ الوقوع، ظنوناً لم تَهبّ من ناحيةٍ واحدة، بل من ناحيتين متعارضتيْن، لأن الذين عاهدهم من المسلمين في الشام كانوا يسرّون حَسداً في ارتغاء. وفيهم من يظنّ أنّ صلاح الدين قد اغتصب إرثه، مع أنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، كما أنّ الذين هادنهم من الفرنجة قد هالهم أن تُصبحَ الشام ومصر معاً تحتَ راية صلاح الدين، وقد كان نور الدين في الشام وحده يسقيهم المرّ الزّعاف، وهو رجل اطمئنانٍ واتِّئادٍ، فماذا يكون شأنهم مع صلاح الدين وقد ضمّ الشام إلى مصر، وهو رجُل تَوثّبٍ وإسراع، أفيسكتون حتى يدهمهم بخيله ورَجِلِه إذ يظنّ بهم الضّعف الواهن، أم يظهرون له العداء السّافر حين يحتلون دياره قريباً من مصر، فيعلم أن القوم لا يخْفلون بمهادنته، وأنَّهم على استعداد لمواجهته، لأنّ البحر يقذفُ إليهم بالسلاح والقوة والرجال! وقد كثُر الوافدون من المتعطِّشين للنزال. . فلا بد أن يبدأ القتال!!.

وهذا إجمالٌ يحتاجُ إلى تفصيل يوضح جليّة هذه الظنون التي تلبَّستْ صلاح الدين، إذ أثبتت الأيام أنها صارت حقاً واقعاً، فمن ناحية المتطلِّعين إلى مزاحمته من المسلمين، أُتيحتْ لهم فرصةٌ عاجلة، إذ مات في وقتين متقاربين سيفُ الدين غازي صاحب

الموصل، والملك الصالح إسماعيل بن نور الدين صاحب حلب، وكلاهما كان يضيق في سرّه بصلاح الدين، ويعتقد أن جمهوره الإسلامي سيدعوه إلى السيطرة على العالم الإسلامي في الأمة العربية، وقد عبّرا عن هذا الضيق حين كَتَبَا وصيتين متشابهتين تماماً؛ فالوصية الأولى كتبها سيف الدين غازي لتنصّ على أن مُلك الموصل من بعده لأخيه عز الدين مسعود، لا لأحدٍ من ولديه، لأنهما كانا صغيرين فاكتفى بحيازتهما لبلدين متواضعين تحت رعاية عز الدين، فكأنه حَوىَ الميراث جميعه. ولعلَّ صدى هذه الوصية قد انتقل إلى الملك الصالح في الأيام الأخيرة من مرضه، فآثر أن يكتب وصيّته لعز الدين مسعود أيضاً، وكأنه رأى أن امتلاكه هذا الإقليم الأساسي من بلاد الشام مُضافاً إلى إرث سيف الدين سيجعله خطراً قوياً يهدّد صلاح الدين، فتعود الشام لآل زنكي كما كانت في عهد نور الدين.

وما كاد الملك الصالح يفارق الحياة، وتأتي الأنباء لعز الدين مسعود بالوصية، حتى خفَّ إلى حلب ليكون بطل المواجهة القريبة، وقد علم من عيونه أن السلطان سيغادر مصر إلى الشام، وهو يعرف مَن صلاح الدين؟ فأدركه الوَجَل من لقائه، واستدعى أخاه عماد الدين صاحب سنجار كي يكون صاحب حلب، على أن يحلّ محلّه في سنجار، وهذا ما رحَّب به عماد الدين، فاعتقد أن القدر سيقف معه، لأن الشاميين يعرفون أنه أصيلٌ لا دخيل، فالبلد بلد أبيه، وصلاحُ الدين لم يزدْ عن كونه جندياً من جنوده، وهذا ما يبتعد به عن أيّ حقٍّ في السيطرة على حلب!.

وقد نسي هؤلاء أن صلاح الدين قد تعاقد مع الرّاحلين والباقين من حكّام المدن الزنكية من قبل؛ على أن يكون الحُكم لهم تحت رعايته فحسب، ضماناً لهم أن يلتزموا بالوقوف معه أمام الزحف الصليبي، وما كان لأحد منهم أن يسدَّ مسدّه إذا ترك لهم الشام واكتفى بمصر.

دارت هذه الأحداث سريعةً متتالية، وجاءت أنباؤها إلى صلاح الدين، ثم جاءه ما هو أدهى وأفدح؛ جاءه أنَّ بعض حلفائه هؤلاء قد حالفوا الفرنجة والباطنية، ليعملوا صفَّاً واحداً ضدَّ صلاح الدين! وما أشدّ ابتهاج الصليبيين بما قدَّمه هؤلاء لهم من الولاء، وإذن فمن الحتم أن يرحل إلى الشام، وقد صعُب على كثير من مُحبِّيه في مصر أن تُزعجه الأحداث عنهم، فأقاموا له حفلاً توديعياً كان آخر عهده بوادي النيل. ولا أدري لماذا أوحى الله لبعض معلّمي أولاده أن يخاطبه بقول الشاعر:

تمتعْ من شميم عِرار نَجْد ... فما بعد العشيّة من عرار

وهو استشهاد يبعث على التشاؤم، فقد انقبض له صدر صلاح الدين، وحين جُوبِه المعلم بالإنْكار الصائب لما نطق به؛ قال إنه يريد أنّه سيبتعد بعض الوقت فقط، فلْيتمتّع بنسيم مصر، والمسألة مسألة ذوق، والذوق شيء ليس في الكتب، ومن المؤسف أنّ صلاح الدين قد ذهب كيلا يعود..

سار صلاح الدين إلى دمشق، ومعه الحشود الزاخرة لا من

الجنود فحسب، بل من التجّار والأعيان الذين أرادوا أن يصحبوا البطل حتى دمشق، لتبديد وحشته، وهو شعورٌ عربي نعرفه لدى أناس لا يتهيبون مواقف الخطر إرضاءً لمشاعر عاطفية تختلج في صدورهم، وقد فَزع الصليبيُّون لمقدمه وتوقعوه أكيداً منذ جاءتهم الأنباء من قبل، بوقوف آل زنكي في وجهه، وفيهم من اتَّصل بهم، وعلم بذلك السلطان فاحتاط للموقف، وقسَّم الجيش فريقين، فريقاً ذهب إلى دمشق تحت قيادة أخيه البطل (بوري تاج الملوك) وفريقاً بقي معه استعداداً للمعركة، ومن حنكة ابن أخيه البطل الآخر(فرُّوخ شاه) نائبه على دمشق أنه علم بتجمُّع الصليبيين حول الأردن استعداداً لمنازلة صلاح الدين المنتظرة، فأسرع ـ أثابه الله ـ بالانقضاض على طبرية وعكا، واستولى على الشقيف وأرنون، وعاد بألف أسير وعشرين ألف رأس من الغنم، وواصل الزحف فأغار على الضفة الشرقية للأردن، واستولى على أهم حصْنٍ من حصُونها بعد خمسة أيام من حصاره، وأسْكَنه المسلمين بعد أن هرب مَن به من الفرنجة!.

وجاءت هذه الأنباء السّارّة إلى صلاح الدين فهنّأَ أخاه على بطولته، وكانت فرْحَته تعادل حسرة الصليبيين الذين تركوا طبرية وعكا والشقيف، ليكون عتادها زاداً هنيئاً للمسلمين! وحين بلغ السلطان دمشق عَلِمَ من أخيه أن ما هاجمه من البلاد حول الأردن يضمُّ من العتاد ما يمكن أن يكون قوةً للجيش الإسلامي، ثم عَرف أن تجمُّعاً صليبياً قد احتشد حول طبرية، فأسرع السلطان لأمر فرُّوخ شاه بمنازلة الذين أُخذوا على غرّة هناك فبلغ أربه، ودخل

مدينة بيسان مكتسحاً، وقفل راجعاً إلى دمشق بعتاد وفيرٍ مما غنم.

وكانت مهمة السلطان عسيرة أمام خصومه في حلب، فاتَّجه إليها محاصراً دون أن يشبّ حرباً، لأنه يعلم أنها بلدٌ إسلامي، وليس من همّه أن يوهن من بأس المسلمين وإنْ نازلوه، ورأى أن يتركها إلى الموصل، فاستولى في طريقه على الرها وحرّان والرقة وسروج ونصيبين، ووقف أمام الموصل موقفه أمام حلب، حيثُ لم يشأ المهاجمة، ورأى من الحكمة أن يُرسل إلى الخليفة في بغداد كي يعمل على رأب الصدع بينه وبين خصومه، منعاً لخسارة إسلامية متوقعة، ولم يأتِ الخليفة بعمل حاسمٍ، إذ أرسل أحد الشيوخ من العلماء للوساطة!!.

وجاءت الأنباء بتجمُّع الصليبيين استعداداً لهجوم ساحق على دمشق في غيبة صلاح الدين، ففكّ الحصار، وعجَّل بالرحيل، ولكنّ الفرنجة لم يقصدوا دمشق بادئ ذي بدء، بل عاثوا فساداً ورعباً في إقليم حوران، ثم اتَّجهوا إلى ضواحي دمشق، على حين ماتَ نائب السلطان، فلم يلبثْ صلاح الدين أن داهمهم فأزعجهم عن مرادهم.

وحين تمّ له ما أراد اتَّجه إلى حلب، وكان حاكمها عماد الدين متردِّداً في أمره مع صلاح الدين، لأنه يعلم في ضميره أنّ اندحار السلطان سيسلمه إلى منازلة الفرنجة، ولا حول لديه أمامهم، فأرسل إليه يعرض أن يترك حلب ويكون والياً على سنجار بلده، وقد فرح السلطان بهذا العرض، وزاد في ترضية عماد الدين

فضمّ إليه الخابور والرقة ونصيبين وسروج، وبذلك صار حليفاً.

وأخلَتْ حلب ميادينها للبطل الفاتح فدخلها شاكراً حامداً، وعادت الشام ثانية إلى قبضته دون منازع، وما عليه بعد هذه الهوجة الرعناء إلاَّ أنْ يفرغ للصليبيين، وقد فزع الفرنجة لِما تمَّ على أسرع مما لم يتوقعوه، وكانت أنطاكية أكثر الإمارات فزعاً، إذ عرف أميرها أنه أصبح على مرمى قوس من صلاح الدين، وأن يومه قد حان، فبادر باسترضاء السلطان، وأرسل إليه جماعة من أسرى المسلمين، فأعطاه الأمان، ثم بادر مذعوراً بالاجتماع مع أمير طرابلس وملك بيت المقدس ليتفاهموا على ما ينبغي صنيعه، وقد خلت أكثر ربوع الشام لصلاح الدين ومعها مصر.

ومن ميزة القائد الحصيف أن يكون خبيراً بنفوس أعدائه، مُلمّاً باتِّجاهاتهم التي ينْتَحونها؛ عن أسباب منطقية أو عاطفية تملك عليهم زمام التصرف في الأزمات، وقد كان صلاح الدين بين هؤلاء الذين يدرسون خصومهم دراسةً واعية، تعتمد نتائجها على أدلة مُرَجِّحة تبعد عن الاحتمالات البعيدة، فملوك الفرنجة وأمراؤهم كانت سيرهم موضع تأمُّله الفاحص، وقد عرف منهم من يميل إلى السلام، فتمكن ملاينتُه ببعض ما يرضيه، ومن يجنح إلى الخصام لا عن قوة عاتية تُصبح ذخيرة له في معتركه، بل عن هَوَس غوغائي لا يرتكز على أصلٍ من أصول النظر.

ومن هؤلاء الملك الصليبي (ريجنالد) الذي عرفه العرب باسم (أرناط)، حيث لم يكن في أصله غير انتهازي، ممن يصطنعون مظاهر

الفردية دون أن يفهموا معناها الصحيح، وقد وجد في الحرب الصليبية متنفّساً لآمال بعيدة في الثروة والجاه وسعة النفوذ، فهو في أوروبا خاملٌ لا تشير إليه إصبع بمجادة، ولا يتحدث عنه لسانٌ بمكرمة، ولن يتاح له الظهور في موطنٍ عرف منبته ومنشأه، فلْيهاجر مع المغامرين، فقد تُيَسِّرُ له الظروف أن يقود جماعةً من أمثاله، وقد تم له ذلك عن دسائس أحكمها، ولكنّها لم تُبلغه ما يريد أمداً طويلاً، إذ دفعه تهوُّره إلى مهاجمةِ قافلةٍ عربية كقاطع طريق، وفيها من النساء والأطفال مَن عزَّ على أقاربهم أن يقعوا تحت أسره، فنشطوا إليه ثائرين، ولم يتحمل الصدمة الأولى فوقع أسيراً في قبضة والي حلب، وظلّ في الأسر سبعة عشر عاماً، لأنّ أحداً من ملوك الفرنجة لم يأبه له، ولم يَسْعَ إلى افتدائه، وذلك يدلّ على أنه في نظرهم مغامرٌ أفّاق، سواء حُبس أو أطلق فلن يعود عليهم خيرٌ منه، بل ربما كان اعتقاله حاجزاً دون تهوّر يجلبه وحده، فيقع خطره على غيره.

وقد شاءت الظروف أن يطلَق مع جماعةٍ من أمثاله، لا ليعود إلى النهب الفوضويّ فحسب، بل ليغرَّ امرأةً عجوزاً مات أبوها صاحب إمارة الأردن، وتطلعت لمن يرث إمارته عن طريقها، فتقدّم إليها أرناط في شبابه واعتداده ودعاويه، فاختارته زوجاً؛ وفي غمضة عين صار مسيطراً على الأردن وما يتبعه من حصني الكرك والشوبك، وقد توهّم أن انتقاله المفاجئ إلى إدارة الذّمّة في الأردن جعله نظيراً لملك بيت المقدس وصاحبَي أنطاكية وطرابلس، وحين اجتمع هؤلاء معه بعد أن ضُمّتْ حلب إلى صلاح الدين وأصبح

رجلَ الموقف في الشام؛ أبدى من نزعات التهوُّر ما جعل القوم من بني جلدته ينزعجون من تهوُّره، ويعدُّونه مصدر خطرٍ عليهم جميعاً.

ومن ضِيْقِ أفقه أنه حين خرج من الأسْرِ بعد سبعة عشر عاماً ظنّ أن الأمر في القوة الإسلامية على ما كان قبل أسره، وهو جهْلٌ ساذجٌ لا يليق بمن يتصدَّر إمارة الأردن حاكماً بأمره، فقد كان الأمر مع صلاح الدين اليوم غيره مع نور الدين بالأمس، إذ لم تكن للمسلمين قيادةٌ جمعتهم على رأي واحد، تحت زعامة بطل مفرد، وهذا يعني في أبسط أموره أنّ المسلمين جميعاً قد صاروا صفّاً واحداً أمام العدوان الصليبي، ومن يكره صلاح الدين لزعامته لا يجرؤ على مخالفته أمام الرأي العام، وله في كل يوم نصرٌ يتقدم به من موقعةٍ إلى موقعة!!.

جهِل أرناط ذلك حين مثّل دور قاطع الطريق، فهاجم القوافل الآمنة التي توجّهت لحجِّ بيت الله مهاجمة استئصال وإبادة، وانتهك الهدنة المعقودة بين صلاح الدين والصليبيين، وحين فزع الحجّاجُ صارخين، وألقوا المقادة إلى الاستشهاد مُرغمين، ظنّ أنه انتصر في معركة حربية، وتقدّم بجيوشه زاحفاً في الصحراء إلى تيماء معلناً في أشنع ضروب الوقاحة أنّه سينتهي إلى المدينة المنورة، ليحرق جثّة رسول الله!! وهو إعلانٌ وقحٌ كان من أثره الفوري أن اتّجه البطل فروخ شاه ـ حاكم دمشق وابن أخي صلاح الدين ـ إلى الأردن، فكسب النصر على نحو ما ألمحنا إليه من قبل.

لقد كان هذا الاعتداء الظالم على الآمنين من الحجاج، ثم

ما تبعه من إعلان الاتِّجاه إلى المدينة المنورة مصدر فزع للمسلمين جميعاً، حيث رأوا من الضروري أن تجتمع كلمتهم تحت راية واحدة منذ الآن، وتحوّل الشعور الإسلامي إلى غضب هادر، فتلاحقت الوفود من شتّى الأصقاع إلى صلاح الدين، وأدرك ملكُ القدس أن خرق الهدنة على يد أرناط سيعجل باشتعال المعركة، فبعث إلى السلطان متبرئاً مما صنع أرناط، فجاء ردُّ صلاح الدين مطالباً ملك بيت المقدس أن يُسرع بردّ كل ما استولى عليه أرناط من أسرى المسلمين وأموالهم دون إبطاء، فذهب الملك وَجلاً إلى أرناط؛ يوضِّح له سرعة الهجوم القادم، فجعل يهزأ به ويرميه بالضعف والخَرَف، ويؤكد عزمه على الذهاب إلى المدينة المنوّرة.

وكانت عدة سفن صليبيَّة قد اتَّجهت إلى فلسطين من أوروبا فقذف بها هواء البحر العاصف إلى شواطئ دمياط، وبها نحوٌ من ألفين وخمسمئة حاجّ ينوون الإقامة ببيت المقدس، فبادر صلاح الدين باعتقالهم، مُصدراً أمره إلى أخيه العادل بالقاهرة كي يتم الأمر على أسرع وجه، ليكون ذلك ردّاً على ما قام به أرناط نحو الحجاج من المسلمين! ولكن شتّان بين صنيع وصنيع، فالملك الغاشم قد أعمل السيف في أكثرَ مَن كان بالسفن الإسلامية، والسلطان المترفع لم يعمل سيفاً مع حاجّ أعزل، ولكن اكتفى بالأسر، ليكون المأسورون تحت يده فيفتدي بهم أسرى المسلمين.

تأهَّب صلاح الدين لردِّ الاعتداء بنفسه، بعد أن نجح قائد الأسطول المصري حسام الدين لؤلؤ في هزيمة أرناط، حيث تتبَّعه

في سيره نحو المدينة، إذ داهم سُفنه وأوقع به الهزيمة على نحو ما تحدَّثنا عنه من قبل موجزاً، وما سيطالعه القارئ في فصلٍ تالٍ عن أمير البحر، وجهاده الباسل مفصّلاً.

فأمر صلاح الدين بالاستعداد لمعاقبة أرناط في عقر داره، وكان قد حلف في ثورته أن يقتله بسيفه حين بـاءته سفاهته عن رسول الله، ورأى هذا القسم نذراً شرعياً لابد أن يقوم بأدائه، ليعلم من يجهل أنّ نبيّ الله في يثرب محاط بعناية ربّه، قبل أن يحاط برعاية أوليائه من المسلمين، فَعَبر السلطانُ نهر الأردن، ونازلَ جيوش الفرنجة في مواقع حاسمة بعثتهم على الفرار مذعورين، وقد التقتْ كتائبه بكتائب ابن أخيه فروخ شاه، فأغاروا معاً على إقليم الغوْر حول بيسان، ثم على بيسان نفسها حين قُهرت مدحورة، ولم يلتقط البطل أنفاسه، فاتجه إلى مهاجمة حصن الكوكب وهو من أمنع حصون الصليبيين، فاشتد القتال حوله، وتم النصر لجنود صلاح الدين، ولكن بعد استشهاد جماعة من الأبطال.

ورأى صلاح الدين أن يفصل بين إمارتي طرابلس وأنطاكية، بالاستيلاء على بيروت، فاتجه إليها وحاصرها حصاراً محكماً من ناحيتي البر والبحر، ولكنّها لم تستسلم، ووجد صلاح الدين مقاومةً أنذرته بأنّ أمد الحصار سيطول، فرأى أن يتركها مكتفياً ممن وقع من الأسرى حولها، وما جَمَعَ من الغنائم الكثيرة من أرباضها... وقد اطمأن إلى منازلتها في وقتٍ قادم حين جاءته الأنباء بمرض

(بلدوين الرابع ملك بيت المقدس) مرضاً منعه من مباشرة حكمه، فعيَّـن صهره (جاي لوزجنان) نائباً عنه، ولم تكن له تؤدة (بلدوين)، فأراد أن يضرب مثالاً لشجاعته أمام الفرنجة فزحف إلى قرية (الفولة) بالقرب من عين جالوت التي سيدوّي حديثها بعد سنوات في انكسار التتار.

وأدرك صلاح الدين أن الوصي الجديد يستعرض شجاعته، فأراد أن يعطيه درساً لا ينساه، وزحف للقائه بجيشٍ يفوق جيشه، وجاءت الأنباء إلى (جاي لوزجنان) فأدركه الفزع بغتةً، ونسي حماسة العنتري حين أعلن أنه سيتجه إلى دمشق، ليسقط صلاح الدين في عرينه، نسي ذلك وفرّ هارباً؛ ورأى صلاح الدين أن يحتفظ بجيشه لمعركة أشد خطراً، إذ أنّ أمر لوزجنان ـ وقد شاهد فراره الجبان ـ أصبح لا يعنيه.

لقد كان حجَّاج بيت الله الحرام في فزع من فظائع أرناط، وقد مدّوا أيديهم بالدعاء إلى الله كي يكشف عنهم كربَ هذا السفَّاح اللجوج، فجاءتهم الأنباء بانتصار حسام الدين لؤلؤ، وقد قدِم بنفسه إلى موسم الحج ومعه بعض الأسرى الذين قاوموه من قبل، فأعمل فيهم السيف بمشهدٍ من الذين فزعوا من الهول من قبل، ليكونوا عبرةً لمن تسوِّل له نفسه أن يعتدي على زوّار بيت الله! بل كان ذلك جواباً حاسماً لأرناط يُريه عاقبة شرّه، وقد أقسم صلاح الدين على أن يصرعه بسيفه! وكأنّي به وقد ظنَّ البطلَ الإسلامي ممن يستهين بيمينه أمام الناس، فظنّ الأمر مجرد تخويف !!.

لقدْ أخذ صلاح الدين يفكر في مأساة الحجاج العزّل على يد قاطع الطريق، فحاصر الكرك زمناً طويلاً، غير أن النجدات الأوروبية المتوالية قد ساعدت على مقاومة الفرنجة، وتدبَّر البطل الموقف، فرأى أن الكرك ستسقط فعلاً حين تسقط الإمارات العملاقة من حولها، فلا بدّ أن يستأصل رأس الأفعى أولاً.. وهذا ما سيكون.

* * *

شبهات تحاك دونَ إمهَال

ما أكثر أن تُساق الأحكام من غير رويّة، وما أسهل أن يقرأ دارسٌ خبراً عن عظيم لمْ يحْظَ شاعرٌ عنده بما يؤمل، أو سدَّ بابه في وجه أديب، فيجعل من ذلك حكماً عاماً على اتجاهه. ويصمُه بمحاربة ذوي الآداب، وأولي الفكر! إننا نعرف أن ظروفَ صلاح الدين لم تكنْ تسمح له بتفريق الهبات على الشعراء والمادحين من ذوي التكسُّب ممن يمدحون الإنسان ويذمّون عدوّه، ثم لا يمضي أمد قصير حتى تتبدَّل بهم الحال فيمدحوا من هجوه، ويهجوا من مدحوه، نعرف ذلك في تاريخ مئات الشعراء، ثم لا نزنُ الأمور بميزانها الصحيح حين نحكم على صلاح الدين بعدم الاحتفاء بشعراء دولته!.

إنّ الرجل كان يضيّق على شعبه ليجمع ما يستطيع أن ينهض به من تجهيز الأساطيل، وإعداد المؤن الحربية، وتقوية الكتائب المجاهدة! أفيُنتظر منه وقد جمع الدرهم قبل الدينار من مواطنيه، أن يكون مِتلافاً لما جمع، مُبذّراً ما لديه في عطايا الشعراء، وهبات الوافدين! لنْ يكون صلاح الدين زعيم المجاهدين إذا صرف وجهته عن التعْبئة الحربية مسترضياً أناساً يعرف أنهم يقولون ما لا يفعلون!

ومن يَغْفل عن طبيعة العصر، وموقف القائد المتأزِّم، ثم يصمُه بالتقتير على الشعراء والأدباء، يكون بعيداً عن مَنازل الحكم التاريخي، إذ لا يتبوَّأ هذه المنازل إلاّ من رُزِق سداد النظرة، وعرف كيف يقدّر الملابسات المحيطة، ثم يصدر رأيه عن رسوخ مكين.

يقولون: إن صلاح الدين لم يقف عند الشّحِّ على الشعراء، ولكنه قتلَ الشاعر الموهوب عمارة اليمني، ونَفَى الشاعر المطبوع ابن عِنِّين، وقتلَ الفيلسوف السهَرَوَرْدي! وما كان له أن يفعل ذلك مع أئمة الأدب والفكر في عصره، وهم يسردون تاريخ هؤلاء الذين صُدموا بعقابه، فيتجاهلون ما اقترفوه، ولا يحاولون تحليل الأحداث بمنطق الحيدة والإنصاف، بل يصدرون الحكم عن عاطفة متسرِّعة. والمؤرخ قاضٍ نزيه، ومن سمات القاضي أن يدَع عواطفه عند الحكم، فلا يعتمد على غير الأدلة والبراهين..

ولنعرض لهؤلاء الثلاثة بإيجاز ـ لنرى كيف كان صلاح الدين منطقياً فيما صنع، بل ما كان له أن يتجاوز ما صنع كيلا يفلت من يده الزمام!!.

كان عمارة اليمني من كبار شعراء الدولتين الفاطمية والأيوبية، وهو شاعر عالم فقيهٌ، دَرَسَ وفحص، وارتضى أن يكون سنِّيّاً يتعبَّد على مذهب الإمام الشافعي، وقد ظلَّ محافظاً على ذلك في عهد الدولة الفاطمية، ومجاهراً به.

فارتضى ذوو الأمر إخلاصه، وعدُّوا ذلك موضع تقدير وإعجاب، لأنّه حين يتحدث عما يعتقد لا يداهن ولا ينافق، وقد كان

والده من سَراة اليمن، وقد شهد مطلع نبوغه، فحذَّره أن يهجو مسلماً. ثم ذهب إلى الحجِّ فاتَّصلت أسبابه بأمير مكة، ورأى من دلائل فضله ما جعله سفيراً له في رسالة سياسية يحملها إلى مصر، وفي مصر أشرق نجمه، لأنّ الوزير القائم بالأمر حينئذٍ كان الملك الصالح طُلائع بن رُزّيك وهو شاعر موهوب له جانبان من جوانب العظمة: جانبُ المهارة الحربيّة في معارك القتال، وجانب الموهبة الشعرية في معارك البيان، وقد عرف لعمارة حقَّه، وأنزله أكرم منزل من حاشيته.

ومما يذكر لعمارة بالفضل أنّه رأى في هذه الحاشية خوضاً شائناً في ذِكر أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ على نحو ما يفعل غُلاة الشيعة ممن يتوسَّلون للخلفاء بسبّ الفضلاء، فخرج من المجلس غاضباً، وعَرفَ القوم مدعاة غضبه، فوشوا به إلى الملك الصالح ظانّين أنّه سيغضب عليه، ولكن الوزير المخلص دَعاهُ ملاطفاً، وسأله فيم احتجابك عنا؟ فعرف ما يعنيه، وأجابه بأنه أطاع قول الله ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٨]، فابتسم الملك الصالح ورجاه أن يعود دون ملامة، ورأى المهزلة تتكرر، فاعتزل، وقال لرسول الملك الصالح: إنّ حصاةً بجسمي يعتادني وجعها فلا أستطيع المجيء.

وكان في الوزير الشاعر مروءة، فأدرك أنّ مثل هذا السنّي الملتزم ممن يُصطنع، ومدحه بشعر بعث به إليه قال فيه:

قل للفقيه عمارةٍ: يا خير مَن ... أضحَى يؤلّف خطبة وخطابا
اِلقَ الأئمة شافعين فلن ترى ... إلا لـــدينـــا سنّـــةً وكتـــابـــا

ولئن قدّرنا سلوك عمارة فإن روحَ الوزير تحتاج إلى تقدير مماثل، وأفهم من محاولة استرضاء عمارة أن الوزير كان على رأيه في عدم التهجّم على فُضلاء الأمة من الخلفاء الأخيار، ولكنّه لا يستطيع أن يقطع ألسنةً قد اعتادت الهُجر.

ثم مضى عهد طُلائع بن رزّيك وحلّ محلّه شاور، وهو يعلم مقدار صلته بغريمه، فدعاه إلى مجلسه، ورأى عمارة أن يمدح القائم بالأمر، ولكنّه لم يذهب مذهب من أخذوا يذمُّون عهد الوزير الراحل، إذ هم أتباع كلّ ناعق، ولكنّه حفظ كرامته، فأشار إلى العهد السابق بما ينمُّ عن التقدير حيث قال:

زانت ليالي رزّيك وانصرمت ... والمدحُ والذم فيها غيرُ منصرمِ
ولـم يكـونـوا عـدوّاً ذلّ جـانبـه ... وإنما عَزَفُوا في سَيْلِكَ العرِمِ
وماقصدت بتعظيمي عِداكَ سوى ... تعظيم شأنك، فاعذُرني ولا تَلُمِ
ولو فتحتُ فمي يوماً بذمّهم ... لم يرْضَ فضلك إلا أن يُسدّ فمي

وهي أبيات جميلة الاتّجاه، حميدة المرمى، ولن تصدر إلا عن نفسٍ شريفةٍ ذات مروءة، وقد أكمدت غيظاً نفوس من ذهبوا يثلبون آل رُزّيك طمعاً في استرضاء شاور، وكانوا يمدحونهم من قبل، فاستشعروا حرجاً بالغاً حين هشّ شاور في وجه عمارة، وشكَره على حسن وفائه! وهو صنيع اضطرّ إليه كي يوصف بسعة الحلم وانفساح الصدر.

ثم مضى عهد شاور وجاء عهد صلاح الدين، وقد أمَّل عمارة أن يجد لديه من الحظوة ما وجَدَ عند ابن رُزّيك وشاور، ولكنّ صلاح الدين مشغول عن مديح الشعراء بما يواجه من الأزمات الشداد، وليس صلاح الدين بالذي يجهل مكانة الشعر، فقد كان متأدِّباً يتذوّق الفن، ويحفظ ديوان الحماسة حين تلقّاه على بعض الشيوخ في صباه الأول بحلب، وقد كان يستحسن أبياتاً يردِّدها حتى في أحلكِ ساعات الحرب، إذ ذكروا أنّه في إحدى المعارك طاف بذهنه ذكرى كريمته الصغيرة فأنشد قول القائل:

ذَكَرْتُكِ والخطيُّ يخطر بيننا وقد نَهَلَتْ منا المثقَّفة السمر

وهو بيت يصدر عن أريحية نحسها لدى الشاعر القائل والمستشهد معاً! هذا الملك المحاط بالأهوال، المُرهقُ بالأعباء لا يجد لديه ما يعطيه للمادحين[1]، وكان على عمارة اليمني أن يعرف ذلك حق معرفته، فمثلُه في ذكائه لا يغيب عنه أنَّ مَثَل صلاح الدين الأعلى قد تركَّز في طرد الصليبيين من ربوع العالم الإسلامي، وهذا المَثَلُ يغطّي على كل شهوة يمكن أن تلج إلى نفسه من أماديح الشعراء، ومحسّنات الكتّاب، ولكنه وجّه إليه قصيدة يذكّره فيها برعاية الفاطميين له، واهتمامهم به إذ قال عنهم:

وزرتُ ملوك النيل إذ زاد نيلهم فأُحْمِد مُرتادي وأخصبَ مرتعي

---

(١) لقد أعطى صلاح الدين في مناسبات سعيدة، ولكنه كان ذا هموم أكبر من محاسنة الشعراء.

ملوكٌ رَعَوا لي حرمةً صار نبتها هشيماً رعته النائبات وما رُعي
مذاهبهم في الجود مذهب سنة وإن خالفوني في اعتقاد التشيّع

وقد تابع صلاح الدين خطّته في الاهتمام بالمعركة إذ لا صوت يعلُو فوق صوتها كما يقال في هذه الأيام، ثم سقطت الخلافة الفاطمية كما أشرنا من قبل، فأحدثت أثرين مختلفين، فمن الناس من رحَّب بالواقع المشهود، ورجا فيه فاتحةً لنصرٍ مؤكَّد، وابتعاداً عن عهد المؤامرات والدسائس، ومنهم من أوجعه أن ينقضي عهد كان في مبدئه زاهراً ناضراً، ثم أدركه الذبول حين أصبحت الخلافة لُعبة في أيدي المتسلِّطين من الوزراء؛ ومن هؤلاء عمارة الذي دفعه حبّه للفاطميين ـ وهو سنّي شافعي ـ أن يرثيهم رثاءً صادق الحُرقة حزين النبرة، ولم يُلقِ بالاً لمؤاخذةٍ من رجال صلاح الدين، بل أرسل مرثاةً لائمةً منّددة، وكأنه لا يحذر عاقبتها، ومما قال في هذه المرثاة:

والله لا فاز بين الحشر مُبغضكم
ولا نجا من عذاب الله غير وَلي
ولا رأى جنّةَ الله التي خُلقت
مَنْ خان عهد الإمام العاضدِ ابن علي
أئمتي وهُداتي والذّخيرة لي
إذا ارتهنتُ بما قدمت من عملِ
ولو تضاعفت الأقوال واتسعت
ما كنت فيهم بحمد الله بالخجلِ

يـا عـاذلـي فـي هـوى أبنـاء فـاطمـة
لـك المـلامـة إن قصّـرت فـي عـذلـي
بـالله زُر سـاحـة القصـريـن وابـكِ معـي
عليهمـــا لا علـــى صفّيـــن والجمـــلِ
وقُـــلْ لأهليهمـــا: والله مـــا التحمـــت
فيكـم قُـروحـي ولا جـرحـي بمنـدمـلِ
لهفـي ولهـف بنـي الآمـال قـاطبـة
علـى فجيعتنـا، فـي أكـرم الـدولِ

وهذا الشعر المهاجم لصلاح الدين ودولته، الداعي للانتقام ممن أزالوا الخلافة، كانَ من المتوقَّع أن يَغضب منه صلاح الدين، وأنْ يأمر على الأقل باعتقال الشاعر كيلا يُحدِثَ بترداد شعره أثراً سيِّئاً في النفوس.

ولكن صلاح الدين قد فاء إلى حلمه، فترك الشاعر ينفِّس عن صدره، وقدّر في ذات ضميره أنّ لواعج الحزن لابدّ أن تجد متنفَّساً في شعر يقال، أو رسالةٍ تُبعث، ما وقف الشعر والنثر عند حد التنفيس والترويح، ولو نظر عمارة إلى خطر ما قال، لحَمِدَ الله على السلامة، وآثر الانزواء؛ ولكنّه أقدم على التي لا يتسامح فيها عاقلٌ مهما اتَّسع صدره للصفح، أقدم على الائتمار بصلاح الدين مع جماعة من مشاركي هواه، حيث عقدوا جلساتٍ متوالية انتهوا فيها إلى الاتصال بالفرنجة في بيت المقدس وفي القسطنطينية معاً، كي يدهموا البلاد بالهجوم السّاحق لوزارة صلاح الدين وجيشه الذي

استقل بشؤون مصر، كما امتدت المؤامرة إلى منحى آخر هو الاتصال بالباطنية في الشام كي تُوفد فدائياً يغتال الأسد في عرينه غير هائب.

ومن حسن حظ صلاح الدين أنّ بين من حضروا مجالس الائتمار مَنْ كان عيناً له، فأوقف البطل على كلّ ما كان يحدثُ، مجلساً بعد مجلس، حتى أمكنه أن يعتقل رسول المتآمرين، ومعه الرسائل الخائنة، فماذا يُنتظر من صلاح الدين بعد هذه الخيانة السافرة؟ لقد ترك عمارة يلغو بشعره، ويهيّج المشاعر بما أودعه رثاء الدولة من شجون تحرّك وتُشعل وتبعث الحفائظ! ولا شك أن في حاشيته من حرَّضه على عمارة، ولكنه فاء لحلمه فما استشاط غضباً حيث يجد الغضب، ثم فوجئ بالتآمر الخادع؛ التآمر الممالئ للفرنجة أعداء الإسلام قبل أن يكونوا أعداء صلاح الدين! فلا بد أن ينتقم، وأنْ يحاكم المتآمرين في جلسة سريعة كشفت ما كانوا يبيّتون، وأن يُصلبوا وتُعلّق رؤوسهم لتكون عبرة لمن يهمّ بالخيانة! وهكذا فقدَ عمارة رشاده منحازاً إلى استقدام العدو ليعصف به وبصلاح الدين معاً!! وليت صلاح الدين قد اعتقله غبّ رثائه فيحول اعتقالُه دون تآمره، وإذ ذاك ينجو من الوبال!!

لم يظلم صلاح الدين من تآمروا على الدولة وعاهدوا الفرنجة على احتلال البلاد، وكذلك لم يظلم الشاعر محمد بن نصر بن عُنّين حين أمر بنفيه من البلاد، فقد كان هذا الشاعر يرى في الهجاء وسيلة إلى إرهاب الأثرياء وذوي المناصب، حيث تعقّب الفضلاء راجياً

نوالهم، وحين قلّ ما أتاه عمّا رجاه أرسل شواظ هجائه فيمن خيّبوا مقصده، وقد ظنَّ أن أيام الأهاجي السقيمة في مناقضاتِ جرير والأخطل والفرزدق ستعود، فجعل يتحرَّش بشعراء عصره كي يبزّهم في الفحش فيسير له ذكر في الناس، ولكنه لم يجد غير السكوت عنه، فامتدَّ هجاؤه إلى رؤساء الدولة وقُضاتها وحكّامها، بل إلى صلاح الدين حين عيّره بعيْب خلْقي في جسمه لا حيلة له معه، وهي رذيلةٌ كان يجب أن يؤاخذ عليها، ولكنَّ الحاكم العادل تجاوز سفهه، فهجا مَن دونه، ومنهم الكاتب والوزير والقائد، واتجه في الهجاء إلى مسائل منكرة ينبو القلم عن تسطيرها.

وكان أهون عقابه أن يُعتقل، لأنه رمى البرآء بذنوبٍ لم يقْترفوها، وأيسرُ ما يُوجه إليه حينئذٍ حدُّ القذف، ولكنَّ صلاح أمر بنفيه عن مملكته، فانتقل إلى الهند! كيف يقول قائل منصف: إن السلطان قد ظلمه وجار عليه؟! لو أن ابن عنّين عاشَ في عهد مَن سبق صلاح الدين من أمثال شاور وضرغام وقال فيهم ما قال لقُطعت رقبته دون محاكمة، وتُركت جثّته في العراء دون مواراة، كما حصل مع أناسٍ لم يبلغوا معشار ما بلغ من الهجاء! على أنّ مدّة النفي لم تطُل، فرجع إلى دمشق، وزار القاهرة وأخذ من خلفاء صلاح الدين ما لم ينله منه، ثم اجتباه الملك المعظم عيسى، وغفر له هجاءه في أسرته، بل جعله وزيراً له! ولم يطق الاستمرار في الوزارة، لأنّ رئاسة الحكم غير رئاسة القلم، وقد اغترّ المتنبّي بشعره، فحاول أن يكون أميراً، وخاطب كافور بقوله:

وغيـر كثيـر أن يـزورك راجـل فيزجع مَلكاً للعراقين والياً

وكافور هو كافور، أغدق على الشاعر المال والنَّشب، فكافأه بالهجاء الصارخ، لأنّه لم يجعله واليَ العراقين! وكافور يعلم أنه لا يقوم بشؤون دولةٍ يجعلها تحت إمرته، وهو محقٌّ في اتجاهه. أقول ذلك لأنّ إخفاق ابن عنّين وطلبه الاستعفاء، يدلُّ على حَذَر الولاة حين لا يرْغبون أن يُسندوا الأمر إلى غير أهله! وإذن فموقف صلاح الدين من ابن عنّين مما يحتسب له حِلماً وكرماً وعفواً! فكيف يقول قائل: إنه عصف بحقّ الأديب حين حرمه العطاء!.

بقي حديث الفيلسوف الشاب الشهيد يحيى بن حسين السهروردي، وقد أُخذ على صلاح الدين أنّه أمر ابنه الملك الصالح حاكم دمشق أن يتخلّى عنه، وأن يقدّمه للمحاكمة! فقد اشتهر السهروردي بأقوال ذوي النظريات الغامضة ممن تُتوهَّم في أقوالهم معاني الاتحـاد والحلـول ووحدة الوجـود، وهي معانٍ يحاربُها الفقهاء، ويكفّرون القائل بها، وجاءت الأنباء إلى صلاح الدين أنَّ ابنه الملك الصالح قد اختار لمجلسه فيلسوفاً خارجاً بأقواله عن تعاليم الإسلام، وأنَّ فقهاء دمشق يضجُّون لما أبداه ولدُه من رعايةٍ وحَظْوة واحتفاءٍ بهذا الآثم المشتطّ.

جاءت الأنباء إلى صلاح الدين في رسائل كتبها الفقهاء، فلم يكن أمامه إلَّا أن يُشير بمحاكمة السهروردي في مجلس علني لتظهر حقيقة أمره، لم يفعل صلاح الدين غير أن أمر بمحاكمةٍ علنيّة، ولم يجد ولده بُدّاً من تنفيذ أمر والده، وكان قاضي المحكمة ـ وهو كبير

القضاة في دمشق ـ أضعف من أن يقرأ كتب الفيلسوف ويسبر أغوارها الفلسفية العميقة، فوقف عند جملةٍ رآها وحدها موضع الجدل، إذ أخذ من أقوال السهروردي قوله: «إنَّ الله قادرٌ على أن يخلق نبياً»، فقال القاضي ليحيى متجهّماً:

ـ لقد قلتَ: إن الله قادرٌ على أن يخلق نبياً، و هذا مستحيل إذ لا نبي بعد محمد.

فقال السهروردي: لا حدَّ لقوة الله فإنَّ القادر على كل شيء إذا أراد شيئاً لا يمتنع عليه.

فردَّ القاضي: إنَّ الله قادرٌ على كل شيء إلاَّ على خلق نبي، فيستحيل.

فقال السهروردي: أيستحيل الخلق مطلقاً أم لا؟.

وهو سؤال لم يفهمه القاضي، فضلاً عن أن يجيب عليه، لأن الفيسلوف يريد أن يقول: إنَّ هناك قدرةً بالقوة، وهناك قدرةً بالفعل، إذ يقدر الله أن يخلق بالقوة نبياً، ولكن ذلك ممتنع بالفعل، إذ قال الله عزَّ وجلَّ عن رسوله إنه خاتم النبيين، وهذا ما عناه بسؤاله عن الخلق المطلق والخلق المقيَّد!.

وفي أوج التعسُّف الظالم أصدر القاضي حكمه بقتل مَن وصَفَه بالفيلسوف المارق، واضطرَّ الملك الصالح إلى تنفيذ الحكم كما أشار والده! وهنا نسأل من الذي قتل الفيلسوف: أهو صلاح الدين أم هو القاضي العسوف!؟.

إن الذين يُعلّقون على هذه القضية يذهبون إلى أنّ صلاح الدين قد حارب الفلسفة بضراوة، وصلاح الدين كان في شغل شاغل عن الفلسفة وقضاياها، ولكنَّه سمع بمن يقول غير ما يقول أهل العلم، فأمر بمحاكمته، ولن يحمل وزر قاضٍ أصدر الحكم دون كفاءة واستعداد.

* * *

يوم حطين

أخذت معركة حطين قدراً هائلاً من تحليل مؤرِّخي الفرنجة لأنها كانت النذير الحاسم بانتهاء الدور الصّليبي في الشرق، حيثُ بدَّدت أحلاماً أوروبيّة كانت موضع اليقين لَدى من أشعلوا هذه الحرب الظالمة.

وإذا كانَ من الموتورين مَن حاول إطفاء بريق النصر الباهر الذي كَسبهُ صلاح الدين حين دَحَر جيوش الصليبيين المجتمعة في هذه المعركة، بدعوى أنَّ أسباباً غير حربيّة قد أسهمت في الإخفاق الصليبي، فإنّ مما يردّ ذلك ما نَعرفه من أنّ البطل الحربي هو الذي يُقدّرالجو المحيط بالمعركة، ويفطنُ إلى أسباب الخذلان لَدى عدوه فيجعل منها أداةَ نصره، وهذا ما حققهُ صلاح الدين عَنْ مهارة سياسية محنكة..

مع ملاحظة أنّ ما قاله المستر (تشرشل) الداهية السياسيّ الكبير في تحليله للموقعة من أن كثرة الجيش الإسلامي كانتْ عامل النجاح؛ يُردّ عليه بأن الجيش الصليبي في الإمارات الفرنجية المختلفة كان أكثر عدداً من جيش صلاح الدين لو تمَّ له حُسن القيادة، وسيق إلى المعركة في خطةٍ محكمة، إذ المعروف أن سُفن الفرنجة لم تنقطع عن

المدّ المتواصل طيلة أيام الغزو الصليبيّ.

والذين يحصِرون الحملات الصليبية في سَبع حملات إنما ينظرون إلى الحملات الرسمية التي قادها الملوكَ الرسميون، والأمراء المرموقون، أمَّا السُّفن العابرة التي والت الكنيسة إرسالها الدائم حين بعثت رُسلها تجوب أنحاء أوروبا من الجنوب إلى الشمال، معلنةً غفران الذنوب لمن يركب سفينةً ويرحل، هذه السفن لم ينقطعْ مدُّها المتواصل إلا ريثما يتَّصل!!.

وإذنْ فماذا يفعل صلاحُ الدين أمام جيوش قارة أوروبا جميعها، وهو لا يحاربُ إلا بجند الشام ومصر، فإذا جاءتْهُ النجدات من العراق والجزيرة ففي مرَّاتٍ تُعدّ. لقد اشتكى البطل الفذُّ في رسالة بعثها إلى الخليفة العباسي طالباً أن يعمل بنفوذه الروحي على استحثاث أمراء المسلمين سريعاً بمعاونته، وسأذكر طرفاً من هذه الرسالة في فصل تالٍ[1]، فقد ذكر في هذه الرسالة الشاكية أن البحر يقذف كلّ يوم بعشرات السفن من أوروبا، فإذا فقدَ الصليبيون في نزاله عشرين جاءهم مئة!! أمَّا هو فيقاتل بجيشه المحدود دون أن يجد العِوَض عن الشهداء.

ومعنى ذلك أن دعوى كثرة الجيش الإسلامي كان لها اعتبارها في مجال الترجيح لو أنَّ الإمارات الصليبية لم تكن حافلةً بالمرتزقة الوافدين، أما وإنَّ كثرتهم تفوقُ عدَّ الرمل، فدعوى هذه الكثرة

---

(١) عنوان الفصل: شجون بطل.

محلّ نظر، ومَنْ قال: إن الجميع منهم لم يتقدَّم، يجد السؤال المفحم لِمَ لمْ يتقدَّم في معركة الحياة والموت؟ ولماذا جاء من بلده إذن؟!.

أما الأسباب المحيطة بجو المعركة، وهي التي تذرَّع بها المحلِّلون الأوروبيون، فهي في ملخَّصها صراعٌ على مملكة بيت المقدس بين المتطلِّعين لها من حاكمي الإمارات الصليبيّة، وبين مَنْ كان وصيّاً عليها بأمر (بلدوين الرابع)، إذ أنَّ (الوصي جان لوزجنان) لم يُثبتْ ما يؤهِّله للقيادة، إذ قام بمعارك خاسرة هزّتْ مجده السياسي، فشعر الملك المريض بتأثير مستشاريه أنّه أخطأ حين عيَّنه وصيَّاً، وسعى إلى طلاق أخته منه كيلا يفقد صلته الحميمة بالبيت المالك.

ثم مات (بلدوين الرابع) وعيِّن (بلدوين الخامس) الملك الصغير ملكاً تحت وصاية (ريموند الثالث) أمير طرابلس، وهو تعيين يوقع العداء بينه وبين الوصي السابق الذي استقلّ بإمارة مدينتين خاصتين بنفوذه، وقد التجأتْ أخت (بلدوين الرابع) إلى هرقل بطريق بيت المقدس مطالبةً بحق زوجها في السيطرة على بيت المقدس، فأسرع بتتويجها وتتويج زوجها، ناقضاً وصاية (ريموند الثالث)، ووجد الأخير أنه سيصطدم بنفوذ الرئيس الديني، فآثر أن ينسحب إلى طرابلس غاضباً، وكان هذا مما يرضي خصوم(ريموند) خوفاً من اتساع نفوذه إذا ملك بيت المقدس وطرابلس معاً! فأسرعوا إلى مبايعة (جان لوزجنان)!.

ومعنى ذلك كلّه أن كلمة الفرنجة قد تشتَّتَتْ، وأصبحوا شيعاً وأحزاباً، وكل بطلٍ يقظٍ في موقف صلاح الدين لا بدّ أن يقدّر هذا التصدُّع، ويعمل على أن يستفيد منه تحقيقاً لرسالته المقدسة! وهذا ما غفل عنه (أرناط) حين نقض الهدنة المبرَمة مع صلاح الدين، إذ استغلَّ موقعه بالكرك في طريق القوافل الذاهبة إلى الحج من مصر والشام إلى الحجاز، فجعل ينهب هذه القوافل بأبشع ضروب القسوة والعنف كما شرحنا ذلك. وكان من قبل قد ارتكب خطأً مماثلاً، فعمل على استرضاء صلاح الدين بإعلان خطئه، ووجوب احترامه للهدنة فيما بعد، ولكنه قد عاود غدره مرة ثانية على أبشع صورة، وزاد بامتهان ذكر رسول الله ﷺ.

ولم يكن صلاح الدين مستعداً لنزالٍ فرعيٍّ مع متهوّر مثله، غايةُ أمره معه أن يسقطه من إمارته الصغيرة.. إنما كان همّه العمل لمعركة كبرى تقود الجميع لمنازلته، فتكون نتيجتها حاسمة مجلجلة؛ فاكتفى بأن أرسل إلى ملك بيت المقدس يطلب منه أن يعمل على إرسال ما نَهب أرناط من الحجّاج، وإطلاق من أسر من العزّل الآمنين.

وظنّ أرناط أن البطل غير مستعدٍّ لمنازلته، فشمخ واستكبر، ورفض وساطة الملك، وجاءته الألفاظ النابية التي نطق بها الفاجر في حقّ نبيّ الإسلام، فأقسم على الانتقام منه بسيفه، ورفع السيف في يده، لا لأنه رفض مطلبه، بل لكرامة نبيّ الإسلام! ومن ثم أخذ

يعدُّ العدَّة الكبرى للمواجهة الحاسمة دون إبطاء، وكان أول همّه أن يقصد بجماعةٍ من جيشه إلى بصرى لحماية قافلة الحجَّاج الآتية خوفاً من خيانة عدو الله (أرناط) كما يقول ابن شداد. فبلغ مأربه، وسارت القافلة في صَوْنِ الله، ورأى البطل أن يؤدِّب أرناط؛ فسار إلى الكرَك في اثني عشر ألف فارس، ونازلها وقطع أشجارها، وفعل ذلك في الشوبك! واختبأ أرناط، ولم يجرؤ على أن يشتبك في موقعة خاصة مع صلاح الدين.

لم يكتفِ صلاح الدين في قهر الكرك والشوبك، ولكنه بدأ بتنفيذ الخطة التي أعدَّها من قبل، والتي كان يرصد موعد تنفيذها منذ شعرَ بقوة الاختلافات بين رؤساء الفرنجة، ومنذ أتاه من يرجو عونه على خصومه ليتترّس به، فأرسل يستدعي جيوشه بالجزيرة والشام ومصر، ولم يبدأ بشيء حتى أقبل كل من دعاه على أهبة الاستعداد، وبدأ بالسير إلى طبرية، وهي بلدة تطلّ على البحيرة المعروفة باسمها، وكانت من المناعة بحيث لا تلقي السَّلْم إلا بعد جهد جاهد، لأنها ذات قلعة حصينة، ولها أسوار تمتد وسط البحيرة، فحاصرها، وعلم الفرنجة أن الحرب قد بدأت على قدم وساق، وأن الذي نقض الهدنة هو أرناط لا صلاح الدين، فلا بد من المواجهة، وقد تزعَّم ملك بيت المقدس الدعوة العاجلة إلى الحرب لأن طبرية واقعة تحت سلطانه، وهي من بيت المقدس على اقتراب، فقد يدهمه الجيش الإسلامي بين ساعةٍ وساعة!.

وكان أول من لبَّى الدعوة أرناطُ حيث أراد ردَّ اعتباره إذ نكص عن المواجهة في الكرك والشوبك، وأرسل هرقل بطريق بيت المقدس إلى أميرَي طرابلس وأنطاكيه، مهدِّداً بالحرمان إذا تلكَّأ أحد منهما في مهبّ الخطر، كما حمل بنفسه شعاره المقدس (صليب الصلبوت) وهو فيما يقولون الخشبة التي صُلب عليها المسيح! ووقف ينتظر الجيوش القادمة حتى بلغ عددها خمسين ألفاً يتجمَّعون حول طبرية من مكان بعيد دون أن يقاربوها.

وهنا تسقط حجّة من قال: إن الجيش الإسلامي قد انتصر لكثرته العددية، لأن جيوش صلاح الدين في هذه المعركة لم تبلغ هذا القدر، لذلك بادر السلطان فعقد مجلس شوراه، ودفعه إيمانه إلى أن ينتظر حتى تحين صلاة الجمعة فيجأر المصلُّون جميعاً بالدعاء.. ولعلها تكون ساعة إجابة؛ وفي ليلة السبت رسم الخطة الحربية الموفقة، فعبر بجيشه نهر الأردن إلى جنوب البحيرة، وأرسل جيوشه إلى (صفورية) موضع تجمُّع الصليبيين، فعلم أنهم حائرون لا يجتمعون على رأي، وآثر انتهاز هذه الحيرة، وزحف إلى (طبرية) فوقعت في يده بعد معركة قصيرة، ولكنّ قلعتها ذات الأسوار الحصينة قد امتنعت عليه، وبداخلها زوج (ريموند) ـ أحد الأمراء ـ مع أولادها وحاشيتها، فأرسلت تستنجد بالجيش الصليبي، وأدرك (ريموند) معنى استغاثة زوجه وأولاده، فحثَّ الجيش على استنقاذ القلعة، وبادر بالزحف، فلم يكن بدٌّ من الالتحام...

لم يكن من همّ (ريموند) أن ينازل الجيش الإسلامي في معركة فاصلة، لأنه يعلم سطوة صلاح الدين في مثل هذا الموقف، بل كان من همّه أن يعمل على إنقاذ القلعة وحدها! ولكنّ مجلس الأمراء بقيادة ملك بيت المقدس قد استجاب إلى اقتراح (أرناط) بضرورة الهجوم على المسلمين، وقد لاحظت طلائع جيش صلاح الدين تحرُّك الجيش الصليبي نحو مواقعهم.

وكان البطل على أتمِّ ما يكون من التأهُّب للنزال، وقد بدأ باحتلال مواقع الماء في الينابيع المتفرقة في الأرض المقفرة، لأنه يعلم أن الجيش الظامئ لا يصبر على قتال، والماء في هذه المعركة بالذات عامل كسب محقَّق، مع اشتداد موجة الحرّ في شهر تموز (يوليو) أكثر من درجتها في الأعوام الماضية، وهبوب الأعاصير ذات الشواظ المحرِق، كلّ ذلك قد أخذه صلاح الدين في اعتباره دون أن تضعه الإفرنج موضع اعتبارهم الأول، وكان من الخير لهم أن يظلوا في مواقعهم دون أن يتحملوا عناء السير في الشواظ اللاهب حتى يضجر صلاح الدين فيبدأ بالهجوم، فيتحمّل هو مشاق الطريق، ويبلغ الجهد برجاله مبلغه قبل أن يلتحم الجيشان، فلا يكون في أتمّ المقدرة على الصيال، ولكنهم رأوا أن يقطعوا الطريق الصحراوي إليه لينهوا المعركة في أقرب وقت يستطاع، كما أشار عليهم (أرناط).

وقد رأى صلاح الدين أن يوقد النار المشتعلة في وجه الجيش الزاحف، فكانت الريح تحمل لهيبها الممتدّ إليهم فتزيد القادمين ظمأ

وأواراً، ولم يجدوا نبعاً واحداً يسمح لهم بالارتواء، لأن الجيش الإسلامي قد دمَّر هذه الآبار في وجوههم، ويقول الدكتور أحمد بيلي بصدد ذلك[1]:

«حاول الإفرنج في هجومهم أن ينفّذوا الخطط التي رسموها لأنفسهم، فيقطعوا الطريق على السلطان وجيشه، ويستولوا على ينابيع الماء، فكان من أمرهم أنّهم كلما تقدّموا خطوةً وقعوا تحت نيران عدوّهم، فلم يثبتوا، إذ تحيط الفِرَق ببعض فرقِهم فتسوقها إلى المعتقلات، أضف إلى ذلك ما لاقاه الإفرنج من الحاجة إلى المياه في ميادين القتال، وقد أرادوا الاستيلاء عليها فوقعوا في شر أعمالهم، وتضاعفت الشدة بتسليط أشعة الشمس عليهم في هذا اليوم القائظ، ولا شجر يظلّهم، ولا ماء يروي ظمأهم، فكان ذلك كله أشدّ عليهم من جيش المسلمين، فاضطرُّوا إلى النكوص على أعقابهم ليدبّروا أمراً آخر.

نعم لقد تقهقر فريق من الجيش دون مواصلة المسير، وحسِبَها المسلمون مكيدةً فلم يروا أن يتتبَّعوا هذا الفريق، بل ثبتوا في مواقعهم آمنين، حتى ينجلي الموقف، وهنا أمر صلاح الدين جنوده بالاستراحة في خيامهم حتى يصبح الصباح بعد بقاء جيش الحراسة على ساقٍ وقدم، وكلّهم أملٌ في الفوز الذي لاحت بشائره، وحين أخذ المسلمون راحتهم بالليل، أمر السلطان بالهجوم على الفرنجة

(١) صلاح الدين الأيوبي، (ص ١٥٩) للدكتور أحمد البيلي.

في حرّ الظهيرة، وقد تقهقرت فلولهم على تلال حطين بين العطش والكلال، فكانت قتلاهم تتناثر عن يمين وشمال، وكان همّ الواحد منهم أن ينجو لا أن يدافع.

وقد أحسَّ من كانوا في مؤخّرتهم بأن الدائرة ستدور عليهم، فولّوا هاربين ثم انسحب الباقي من الصليبيّين إلى المؤخرة من تلال حطين، وأرادوا أن يثبتوا أقدامهم في موقع آمن، فلم يتمكنوا من هول المناجزة، ونَصَبُوا بغاية الجهد خيمةً للملك، يدير فيها المعركة آمناً من وهج الشمس، وقد أحاط به عدد كثيف من الجيش، وكأنهم رأوا الاحتماء به هو الحلُّ المستطاع.

وعرف المسلمون أن سقوط الخيمة وتشريد من يلتفُّون حولها من المدافعين، هو الحد الفاصل في نهاية المعركة، فزحفوا إليها في حميّة مستبسلة، ودارت أعنف المعارك، حيث تمكَّن الصليبيُّون من ردِّ المسلمين مرّتين، وفي الهجمة الثالثة تداعت الخيمة، وشرِّد الملك ليقف في العراء، وكأنَّه يعلن استسلامه اليائس دون جدوى في مواصلة النزال، وهنا زحف قادةُ المقدّمة إلى موقع الملك؛ فأسروا كلَّ مَن وقعت أيديهم عليه من ذوي الشأن، وفيهم الملك وأرناط وشقيق الملك!.

وفي مكان الخيمة الصليبية المُنهارة، أقام المسلمون خيمةً جليلةً لصلاح الدين، وقد بدأ المكثُ بها بصلاة الشكر ومن خلِفه أمراؤه وحاشيته من العلماء، حيثُ ارتفعت أكفّهم في قُنُوتٍ شاكر

يحمد الله على ما أسبغ من النَّصر، وأخذ صلاح الدين يستعرض الأسرى في قيودهم، وهم في أشدِّ الإجهاد من حرارة العطش ومرارة الهزيمة. وقد كان الجندي المسلم الواحد يربطُ في الحبل الواحد أربعين من المنهزمين ويسوقهم أمام الحشد المجتمع في خيمة السلطان.

وفي أذلّ مظاهر الهوان سيق ملكُ بيت المقدس (جاي لوزجنان)، (وجيرار دي ريد فورت) مقدَّم الداويّة، وأرناط صاحب حصن الكرك إلى مجلس صلاح الدين في خيمته، فقام السلطان وأجلس الملك إلى جانبه، وجلس جواره أرناط وجيرار، ولحظ السلطان أنَّ الملك يكاد يهلك من الظمأ، فقدَّم إليه إناءً يحوي الماء المثلَّج، فشرب حتى ارتوى، ودفع بالبقيَّة إلى أرناط، فصاح صلاح الدين: هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني حتى يستأمن، ولا بدَّ من حسابه الآن، وأخذ يقرّعه على نقض العهود، وإهدار دم الحجَّاج العُزَّل، فقال في وقاحة: هذه عادة الملوك؛ فتناول صلاح الدين السيف وقدَّ كتفه نصفين؛ فارتاع جاي لوزجنان، وظنَّ أنه التالي!! ولكنَّ صلاح الدين ابتسم في وجهه وهدَّأ روعه؛ وقال له: لم تجرِ عادةُ الملوك أن يقتلوا الملوك! ولكنَّ هذا تجاوز حدَّه حين سبَّ نبيَّ الإسلام، وقال: إنه سيحرق جثَّته! فنذرتُ لله ثم وفَّيت!.

وقد انتهت المعركة بخوَر الصليبيّين وانخذالهم، لكثرة ما مُنوا به من الخذلان، ولا أجد أبلغ من كلمة المؤرّخ أبي شامة في

التعليق على نتيجة المعركة؛ حيث قال متعجِّباً: «إنَّ مَن شاهد القتلى يوم حطين؛ قال: ما هنالك أسير، ومَن شاهد الأسرى؛ قال: ما هنالك قتيل؛ لكثرة مَن يراه في الجانبيْن».

ولعلَّ مما لحظه مؤرخو الفرنجة أنفسهم أنَّ النصرَ لم يُسكر صلاح الدين، ويُثنيه عن واجب المروءة، بل ردَّ عليه من التواضع والحلم ما كان مثلاً بين نظرائه. فقد توجَّه إلى قلعة طبرية، وبها الأميرة (شيغا) زوجة (ريموند) وكانتْ في غاية الانزعاج، وقد فقدت الأمل بعد أن عرفت ماحلَّ بالفرنجة في تلال حطين، فتقدمت إليه باكيةً ضارعة، وطلبت منه الأمان، فطمْأن خاطرها، وأعاد إليها هدوءها، وأمرها أن تلحق بزوجها في أمان مع أولادها وحاشيتها ومن تختار من رجالها، وعمل على ألاَّ يتعرَّض أحدٌ لها في الطريق إذ هي في حمايته، ولم يَحْتَجز شيئاً مما حملت من الذهب والسلاح.

ولم يشأ صلاح الدين أن يذهب إلى بيت المقدس، وكان في مكنته أن يهاجم المدينة في موجة الذعر التي انتابت الصليبيين، ولعله رأى الاستيلاء على الموانئ البحرية أكثر أهمية الآن من بيت المقدس، لأنّ هذا الاستيلاء يمنع الزحف الذي لا ينقطع من الغرب، لذلك اتَّجه إلى عكا فأرسل له حاكمها (جوسلين) مفاتيح المدينة بشرط أن يؤمِّن أهلها على أرواحهم وأموالهم، ويخيِّرهم من الإقامة والظعن، فاستجاب لرغبة الحاكم، وكان من أهداف صلاح الدين أن يطلق أسرى المسلمين بعكا، وفيها منهم أكثر من أربعة آلاف أسير، وتمَّ له ما أراد.

وبما عُرف عنه من السماحة، رأت البلاد المجاورة أن تستسلم له، فاستولى على الناصرة، وقيسارية وحيفا وصفورية والفولة والشقيف والطور، وغيرها من الحصون، ثم استولى على جبيل، ولعلَّ المأخذ الأول في هذا التصرف أن السلطان حين سمح لهؤلاء بالحرية التامة دون قيد، جعلهم يهربون إلى مدينة صور لتجتمع هناك حشودهم المبعثرة، ويكونوا مصدر خطر مؤكد.. وهذا ما يجلب حرباً ثانية كان من الممكن تلافيها! والنفوس هي النفوس.

* * *

أمير الأسطول

(١)

جلس الملك المتوجّس في القدس ضائقاً متبرِّماً، حين بلغه أن (أرناط) أمير الكرك، قد احتلَّ أماكن كثيرة حول إمارته وشرَّد أهلها من الصليبيِّين، وذبح من عارض، وهدم البيوت ليجعل من سقوفها الخشبية أسطولاً بحرياً يهاجم به المسلمين في أيلة وعيذاب! وزفر زفرة الغيظ حين رأى اللاجئين من المشرَّدين يملؤون شوارع القدس باحثين عن مأوى، وقد ضاعت أموالهم المنهوبة، وأثاث المنازل وأدواتها الضرورية! وكأن زلزالاً اكتسحهم وكانوا خارج البيوت فما أبقى على شيء منها!.

قال الملك لكبير مستشاريه: أفهمُ أن يعمد (أرناط) إلى بيوت المسلمين فيهدمها ويسوق أهلها أسارى وينهب ما فيها من الغذاء والكساء والأثاث! ولكنِّي لا أفهم أن يعمد صليبيٌّ يدَّعي أنَّه جاء لحماية أبناء دينه إلى جماعة آمنة من النصارى فيُنزل بهم هذا الويل، ويشرِّدهم من بيوتهم، فيهرعون إلى القدس وأنطاكية وحطين كالبهائم الطريدة، ثم يدَّعي بعد ذلك أنَّه قائد الصليبيِّين! أليس هذا جنوناً؟

قال المستشار الكبير: ومتى كان (أرناط) مخلصاً في دعواه؟ إنه مغامر يبحث عن إمارة يرأسها، وقد احتاج إلى المال، فسيَّر جنوده إلى جزيرة قبرص، وقتل من همَّ بمقاومته من النصارى أبناء ملَّته، وساق الأطفال والنساء أسرى ليشتطَّ في الفداء، وذبح كثيراً من الرهبان! ثم جاء إلى الكرك بغنائمه المغصوبة؛ ليحارب أعداء المسيح!! ومِن يومها والصليبيُّون يمقتونه، ويعدُّونه قاطع طريق!.

ثم تطلَّع المستشار إلى ملكه الحزين؛ وقال: لا خوفٌ علينا منه يا مولاي! وسيلاقي ما كسبت يداه قريباً أو بعيداً، وأُشير بأن نتغاضى عن جرائمه الآن، لأنَّنا لا نريد أن يقف الصليبيُّون في جبهتين تتحاربان، ويكفي أن نجتمع معاً لنقف أمام صلاح الدين!.

فسارع الملك يقول: وهل أزعجني غير لقاء صلاح الدين، إنَّه لن يصبر على أعمال هذا المفتون، وقد أخذ بقطع الطريق على الحجَّاج من المسلمين، فيقتل ويأسر، ثم يلوذ بالفرار! لن يسكت صلاح الدين عنه وعنَّا؛ لأنه يعتبرنا جبهة واحدة، بل ربما وقع في ظنِّه أنَّ (أرناط) ينفِّذ أمري، ويصدر عن مشيئتي، فإذا شاء أن ينتقم؛ فلن يهاجم الكرك وحدها، ولكنه سيبدأ ببيت المقدس، ولا ندري على مَن تكون الدائرة، وجيوشه في ازدياد، والمسلمون مجمعون على رئاسته، ويفتدونه بالأرواح!.

قال المستشار: هذا متوقَّع يا مولاي، وأكاد لا أشكُّ فيه، ولكنَّ الهدنة بيننا وبين صلاح الدين قائمة، وهو يعرف أنَّك لم

تجاهره بالعدوان، وليس لديه الدليل القاطع على أنَّ (أرناط) يصدر عن أمرك، وسيتورَّط قريباً في فظائع لا يحسب حسابها، فتدور الدائرة عليه دون أن يفكِّر في العواقب! لقد جلستُ منذ أيام مع بعض من تفرَّست فيهم الدراية من اللاجئين إلى القدس، وكان ذا مكانة عند (أرناط) ثم فرَّ هارباً منه حين وجده يهدم بيوت النصارى وكأنَّهم أعداء، فقلت له: وأين يقصد (أرناط) بأسطوله البحري الذي صنعه من سقوف المنازل وأثاث البيوت! فقال: إنه اتَّجه فعلاً إلى جزيرة أيْلة سالكاً الطريق من رأس محمد في جنوب سيناء ليقاتل المحاصَرين بالجزيرة، وسيكونون في موقف متأزِّم، لأنهم لا يملكون من أدوات القتال ما يصدّ العدوان، وقد ظنُّوا أنَّ البحر حاجز حصين يحول دون مهاجمتهم؛ فاطمأنُّوا إلى موقعهم الأمين! وأنا لا أعرف عند (أرناط) ذرة من رحمة، فسيستأصل أهل الجزيرة استئصالاً، وربَّما عاد بالغنائم الكثيرة، ولكن إلى أمدٍ، فسيبلغ الأمر صلاح الدين! ومتى علم بهذه الفواجع غير المحسوبة، فسنجده أمامنا دون انتظار.

قال الملك: قلتُ لك إنَّنا على أبواب معركة ساخنة! وقد يخذلنا فيها أصدقاؤنا بأنطاكية وحطين وعسقلان، بل قد يفرّ (أرناط) مختبئاً حيث لا نعلم، ونقف وحدنا في جبهة الصراع! لقد دقَّت الأجراس، ولا بدَّ من التأهُّب الآن؛ فاجمع لي القادة في الصباح لنتداول الأمر من شتى نواحيه.

(٢)

كان صلاح الدين في إحدى غزواته بالموصل، وقد جاءته الأنباء متحدِّثة عن أسطول حربيّ يهاجم المسلمين في جزيرة أيْلة، ثم تتَّجه بعض سفنه إلى البحر الأحمر لتقطع الطريق على الحُجَّاج، وقد قتلت مئات الأرواح، وصادرت سفناً تجارية تحمل المؤن الضرورية من غذاء وكساء! وغرق مئات الناس في أعماق اليمِّ حين خفُّوا للدفاع عن أنفسهم وهم غير مسلَّحين؛ فاكتسحهم العدو المغير!.

جاءت الأنباء بهذه الكوارث المفزعة لصلاح الدين، فلم يذهب بثباته الحازم، بل كتب من فوره إلى أخيه الملك العادل في مصر، كي يعدّ أسطولاً بحريًّا يقوده البطل الماهر (حسام الدين لؤلؤ)، ولا يقصِّر في إعداد ما يتطلَّب الأسطول من نفقات، بل يُنشَأ ديوانٌ خاصٌّ به يُعرَف بديوان البحرية! ليعدَّ المتطلَّبات الضرورية والكمالية معاً. وسيعود صلاح الدين إلى مصر وشيكاً ليجد السفن الحربية قد أخذت عدَّتها، وتهيَّأت للغزو السريع!.

وما كاد البطل الأيوبي يهدأ في مقرّه، حتى جاءه النبأ بأنَّ أرناط قد ذبح الحُجَّاج واستولى على القوافل، وأعلن عزمه على اكتساح المدينة مقرّ رسول الله ﷺ! وقد تطاول على نبيّ الإسلام، وقال متهكِّماً: سأحرق جثّته، ولن يمنعني أحد!! هنا طار الشرر من عيني صلاح الدين، ورفع سيفه إلى السماء في ملأ من جنوده،

وأقسم أنَّه سيقتل أرناط بسيفه هذا متى وقع في قبضته، جزاءً على وقاحته السافلة! ولن يرجع في قسمه، ولكن سيعمل على تحقيقه من الآن، وصاح بمعشره هيا بنا إلى الشام، فلا مقام بالموصل بعد ما سمعناه.

وصلت رسالة صلاح الدين إلى أخيه الملك العادل على جناح السرعة، فبادر بإحضار الحاجب حسام الدين ليهنِّئه باختياره قائداً للأسطول البحري، ويخبره بثقة صلاح الدين في شجاعته الباسلة، وكان حسام الدين بطل الموقف حقَّاً إذ غمرته روح من الحماسة الدافقة أقسم عندها ألاَّ يقرَّ له قرار حتى يقود الأسطول الإسلامي إلى معاركه الظافرة عن قريب.

طالت غيبة حسام الدين عن منزله، فكان يقضي جُلَّ وقته مشرفاً على إعداد السفن الحربية، وقد قلقت أمُّه عليه، فأرسلت تقول له إنها هي وزوجته لا تعرفان القرار منذ غيابه عن المنزل هذا المدى الطويل، ومهما كانت خطورة مهمته الحربية، فلن تمنعه هذه الخطورة أن يعود إلى منزله يوماً من شهر، فيسعد برؤية أهله ويسعدوا به.

وكان حسام الدين لا يردُّ لوالدته رغبة، فبادر بزيارتها، واستمع إلى عتاب أمه، ولوم زوجته في صبرٍ باسم، ورأى أن يشركهما في بعض شؤونه الهامة، فقال لهما في رفق: إنَّ حُجَّاج بيت الله الحرام قد تعرَّضوا للقتل في (عيذاب)، إذ هجمت كتائب الصليبيِّين على الآمنين في طريقهم إلى بيت الله، فقتلوا الرجال وسَبَوْا

النساء، ونهبوا الأموال، وتعطَّل السير إلى الحجّ خيفةً من تكرار الهجوم، وعدوّ الله أرناط صاحب الكرك، يرسل سفنه المسلحة بالذخيرة لتغتال إخواننا الحجّاج، وقد عزمتُ على أن أقوم بصدٍّ هذا الطاغية، ولو بَذلتُ روحي في سبيل الله.

دُهشَ حسام الدين حين وجد أمه تنهض احتضانه باكية، وهي تصيح به: الحمد لله؛ لقد تحقَّقت البشارة الأولى يا حسام، وستتحقَّق البشارة الثانية بإذن الله، إن سعادتي بك يا بني لا تُحدّ، ولا أستطيع أن أشكر الله حقّ شكره أَنْ امتدّ بي العمر حتى بدت لعيني إحدى البشارتين.

قال حسام: لمْ أفهم ما تقولين يا أمَّاه. فلماذا تكتمين في صدرك ما يشجعني على الجهاد في سبيل الله؟ ثم بالله إلاَّ تحدّثت عن هاتين البشارتين!!.

قالت الأم: حين وُلِدتَ يا حسام تأخَّر نطقكَ لثلاثة أعوام، وأورثني ذلك همَّاً لا مزيد عليه، فكنت أقضي الليل باكيةً مُنتحِبَةً، وأرفع يدي إلى السماء طالبة من الله أن يُسعِفَكَ بالنطق، بعد صلوات أظلُّ أركع فيها وأسجد، وأطيل الدعاء في الركوع والسجود، ثم إني في ذات ليلة صلَّيتُ الفجر، وأخذتني سِنَةٌ من النوم، وكنتُ أفكر فيكَ وفي علَّتك، فرأيتُ فيما يرى النائم أنَّ شيخاً مَهيباً يتألَّق وجهه بالنور، وقد حملك بين ذراعيه وقبَّلك، ثم نظر إليَّ قائلاً: أبشري أمَةَ الله، فولدكِ سيحمي حِمى البيت الحرام، وسيهتف الناس باسمه في عرفات يوم المشهد الأكبر.

وقُمتُ من فوري فناديتُك، فأخذ لسانك ينطق شيئاً فشيئاً، فقلتُ في نفسي: ربَّما تصدق البشارتان وأُسعد بتحقيقهما، وحين خرجت في جهادك مع صلاح الدين، جعلتُ أسأل عن اتِّجاهك، فكنتُ أعلم أنَّكَ تجاهد في دمشق والمقدس وحلب والموصل، فأسأل نفسي: متى يجاهد في مكة لأفرح بتحقيق البشارة الأولى؟ فلا أجدُ ما أحب! وأنت اليوم تقول: إنَّ الحُجَّاج قد قُطِع عليهم الطريق، وأنك تستعدّ بتشييد السفن لتأخذ على أيدي المعتدين! إذا تحقَّق هذا يا حسام، ودافعتَ عن الحُجَّاج، وصارت الطريق آمنة بجهدك، فهذه أُوْلَىٰ البشارتين!.

برقتْ أسارير حسام في ابتهاج، وقال في نشوة بدت في حركاته الناشطة: والله يا أماه هذه أسعد بشارة سمعتها في حياتي ويقيني أن الله عز وجل سيساعدني على عدوي، فإذا تمَّ ذلك وأمن الطريق لبيت الله؛ فقد كملت سعادتي وأخذتُ حظّي من الحياة! ولن أسعى في مأرب دنيوي غير ما انتويت عليه من إسعاد الزائرين لبيت الله.

قالت الزوجة: لن أغضب إذا تأخَّرت بعد اليوم يا حسام، وستدعو لك أمك، وأؤمِّن على دعائها عقب كل صلاة! جاهِدْ في البحر بالسلاح، وسنجاهدُ في المنزل بالدعاء.

فردّ البطل قائلاً في هدوء آمن: على بركة الله.

(٣)

كانت الأخبار السرّية عن العدوّ المحتلّ إحدى الوسائل التي يبني عليها حسام الدين خطة هجومه، وقد علم أن صلاح الدين يرى أن يجتمع الأسطول في مكان واحد بدل أن يفترق في جهتين متباعدتين، فيسهّل على العدو مهاجمته أشتاتاً.

وقد جاءته الأنباء بأن ما تحاشاه صلاح الدين قد وقع فيه أرناط، حين قسم أسطوله البحري قسمين: قسم يقيم محاصراً جزيرة أيلة، حيث يمنع عنها كل مؤونة كما يمنع عنها قُرَب الماء الذي لا حياة بدونه، ليضطر ساكنوها إلى التسليم. وقسم يحاصر سفن البحر الأحمر القادمة من عيذاب بحجّاجها متوجهة إلى مكة، وقد لاقى هؤلاء من بلاء أرناط ما تشيب له الرؤوس حيث أعمل القتل في المساكين دون هوادة، وكلُّ خطبهم أنهم مسلمون.

وقد شمخ أرناط بآماله حين اعتقد أن البحر الأحمر قد صار ملكاً لجيوشه، إذ امتد بعدوانه إلى الحد الأقصى فاستولى على مركبين قادمين من اليمن يحملان الميرة لأهل مكة والمدينة، وانتقل إلى البر فهاجم القوافل الحاجَّة؛ لا لينهب مؤونتها فحسب، بل ليُعْمِل السيف في رجالها العُزَّل! وكانت فظائعه في هذا الباب مما لم يحدث مثله منذ شُرِعَ الحجُّ في الإسلام.

ولم يكن ليظنّ أن أسطولاً إسلامياً سيتعقّبه.. بل هو مَلِكُ

البحر الأوحد؛ لذلك اتَّجه حسام في سَرِّية تامة بكافة أسطوله إلى جزيرة أيلة، فهاجم الصليبيّين على حين غرّة، لأنهم حين رأوا السفن المصرية تتقدم إليهم، ظنُّوها سفناً أوروبية وفدت إلى معونتهم من الغرب.. وكانت الكارثة محقَّقة إذ أسفر هجوم الأسطول المصري عن تحطيمٍ تام لجميع السفن التي حاصرت أيْلة، ونزل المسلمون إلى الجزيرة ليبشِّروا المحاصَرين بنصر الله، وليقدِّموا لهم ما يطفئ غليلَهم من الماء والطعام.

ولم يشأ حسام الدين أن يستريح لحظة بعد انتصاره الأول، بل توجَّه بكلّ سفنه إلى البحر الأحمر مبتدئاً من عيذاب ليتعقَّب سفن أرناط، التي فوجئت بما لم تتوقع؛ وقد أُحكِمت خطَّة حسام الدين إحكاماً هوَّن عليها سبيل النصر، إذ استطاع على حين غفلةٍ من أعدائه إبادةَ الأسطول الصليبيّ بأجمعه، وانتقل المسلمون إلى البرّ ليتعقَّبوا الصليبيّين الذين نشطوا لاستلاب القوافل، وأمعنوا فيها قتلاً وذبحاً، فذهب أصحابها شهداء، وكانت مهمَّتهم سريعة، لأن عنصر المفاجأة قد شلّ كل مقاومة صليبية.

واستمع حسام الدين لمن يقول ممن نجَوا من الأسر: إن أرناط قد أعلن أنه في طريقه إلى المدينة، لينبش القبر الطهور، وأنَّ صاحِبه لن يملك الدفاع عن نفسه، حين يهجم على اللحد الأمين! سالت عَبْرة حسام الدين وهو يسمع ذلك الوعيد الأثيم، ثم تذكَّر بشارة والدته فعلم أنَّ الشيخ المبارك قد صَدَقها القول حين تحدَّث عن الطفل الصغير، ولم يشأ أن يرجع بعد هذا الانتصار إلى مصر

قبل أن يحجّ بيت الله مع الناجين من عذاب أرناط، فكان يُستقبَل في كلّ مشعر استقبال الفاتح الظافر، ثم جاء موقف عرفات، فرأى المسلمين يقبلون عليه مغتبطين سعداء، ويرفعون أكفّهم بالدعاء له في هذا اليوم المشهود، فاستعبرت عيناه سروراً، وقال في نفسه: هذه هي البشارة الثانية!

انتهت هيمنة الأسطول الصليبيّ باندحاره على يد حسام الدين، وطارت أنباء انتصاره إلى مصر حين رجع الأسطول محمَّلاً بالأسرى، وقد عُرضوا مكبَّلين في شوارع الإسكندرية والقاهرة، يركبون الجمال ووجوههم إلى أذنابها، على عادة المهزومين في تلك العصور.. وقُرئ خطاب الفاضل بساحة القلعة مهنِّئاً بالنصر، ومثنياً على أمير البحر حسام الدين لؤلؤ بلسان صلاح الدين! فكان الفرح يهزُّ النفوس، وقد هرع حسام الدين إلى أمِّه وزوجه ليقول في جَذَل: تحقَّقت البشارتان يا أمَّاه!!.

* * *

بَيتُ المَقْدِس

يقول المتنبِّي:

كـلُّ حلـمٍ أتـى بِغَيـرِ اقتِـدار حجَّـةٌ لاجـئٌ إليهـا اللّئـامُ

وقد طُبعَ صلاح الدين على الحلم، وقد تجلَّى ذلك في مواقف كثيرة شملتْ ماضيَ حياته، ولكنَّ ما ظهر من حلمه بعد موقعة حطين كان مصدر الإعجاب من أعدائه قبل خصومِه، وبهذه الروائع المدهشة سار له ذكرٌ حميد بين كتَّاب أوروبا، حيثُ جعلوا يوازنون بين نبله المشهود وحِلمه المتكرِّر، وما يقترفه مناوئوه ممن يتزيّون بأزياء الملوك، فلا يجدون أدنى شبهٍ بين ملكٍ رحيم، وانتهازيّ طامع، ولم ينكر كثير منهم اشمئزائهم من مسْلِك (أرناط) حتى لُقِّبَ لديهم بـ(الفارس اللص)[1].

وهو وصفٌ متناقض في رأيي، لأنَّ إضفاء معنى الفروسية على هذا الغادر الناقض لكل عهد؛ افتئاتٌ جائرٌ عليها، فالفروسية ليست شجاعة فحسب، ولكنها مروءة وشمم وإباء، وقاطعُ الطريق شجاعٌ جريءٌ، ولكنَّ أحداً ما لا يصفه بالفروسية.

---

(١) الناصر صلاح الدين، (ص ١٦٥).

لقد كان صلاح الدين في زهو انتصاره بعد معركة حطين. . سيقت إليه ملوك الفرنجة سوق الشياه، فعفا وتسامح، ونظر إلى المأسورين نظراتِ العطف والحنوّ، وكأنَّهم أسرى مسلمون لا أسرى أعداء، ولا أنكر أنَّ بعض العواقب الوخيمة قد جرت نتيجةً لهذا التسامح البالغ مداه، وهي موضع مؤاخذة ناقدة ممن محّصوا سيرة صلاح الدين، ولكنها مؤاخذاتٌ تقف عند حدٍّ معتدل، وقد وُجِّهَ ما يُشابهها لأبطالٍ عظام من أبطال الفروسية الأصيلة؛ كعلي بن أبي طالب، ونور الدين محمود، ولم أرَ نقداً يرتفع بالمنقود كهذه الهنات، وقد يخسر القائد معركةً وهو شريف نبيل، تُساق إليه عبارات التجلّة والتقدير، وقد يكسبُ قائدٌ معركة، وهو لدى ناقديه وَغْدٌ وقاطعُ طريق؛ فالمسألة ليست كسْبَ مواقع، وانتصار قادة، ولكنها فوق ذلك كلّه مسألةُ بواعث ونيّات.

كان من القوّاد الذين أُسروا في معركة حطين (باليان الثاني) وقد توسَّل لصلاح الدين وركعَ على قدميه راجياً أن يطلقَ سراحه، فتأثَّر السلطان لمذلَّته وانكساره، وتعاهد معه على أن يذهب إلى مقرِّ حكمه ببيت المقدس ليجمع أولاده وأمواله، وينتقل إلى إمارةٍ أخرى.

ولم يصدِّق (باليان) عفو السلطان؛ فانهار على يده لثماً وتقبيلاً، ولكنه حين انتهى إلى بيت المقدس، أعلنَ غدره استجابةً لرغبة مَن بها من الفرنجة، وقد غرّه أن يجد جموعاً كثيرة تُعلن وقوفها معه أمام صلاح الدين، فظنَّ أنَّه سيكسبُ جولةً قادمة، وأخذ

بجمع الرجال والصبيان جميعاً، وكلَّ من بلغ الخامسة عشرة من التجار والصنَّاع والنقلة، واتَّجه إلى كنيسة القيامة فاستولى على ما بها من النفائس والجواهر، وما علِق بالصُّلبان والهياكل من حُليّ، وجمع الأواني الذهبية والفضية، وصهر ذلك كلّه نقوداً يستعين بها على قضاء حاجات المرتزقة من الجند خارج بيت المقدس وداخله، حتى كوَّن جيشاً كبيراً، واستعدّ لمواجهة صلاح الدين.

وقد علم السلطان بما دبَّره هذا الأسير المعتوق، فلم يشأ أن يُجابههُ في فورةِ حماسةِ جنده، بل أظهر أنَّه عَدَل نهائياً عن غزو بيت المقدس، واتَّجه إلى المُدن الساحلية ليستولي عليها مدينةً مدينة؛ إذ توقَّع زُحوفاً كثيرة من الغرب ستصل إلى الساحل عن طريق البحر انتقاماً لمعركة حطين، فإذا سقطتْ مدنُ الساحل كان ذلك صدمةً للقادمين، وقطْعاً للاتصال البحريّ بين القادم والمحاصَر. هذا إلى سرعة الاتِّصال بين مصر والشام، لأنَّ الطريق بعد زوال هذه المدن من قبضةِ الفِرنجة يصيرُ آمناً بين الإقليمين، ولا يحتاجُ إلى حراسةٍ قوية كما كان الأمر قبل الاحتلال.

هذا عن بعض المدن الساحلية، أما عكَّا من بينها فقد كانت تحت حكم (جوسلين) وقد نجا من هول المعركة السابقة، وظلَّ في رُعْب من الجيش الإسلامي، فآثر أن يسلِّم المدينة لريمونود الثالث أمير طرابلس وينجو بنفسه، ولكنَّ صلاح الدين عاجله قبل أن يتمَّ مراده، فلم يشأ أن يُبدي مقاومة ما، وأرسل إلى السلطان مفاتيح المدينة على أن يؤمِّنَ الأهل على أرواحهم وأموالهم وممتلكاتهم،

فأجاب السلطان مُلتزِماً بما تعهَّد، ولكنَّ جانباً آخر من المحاربين داخل عكا لم يَرُقْهُ أن يخضع (جوسلين) هكذا، فصمَّم على القتال بدايةً، ثم أدرك أن الهزيمة واقعةٌ لا شك فيها، فأشعل النار في أحيائها ومبانيها، وحدَث ذعرٌ هائلٌ بين الناس، واتَّجه الفرنجة إلى هؤلاء يتساءلون: هل سيحرقُ صلاح الدين المدينة إذا استولى عليها كما تفعلون؟ وإذا كان هذا الحادث مصدراً لكارثةٍ عامة فبأي عقلٍ تحرقون وتدمِّرون؟.

وقد استطاع صلاح الدين أن يقتحم عكًّا دون مقاومة؛ فساءه ما شاهد من الدمار المزعج، واسترضى الناس صافحاً، ووهب لهم عصمة الأنفس والأموال، وكان من أثر احتلاله المدينة أنْ أطلق أربعة آلاف أسيرٍ من المسلمين كانوا يعانون هول الأسر في ضيق الأعداء، وقد شكَوْا إليه فَظائع مُنكرَة كانت تصبُّ عليهم، وعيَّنوا أسماء المجرمين وعدَّدوا شنائعهم البغيضة، ولكن صلاح الدين شاء أن يمارس مذهبه في العفو، فلم يأخذ بثأرٍ من أثيم.

وإذا كانت عكا والناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية وقعليا وقعت غنيمة سهلة لصلاح الدين؛ فإن قلعة (تُبنين) وهي إحدى القلاع المنيعة ذات الذخيرة الهائلة ـ لم تُسلِّم عن طوع؛ بل كلَّفت قائدَ (صلاح الدين) وهو ابنُ اخته القائد البطل (حسام الدين لاجين) عناءً كبيراً؛ حتى اضطر إلى الاستنجاد بالسلطان، فرأى من الحزم أن يسير إلى القلعة بنفسه، وأن يُحكِم الحصار ويشدّد الضرب؛ فاستسلمت القلعة، وقدَّر صلاح الدين رجولة أبطالها فسمح لهم بالخروج في أمان.

وواصل صلاح الدين الزحف إلى بيروت، فتمَّ له الاستيلاء عليها، وهي كما يقول ابن الأثير: أحصَن مدن الساحل في بلاد الشام. ولم يشأ السلطان أن يهدأ بل واصل السير إلى (جُبَيْل) فاستولى عليها، وألقتِ المقادة عن طوع، ومع هذا النجاح المطَّرد فإنَّ سماحة صلاح الدين قد اتسعت حتى غفلت عن عواقب هامة حين سمح للفرنجة أن يبقوا بالمدن المفتوحة مع ذخائرهم وآلاتهم الحربية، ومَنْ رحل إلى مكانٍ آخر أخذ معه أسلحته، ليتجمَّعوا فيما بعد في حشودٍ متلاحمة! وكان على صلاح الدين أن يجرِّدهم من كلِّ سلاح، وإذا سمح بالخروج لمن شاء؛ فليخرج أعزل من سلاحه، وإنْ حمَلَ معه ماله! هذه ناحيةٌ بارزة من نواحي النقد الموجَّه إلى صلاح الدين، ولعلَّه رأى أنَّ انتصاره القادم في معركة بيت المقدس سيقضي على كلِّ مقاومة يحاول أن ينهض بها هؤلاء، بل لعلَّه لم يكن يعلم شيئاً عن الذخائر الحربية المدفونة في الأغوار بهذه البلاد، إذ لو كانت لديهم هذه الذخائر ـ في ظنّه ـ لأعلنوا المقاومة الجريئة، ولما آثروا الاستسلام!.

انتصر صلاح الدين حين حرَّر بعض المدن الفلسطينية متَّجهاً إلى بيت المقدس، وبيتُ المقدس كان بيت القصيد الأول منذ معركة حطين، ولم يشأ أن يدهَم المدينة على حين غرَّة، حفاظاً على أرواح أهلها من ناحية، وتقديراً لما بها من مقدَّسات دينيّة لها اعتبارها الأكيد، فأرسل رُسلَه إلى (باليان) يذكِّره بالعهد السابق، فعرضَ عليه أن تُسلِّم المدينة بشروط آمنة قَبِلَها الفرنجة في مُدُنٍ

مجاورة؛ وأهمّها الأمانُ على الأرواح والأموال والنساء والأولاد، والسماح بالرحيل لمن لم يشأ أن يقيم ببيت المقدس!.. ولكنَّ (باليان) أصرَّ على موقفه.

وكان موقفاً رائعاً لصلاح الدين أن تأتيه رسالة من زوجة (باليان) وهي الملكة (ماريا كومنين) ترجو منه أن يوفِّر لها الحراسة الآمنة حتى تنتقل بحاشيتها من بيت المقدس إلى طرابلس! ومع ما يعلمه السلطان من أنَّ الرسالة من وحي زوجها الماكر (باليان) وبتدبيره؛ حرصاً على زوجته وأولادها؛ إذا اشتعلت نيران الحرب فيما بعد ـ فإذا بصلاح الدين يرحِّب بالرسالة، ويستجيب للملكة، ويطلب منها أن تعلن أنَّ السلطان لن يعترض سبيل أي راحل من المدينة من النساء والأطفال والشيوخ؛ لأن هؤلاء ليسوا من أهل الحرب، وهو لا يحارب إلاَّ مَن يرفعُ السلاح في وجهه.

ومن أظرف ماواجهه حين أعلن ذلك؛ أن صليبيّاً تقدَّم إليه يسأله: إذا كان السلطان يعلن سماحته هكذا؟ فلماذا حضر إلى بيت المقدس؟ وكان هذا سؤالاً يظنه السائل مُسْتَعْصِيَ الإجابة، وكأنَّه تصوَّر أنَّه يضع صلاح الدين في مأزق أمام أخلاقه الصريحة..

وبكلِّ هدوءٍ قال صلاح الدين للسائل: أكانت المدينة لكم أم أنَّكم جئتم فاغتصبتموها من أصحابها، وأسلتُم أنهار الدماء في يومٍ مشؤوم تتحدَّثون عنه بالإعجاب؟! ووقف السائل لا يدري ماذا يقول، فقال له صلاح الدين: اذهب سالماً ولن يعترضك أحد،

وقل لمن أرسلوك: إنَّنا لا نحاربكم في أوروبا، ولم نخترِق البحر بسفُننا كي نزعجكم في دياركم، ولكنَّكم اعتديتم على الآمنين، فكان من رسالتنا أن نردَّ الاعتداء.

أخذ صلاح الدين يدرس جوانب المدينة، وقد رآها أخذت مناعتها في أكثر اتجاهاتها، وحشدت الذخيرة والجيوش بداخلها تأهُّباً للنزال، ولمَّا كان من همّه أن يكسب النصر دون خسارةٍ هائلةٍ في الأرواح فقد تريَّث حتى يجد المنفذ المريح نسبياً لاقتحام المدينة، وقد وجده في الناحية الشمالية؛ فبادر باقتحامها.

وأدرك (باليان) بعد أن صار المسلمون في قلب العاصمة أنَّ المقاومة ستكون صعبة بالنسبة إليه ومَن يتزعّمهم من الفرنجة؛ فعمل على الاتصال الدبلوماسيّ بقادة الجيش الإسلامي رجاء أن يستعطفوا صلاح الدين، ودارت مفاوضاتٌ عسيرة انتهت بأن يغادر الفرنجة بيت المقدس مقابل فدية مقرَّرة، فيدفع الرجل عشرة دنانير، والمرأة خمسة، والطفل ديناراً واحداً، أما الفقراء فعلى (باليان) أن يدبِّر في افتدائهم مبلغاً إجماليَّاً يرضى به السلطان، في مدى أربعين يوماً!

وسارع القوم في استنقاذ أرواحهم، وقد باعوا الكثير من الأثاث بأرخص الأثمان لصلابة حمله في الطريق.. وبدأت رحلة الجلاء!!.

لقد عقد مؤرخو الفرنجة موازنات بين مَسْلك صلاح الدين حين مَلَك بيت المقدس، ومَسْلك الفرنجة حين فعلوا المذابح

الرهيبة يوم أن احتلُّوا المدينة ـ وقد أشرتُ إلى بعض أهوالهم في الفصل الأول من هذا الكتاب، فلا أعيد شيئاً منه؛ لأنَّه أصبح من الاشتهار بمنزلة الكلام المعاد.

كما سجَّل مؤرخو الفرنجة أنفسهم ما كان من سماحة السلطان حين أظهر عفواً تامَّاً عن فقراء الفرنجة رحمةً بعِوَزهم، وكذلك فعل أخوه الملك العادل حيث افتدى المئات بكثيرٍ من ماله الخاص.. وكان من المفارقة المدهشة أن يفتدي الملك العادل فريقا كبيراً من الصليبيّين بماله، وأن يأبى ذلك هِرَقلُ بيت المقدس، وهو البَطْرَيَرْك الديني الأكبر بالمدينة؛ إذ جمع قناطير الذهب من الكنيسة، وساقها أمامه، ثم قدَّم لصلاح الدين عشرة دنانير فِداءَه وحده، ولم تسمح له مشاعره المتحجِّرة أن يرحم من سألوه من أبناء دينه أن يفتديهم ببعض ما يحمل، مع أنه جمع هذه الكنوز من عرقهم الكادح.. وأنقل بعض ما قيل في هذا الصدد[1]:

«قيل للسلطان، والبطريرك خارجٌ بأمواله وذخائره، وكانت كثيرة جدَّاً، لم يصرفها في فداء الفقراء والمساكين ـ كما يقول استانلي ـ: لِمَ لا تصادِرْ أموال هذا الشحيح لتستعملها فيما تقوّي به أمر المسلمين، فقال لهم لسلطان: لا آخذ منه غير عشرة دنانير، ولا أغدر بعهدي!!».

ويقول استانلي أحدُ مؤرخي الفرنجة: «لقد وصل الأمر إلى

---

(١) حياة صلاح الدين الأيُّوبي، للدكتور أحمد البيلي (ص ١٧٦).

أن سلطاناً مسلماً يُلقي على راهبٍ مسيحيٍّ درساً في معنى البِرّ والإحسان».

على أنَّ صلاح الدين لم يرفع الفدية عن فقراء الفرنجة فحسب، بل أعطاهم مما لديه، حين رأى عدداً كبيراً منهم يحمل على ظهره أباه أو أمَّه، أو قريبه المريض، فأثر في نفسه ما شاهده، وأمر بالدواب ففُرِّقت عليهم، وبالمال فأُعطي لهم! أما الملكة (سيبيل) فقد جاءته باكية تطلب الوصول إلى زوجها بنابلس، فاستجاب إلى رغبتها، وبعث بها حيث تريد في خفارةٍ من جنده، وقد تبعها عددٌ كبير من النساء والأطفال، فلم يشأ أن يعترض طريقهن، وقد أدركنَ تسامحه، فرجعنَ إليه باكيات، وقُلنَ له: لقد أذِنْتَ برحيلنا دون فدية، وفي بيت المقدس أزواجنا الرجال، وإخواننا لا يملكون ما يفتدون أنفسهم به، وهم عُدَّتنا في حياتنا، وسلاحُنا في أيامنا، وأكثرهم في أَسْرِك، فإذا تفضَّلت علينا بإطلاقهم، حفظتَ علينا كرامتنا، إذ لا بقاء لنا بدونهم، ثم تساقطتْ دموعهنَّ ألماً وحسرة، فبكى صلاح الدين بكاءً شديداً متأثِّراً بما سمع، وأمر بإعطاء الأمَّهات أبناءهن، والزوجات بعولتهن، والبنات آباءهن، وكان موقفاً من مواقف الرحمة لا يملك القلم أن يوفيه حقَّه من الإعجاب.

فإذا قارنت ذلك بموقف صليبيّ آخر تحدَّث عنه أحد الفرنجة فيما نقله الأمير علي وترجمه الدكتور البيلي بقوله[1]:

---

(١) حياة صلاح الدين الأيُّوبي، للدكتور أحمد البيلي (ص ١٧٥).

«ذهب عدد من المسيحيين الذين غادروا بيت المقدس إلى أنطاكية، فلم يكن نصيبهم من أميرها إلا أن أبى عليهم أن يُضيفهم، فطردهم، فهاموا على وجوههم في بلاد المسلمين، فقوبلوا بكل ترحاب. وفي الفرنجة مَن لم يكتفوا بطردِ إخوانهم من بلادهم، بل تعقَّبوهم في مسيرهم القانط، وأخذوا يسلبون بقايا ما حملوا من أموالٍ كانت تحت حوزتهم في بيت المقدس، حتى تضوَّر بعضهم جوعاً، وسقط خائراً وسط الطريق ينتظر الموت، وقد اضطرَّت بعض السيدات أن تلقي بولدها في اليمِّ لترحمه مما يلاقي من العذاب جائعاً مريضاً، ولا حول لها في إنقاذه، وظلَّت بعد ذلك تبكي كالمجنونة وتلطم، وتلعن أبناء دينها!!.

شاعَ تسامح صلاح الدين بين الفرنجة، كما شاعت رحمتهُ بالأرامل والنساء خاصّة، وقد تقدَّمت إليه عروس شابة وهو يحاصر حصن (برزيه)؛ فقالت إنها كانت ستُزَفُّ إلى شابٍّ وقع في أسره، وكان ميعادُ الزفاف بالأمس، لولا أنَّه أصبح أسيراً، ثم انهارت دموعها؛ فأمر السلطان بإطلاق الأسير، وأهداه إلى عروسه، ومنحهما بعض المال!!.

أما قصَّة الأم التي اختُطِفَ طفلُها من حضنها، وفرَّ به المختطفون إلى حيثُ لا تقدر على ردّه، فرأت أن تستنجد بصلاح الدين، فأمرَ بالبحث عن الطفل، وأجلسها في خيمته مكرَّمة حتى وفِّق إلى استرداده.. هذه القصة، قد كانت مصدراً فنيّاً لإلهام أقلامٍ كثيرة في الغرب، ولعلَّ الأديب الكبير الأستاذ علي الطنطاوي

كان أول من جلاَّها من كتَّاب العرب بأسلوبه المبين على صفحات الرسالة تحت عنوان (هيلانة ولويس)[1]، إذ صارت من بعده مدداً لمسرحيات إذاعية سمعها الجمهور، ولو رُزِقَت مآثر صلاح الدين من يجلوها هذا الجلاء الفنّي الخالب؛ لأغنت عن ترجمات هزيلة هابطة تُذاعُ علينا دون استحياء.

وفي هذه الفرصة الغامرة التي استولت على المسلمين؛ لم يشأ صلاح الدين أن ينسى أستاذه وقائده نور الدين زنكي؛ إذ كان يعلم أنَّه أعدَّ منبراً للمسجد الأقصى ليضع فيه حين يقوم باسترداده، فعمِلَ على إحضار المنبر ليحقِّق رغبة الفارس الشهيد! ثم سأل عن أكبر خطيبٍ دينيّ في البلاد يكون أول من يرتقي هذا المنبر مسجِّلاً ببيانه فرحة النصر المشهود، فعلمَ أنَّ القاضي محيي الدين محمد بن علي ـ المعروف بابن الزكي ـ هو خيرُ مَن يقوم هذا المقام، فأرسل مَن يدعوه.. وفي يوم الجمعة الأوَّل من فتح المدينة ارتقى ابن الزكي منبر نور الدين، وألقى خطبة عبَّرت عن مشاعر الجمهور الإسلامي، كما عبَّرت عن هذه المشاعر مئات القصائد التي سأُشير إلى نموذج منها في فصل تالٍ.. والخطبة ذاتُ طولٍ مُسهَب؛ لأنَّ المقام يدعو إلى الإطناب تنفيساً عن مشاعر صادقة تجيش في نفوس السامعين، ومن بين ما قال هذه الفقرات:

«هذا هو الفتحُ الذي فُتِّحت له أبواب السماء، ويوشكُ أن يفتح الله على أيديكم أمثاله، وأن تكون التهاني لأهل الخضراء أكثر

---

(١) العدد الممتاز من مجلة الرسالة، سنة ١٩٣٩م.

من التهاني لأهل الغبراء، أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١].. أليس هو البيت الذي أمسك الله لأجله الشمس على يوشع أن تغرب، ليتيسَّر فتحُه ويقرب.. أليس هو البيت الذي أمر الله عزَّ وجل موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يُجبه إلاَّ رَجُلان، وغضب الله عليهم من أجله؛ فألقاهم في التيه.

فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما نَكَلَت عنه بنو إسرائيل، وقد فُضِّلَت على العالمين، ووفَّقكم لما خُذِلَت فيه أممٌ من قبلكم، كانت من الماضين، واعلموا رحِمَكم الله أنَّ هذه فرصةٌ فانتهزوها، وفريسةً فناجزوها، فالأمور بأواخرها، والمكاسب بذخائرها، ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥].

وفي بعض ما قال الخطيب، ما يرسمُ روعة المشهد، وجلال المقام، وعِظَم الموقف وخطورته.

* * *

مَعَارِكُ عَكَّا

جلسَ عبدُ الرحمن الناصر في أخريات أيامه بعد أن أحرز نصراً كبَّده كثيراً من المشاق حتى كاد يفقد حياته، فرأى القوم على وجهه ما يوحي بالألم المبرّح، وكأنَّه لم يكسب النصر على أعدائه، فقال أحدُ جلسائه متعجِّباً: فيمَ تفكِّر يا أمير المؤمنين؟ فقال الناصر: فكَّرتُ في أنّي قضيتُ في الحكم خمسين عاماً ونصفاً، وجعلتُ أبحث عن أيـام السـرور التي وقعت لي في هـذا المدى المتطاول، فوجدتها أربعة عشر يوماً فقط!! وأستطيع أن أعدّها الآن!!.

وما قاله عبد الرحمن الناصر عن هول ما كابد من الصراع المحتدم طيلة حياته يُمكنُ أن يقوله البطل الخالد صلاح الدين، مع إهمال الفرق الواضح بين مقدار الزمن لدى الرجلَين، فصلاح الدين لم يعرف للهدوء طعماً منذ امتشق السيف مجاهداً في سبيل الله! وقد ذاق حلاوة النصر بعد فتح بيت المقدس، لا كما يذوقها إنسان متسرِّع لا يزن عواقب الأمور، بل كما يذوقها بطلٌ مجرِّب يعرف أنَّ أوروبا جميعها ستنتفض رعباً حين تعرف أنَّ بيت المقدس الذي زعمت أنها حاربت من أجله، قد أسلم مقاليده لصلاح الدين، وأنَّ

الجيوش من شرق أوروبا وغربها وجنوبها وشمالها ستُهرع للانتقام، فإذا كان من بقي من الصليبيّين بالشرق لن يقوموا في وجهه، فإنَّ المدد الزاخر الهائل سيجعل الصليبيِّين قوَّة خارقة تُواجه جيش صلاح الدين الذي يحارب دون مدَد منتظَر.. يَعرفُ ذلك صلاح الدين، فيرفع رأسه إلى السماء طالباً عون ربّه، وليس له في الشدائد سواه.

لقد تحقَّق ظنُّ صلاح الدين، وزحفت الحملة الصليبيّة الثالثة على المشرق بقيادة ملك الألمان (فريدريك) وملك إنجلترا (ريتشارد ـ قلب الأسد ـ) وملك فرنسا (فيليب أوجوست)، ثلاثةُ ملوك كلّهم يريد أن يدوِّي اسمه في الشرق والغرب معاً، وكلّهم يُخفي في نفسه شيئاً واحداً؛ أن يكون جيشه صاحب الصيت المدوّي في العالم المسيحيّ؛ لتصبح أوروبا طوعَ أمره إذا عرفت أنَّه حامي حمى المسيح!.

وأستوقف نفسي قليلاً عند مَن أرَّخوا للحروب الصليبيّة، فحصروها في حملاتٍ سبعٍ معدودة.. وهذا خطأٌ أيُّ خطأ، لأنَّ هذه الحملات المعدودة هي التي ساقها الملوك وحدهم؛ أما الجيوش التي وفدت دون رعاية ملكٍ خاصٍّ بل بتأثيرِ دعاة الكنيسة من القُسس والرهبان، فلم ينقطع لها مددٌ طيلة هذه الأيام السود.. فإذا كانت الحملة الأولى هي التي وفدت في مفتتح الحروب الصليبيّة بدءاً في عُرف المؤرِّخين من الفرنجة، وإذا كانت الحملة الثانية التي وفدَت بعد سقوط الرُّها على يد البطل عماد الدين زنكي، وإذا كانت الحملة الثالثة هي التي قدمت الآن بعد تحرير

بيت المقدس ـ فإنَّ أكثر من مجموع هذه الحملات الثلاث قد تدفَّق عبر البحر إلى الشطوط العربيَّة تدفُّقاً لا ينقطع، فعلى الذين يؤرِّخون الحرب الصليبية في ضوء ما يحصرون من الحملات السبع أن يراجعوا حسابهم متأمِّلين.

زحفت جيوش الملوك الثلاثة إلى الشرق، وتحقَّق ما ظنَّه صلاح الدين، وكان حين أتاه النبأ الخطير يحاصر حصن الشقيف في الجبل، فأدرك أنَّ الساعة قد حانت، وأنَّ كل النُّذُر توحي بأنَّ الأعداء سيتَّجهون إلى عكا؛ عكَّا التي انتصر عليها ولم يشأ أن يُخرِجَ الفِرنجة منها، بل غمرهم بتسامحه، وكأنَّه ظنَّ أنَّ عفوه سيكفيه شرَّ مقاومتهم، وهنا أصدر أمره باجتماع مجلس شوراه الحربي، وأخذ يُديرُ الرأيَ على كافَّةِ وجوهه، وكانَ المجلس بين أمرين: إما أن ينهض الجيش الإسلامي لملاقاة الزاحفين على الساحل قبل أن يأتوا إلى أسوار عكَّا، وهذا رأيُ صلاح الدين، وإما أن ينهض الجيش إلى عكَّا لتكون ساحة القتال، وهذا رأي الأكثرية في المجلس.

وقد حذَّر صلاح الدين أصحابه أن يتمسَّكوا بهذا الرأي، لأنَّ القوم لو اتَّجهوا بقواهم الكاملة إلى عكَّا، فسيختارون المكان اللائق للنزال، ويكونون بذلك أصحاب الرأي في توجيه القتال، وقد تتزاحم جيوشهم المتراصَّة حول أسوار عكَّا فيحكمون قبضة الحصار على المدينة، وأكثرُ مَن فيها من المسلمين، فلا يصلٍ إليهم ما يُعينهم على الحياة، أمَّا خصومهم من الفرنجة بها فسيتلقَّون من إخوانهم ما يريدون، فَيَقوَون على منازلة المحاصَرين، وتكون

المدينة ذات بلاءَيْـن، بلاءٌ داخليّ، وبلاءٌ خارجيّ!.

كان هذا رأي صلاح الدين، ولكنه لم يجد سميعاً؛ فترك مهاجمة الساحل كي يصدّ التيار الزاحف، واتَّجه بجيشه إلى عكّا، وجعل يطلب الأمداد الحربية من مصر والشام لتكون عونه في مهبّ العاصفة!! أما البحرُ فقد امتلأ بسفن الفرنجة حاملةً آلاف الآلاف من الجنود، وآلاف الآلاف من الذخيرة الفاتكة، وبهذه الأساطيل ضمن الصليبيُّون محاصرةَ مَنْ يأتي لغوث المدينة، وإعاقة مَن يزحف من المتطوِّعين تلبيةً لنداء صلاح الدين، وقد أدرك البطل رهبةَ الموقف؛ فكان همّه الأول أن يجد ثغرةً في سور عكا يستطيع أن يقف دونها، ليرسل منها إلى المدينة ما تطلبه من الضروريات! حتى يقدر المحاصَرون على المقاومة، ويقول مؤرِّخوه أنَّه في هذه الأزمة مكث ثلاثة أيام دون أن يأكل كسرة خبز، إذ كان لا يسيغ أن يطعم شيئاً وأشجانه تتزاحم في صدره، ومازالتْ حملات التناوش بين الجانبين تتردَّد على فترات مدى شهر ونصف، حتى حشدَ الصليبيُّون جهودهم لعملٍ حاسم، فدارت معركةٌ رهيبةٌ كانت خاتمتها نصرَ الجيش الإسلامي، ولكنْ بعد سقوط آلاف الشهداء من المسلمين.. سقوطهم دون تعويض.

جمع صلاح الدين أبطاله بعد هدوء المعركة، وكان من رأيه أن يواصل القتال، لأنَّ عكا لا تزال محاصرة، وإذا تراجع الصليبيُّون أمامه فلوَقتٍ يسير حتى يجمعوا جيشاً آخر، ولكنَّ أكثرية القوم رأوا أنَّ الجيش في حاجةٍ إلى الراحة بعد هذا العناء الكارب، وأنَّ

انسحاب الفِرنجة يُتيح للمسلمين أن يلفظوا النفس، فيذوقوا برد الراحة قليلاً من الزمن، والوقت وقتُ شتاء، فلا ضيرَ إذا انقطعت أسباب القتال به، وعلى مَن يريد أن يذهب من المجاهدين للقاء أهله رَدْحاً من الزمن أن يستقلّ، على أن يعود بعد انقطاع الأمطار، وستبقى كتائب الحرس الإسلامي حول الأسوار لإمداد المحاصَرين بما يعوزهم من القوت الضروري!.

هكذا استقرَّ الرأي، وهكذا حدثت هدنة تلقائية بين الفريقين لم تُكتَب لها شروط ملزمة، وإنَّما فرضتها قسوة الشتاء، وهطول السيول، ولم يكن سبيل الاتصال بالمدينة سهلاً؛ بل كان في بعض أموره أشبه بعمليَّات فدائية ينتهي بعضها بالاستشهاد، حين تنهال السهام على المتسلِّلين في حندس الليل، بعد أن يسبحوا في الماء مع ما يحملون من الزاد ليلجوا الأسوار من أمكنةٍ يظنُّونها أكثر أماناً، وللفدائيّين في هذا المجال مآثر لو كُتِبَت بريشة مصوِّر لكانت مبعث دهشة خارقة، وسأخصُّ بعض هؤلاء الأبطال بحديث مستقلّ تالٍ يوضِّح مبلغ فدائيته، ذلكم هو البطل عيسى العوَّام، الذي قام وحده بما لا يقوم به عشرة أبطال!!.

ولكن كيف دارت المعركة؟

بدأ الصليبيُّون المعركةَ بمشهدٍ كنسيّ يثيرون به عواطف المقاتلين من الفرنجة، حيث أراد الملك الصليبي أن يُحمَل الإنجيل بين يديه على بساطٍ أخضر، يسير به أربعةٌ من القُسُس يمسكون به من أطرافه الأربعة، وهم يردِّدون آيات منه، وامتدَّت ميمنتهم مقابلةَ

الميسرة التي بها الجيش الإسلامي. وهنا أراد صلاح الدين أن يشجِّع جنوده بأنْ توسَّط المعركة وعن يمينه ولده الملك الأفضل، ومن حوله حشدٌ من الأمراء الكبار، أجاد تحديد أمكنتهم في الميسرة والميمنة والمقدِّمة والساقة؛ منهم قطبُ الدين بن نور الدين صاحب حصن كيفا، وحسامُ الدين بن لاجين صاحب نابلس، والملك المظفَّر تقي الدين بن عمر صاحب حلب، وجماعةٌ من أمراء الأكراد وسنجار والهكَّارية والمهرانية والأسدية، وكلّهم يشتعل حميّة وحفيظة!!.

وابتدأ العدوّ القتال حيث تحرَّكت ميسرته نحو ميمنة المسلمين، فواجهها الملك المظفَّر بسطوة شديدة، وأدرك السلطان شدَّة الهجوم عليه؛ فأسرع من القلب إلى نجدته، واختلط القوم في المعمعة، وهنا جعل السلطان ينتقل صائحاً بالمسلمين: مرحباً بالاستشهاد. وكان يخترق الصفوف، والسهام تتساقط من حوله دون أن يعبأ، وقد انكشف موقعه فجأة بحيث لم يبقَ في حمايته غير خمسة من الأبطال، فلم يتراجع وجالَ بسيفه هاجماً، ورأى المسلمون فراغ الموقعة حوله، فتوافدوا إلى ساحته، وإذا كان بعض الهالعين قد فرَّ من المعمعة، فإنَّ السلطان قد استطاع أن يجمع حوله من الأبطال من اشتدُّوا في القتال، وكان لا يترك التفكير الجيد في إحكام الخطَّة وسْط ما يكابد من الهول، فقد رأى جند الفرنجة ينزلون من التلّ، فمنعَ جنوده من تتبُّعهم، حتى يولُّوا ظهورهم راحلين، وإذ ذاك باغتهم صلاح الدين من الخلف فذُعِروا، وكثُرَ فيهم القتل، واشتدُّوا في الهرب، فتعقَّبتهم الكتائب المسلمة، واستمرَّت المعركة حتى كاد المغرب يؤذّن، فصلّى المسلمون صلاة العصر، وبدؤوا يستريحون.

اجتمع صلاح الدين بمستشاريه في خيمته الخاصَّة، وقد أبدى سروره بما تمَّ من النصر في ذلك النهار، وكان القاضي عيسى الهكاري، وهو الفقيه العالم، يجاوره في لهيب المعركة، ومعه سيفه البتَّار، فأبلى بلاءً حسناً، وكان موضع إعجاب السلطان، وممَّا يذكر أنَّ أخا القاضي المسمَّى بظهير الدين قد استشهد في ذلك اليوم؛ فأقبل عليه الأمراء يعزُّونه، فجعل يضحك مسروراً، ويقول: هذا يوم التهنئة لا العزاء، فقد نال الشهادة!!.

وكان مما يشغل بال السلطان أنَّ الفرنجة صنعوا ثلاثة أبراجٍ عالية، طول البرج الواحد خمس طبقات، وكلّها مملوءة بالمقاتلة، وقد أحاطت بسور عكّا، وجعلت تقذف المسلمين في داخلها بوابل من السهام، وترمي بالقذائف النارية إلى مدىً يصل إلى المنازل الآمنة فيشعلها بالحريق، وقد كانت هذه الأبراج الحصينة مجلَّلةً بجلود مبتلَّة بالخلّ، إذ نُقِعت فيه كيلا تؤثّر فيها النار إذا داهمتها من قذائف المسلمين، فكانت القذائف النارية تصل إليها ولا تبلغ منها شيئاً، والسلطان ضائق ذرعاً بما يشهد من فتكها المدمِّر بالمسلمين، وزاد في حزنه أن جاءته رسائل الطير تخبره عن أثر ما تُحدثه الأبراج من التدمير المبيد، فأمر السلطان بالزَّحف إلى جيوش الفرنجة كي يُلهي الأبراج عن قذائفها، فافترق الصليبيُّون فرقتين؛ فرقة تقاتل صلاح الدين، وفرقة تهاجم المحاصرين داخل الأسوار.

ودام القتال ثمانية أيام دون أن ترجح كفّة على كفّة، ثم جاء

الفرجُ من حيث لم يتوقَّع، إذ قدم صانع ماهرٌ من أهالي دمشق كانت له خبرة وافية بالنفّاطات وما يُطفئ النار وما يشعلها؛ فتقدَّم إلى صلاح الدين، وأخبره بأنه يستطيع أن يحرق الأبراج بما يمنع تأثير الخلّ الذي غمست فيه جلودها، فلم يصدّقه الأمير قرقوش، وظنَّه يهذي، ولكنَّ صلاح الدين قال: وما يمنعُ أن نُعطيه ما يريد من الآلات ليجرِّب حيلته؛ فإن صحَّت حمدنا الله!

وبدأ الرجل فرمى الأبراج بعدة قدور خالية من النار، فلم تُحدِث شيئاً؛ وأخذ الفرنجة المقيمون بالأبراج يسخرون ويتجمَّعون من الأعلى مستهزئين، وفيهم من يرقص ويلعب ويغنّي غير عابئ؛ ثم هيَّأ الدمشقي مكيدته، فرمى بالقدور المشتعلة بالنار فاشتعل البرج اشتعالاً هائلاً، وأوقع الرعب في الراقصين المطربين؛ فجعلوا يصرخون، وأخذوا يتركون الأبراج في ذعر، ومازال الصانع الماهر يرمي قذائفه النارية حتى أحرق الأبراج الثلاثة، وقد خرج مَن بها في ذهول لا يُوصف. وفرح صلاح الدين بما تمَّ وقدَّم للصانع مبلغاً كبيراً من المال، فردَّه في حميّة وقال: إنما صنعت صنيعي لله وحده لا لمكافأة من السلطان!!.

كان لسقوط الأبراج ردُّ فعلٍ كبير لدى الفرنجة، فقطعوا القتال فجأة، وكأنَّهم ولَّوا الأدبار، فأرسل صلاح الدين بشائر النصر إلى المسلمين بالشام ومصر والجزيرة، وطلب المدد من العساكر الشرقية، فتوافد عليه الأمراء دون تباطؤ.

بذل المحاصَرون جهداً كبيراً في الثبات أمام هجمات العدوّ،

وحرصوا على الاقتصاد التام في المؤن الغذائية حتى لا يتعرَّض المواطنون لقحط شديد تليه أمراضٌ لا سبيل إلى علاجها، ومن رحمة الله أن (برج الذباب) كان يحرس ميناء المدينة، ويحذر العدوّ من الاقتراب نحوه، وإذ ذاك تعبرُ السفن الإسلامية من مضيقه حاملةً ما يُسعف، وقد تأكَّد الفرنجة أن بقاء هذا البرج على حالته مما يساعد على انتصار المسلمين داخل المدينة وخارجها، فقاموا بغارات نارية تحاول إحراقه، ولكنّ ثبات المدافعين عنه قد أعجز الأعداء عن اقتحامه، فصرفوا جهودهم عنه بعد أن رأوا خسائرهم تزيد حوله دون أمل في النجاح.

وتتابعت جيوش الفرنجة دون انقطاع، فتكدَّر السلطان نفسيًّاً، وأثَّرت حالته النفسية في كيانه الصحي؛ فأُصيب بحمّى الصفراء، كما أُصيب بها جنودٌ من المسلمين والفرنجة معاً، لأنَّ الوباء كان أشبه بالمطر الذي يسقط في كل اتّجاه، وقد خاف المسلمون على حياة صلاح الدين؛ فرأوا أن يعتزل الميدان مستريحاً في خيمة نائية كيلا تجهده الحمَّى أكثر من إجهادها المشاهَد، ولكنَّه قال: إذا كان لا بدَّ من الموت؛ فليكن موت صلاح الدين في ساحة القتال، ثم استشهد بقول ابن الزبير:

فاقتلاني ومالكاً واقتلوا مالكاً معي

وكان مما ضاعف ألمَ السلطان أنَّ السفن القادمة من مصر حاملة الزاد للمقاتلين والمحاصَرين معاً؛ داهمتها الرياح العاصفة، فغرقت في البحر بما تحمل، وكان لذلك أثره السيِّئ في نفوسِ

جائعة تترقَّب الغذاء خارج الأسوار وداخلها، وقد اتَّجه السلطان إلى العلماء في حضرته طالباً أن يقرؤوا عليه آيات الكتاب، وأحاديث الرسول لتكون برداً على قلبه، وهو علاجٌ إيمانيّ كان يلجأ إليه في حالك الأزمات، فيجد بردَ السلوان.

ثم توافدت الجيوش الأوروبية.. وكان همّ الفرنج كلّه موجَّهٌ إلى اقتحام عكّا، ولكنّ الخندق المحيط بها وقف حائلا دون الاقتحام، فاتَّجهوا لردمه بالأحجار والصخور ومن فوقها الأتربة، ليحدثوا ممرّاً سريعاً للزحف، ولم يسكت المحاصَرون على ما يقومُ به الأعداء، فكانوا يتسلَّقون السور ويرمون بالقذائف الملتهبة على العُمَّال الجادّين في ردم الخندق، فيُحدث انتشار اللهيب فزعاً يمنع اتصال العمل. وقد تكفَّلت جماعاتٌ فدائية تحت حراسة إخوانهم المحاربين بالانقضاض على الخندق لإزاحة ما يُرمى به؛ فكان عملاً بطولياً لا مثيل له.

كما أراد صلاح الدين أن يشغل الصليبيين بهجومٍ ساحقٍ على مواقعهم؛ فوجد ما أقاموه من الخنادق حائلاً دون الالتحام، فصبر على غيظ، وإذا كانت الكثرة الكاثرة في الجيش الصليبيّ ذاتُ أثرٍ حاسم، ولاسيّما في القتال البحري؛ فإنَّ أساطيل الفرنجة قد شاءت أن تتعقَّب السفن الإسلامية القادمة من مصر، واستطاعت أن تستولي عليها، فعمل قادة السفن على إحراقها بما تحمل من الزاد كيلا تكون مدداً غذائياً للأعداء، وهكذا أُحرقت السفن اضطراراً دون أن يرجع ذلك بنفعٍ ما على الصليبيّين.

وقد كثرت شكوى المحاصَرين من شدّة الهجوم وفقْد الزاد، فرأى صلاح الدين مضطرّاً أن يبدأ المفاوضة في التسليم، بعد أن سيطر الصليبيُّون على الخندق وتمكَّنوا من عبوره، وقَبِلَ الشروط القاسية التي فرضها العدو بعد مفاوضةٍ شاقة استمرَّت ثلاثة أشهر بين دفعٍ وجذب. وأقسى هذه الشروط أن تُسلَّم المدينة للفرنجة بما فيها من الآلات الحربية والذخائر والمراكب، وأن يدفع المسلمون مئتي ألف دينار فداءً للأسرى، كما عليهم أن يطلقوا ألفاً وخمسمئة فارس صليبي، وأن يردّ صليب المسيح إليهم، وأوضحُ ما يدلّ على غدر هؤلاء الطغاة أنَّهم قتلوا ثلاثة آلاف رجل قبل الرحيل، وفوجئ السلطان بهذا الغدر الدنيء، فرفض إرسال المال والصليب والأسرى من الفرنجة، وهو أهون ما كان ينتظر أمام مثل هذه الخسارة الأليمة.

لقد كافح السلطان في معركة عكَّا جيوشاً لا قِبَلَ للمسلمين بها، كما أنَّ ملوك المسلمين وأمراءهم في الشام ومصر والجزيرة، قد بذلوا كلّ ما يطيقون من أوجه القتال، ولم ينكل أحد منهم عن نداء الواجب.

وقد حاول بعض المؤرِّخين أن يقرِّر أنَّ الحملة الثالثة التي واجهها صلاح الدين لم تكن بالنشاط الحربي والدافع الديني الَّذَيْن كانا في الحملتين السابقتين؛ لأنَّ القائمين على الحملة الثالثة كانوا ذوي مطامع شخصية دون أن يكون لهم مأرب ديني كبير. والواقع ينطق بغير ذلك، فإنَّ ما قذفت به الحملة الثالثة من أدوات الدمار

وفرسان القتال لم يُعهَد من قبل، ولم تخلُ الحملتان السابقتان من مأرب شخصيّ لدى من قدِموا كي يوسِّعوا الإمارات الصليبيّة؛ ولعلَّ الذين يذهبون إلى هذا الاتجاه يريدون أن يُقلِّلوا من نضال صلاح الدين وروعته، فأخذوا يعقدون مقارنات بين الماضي والحاضر لا ترتكز على شيء من الصواب، وقد أفصح عن وجهة هؤلاء الأستاذ محمد فريد أبو حديد؛ حين قال بعد أن لخَّص الموقف من وجهة نظره[1]:

«كلُّ ذلك يُظهِر لنا أنَّ الذين كانوا زعماء الحرب الصليبيّة الثالثة لم يهبُّوا هبّة مضطربة صاخبة مثل هبّة الحرب الأولى، بل ساروا لغرض معيَّن وقصد معيَّن، كلٌّ يرمي من ناحيته إلى هدف ينبغي أن يصيبه».

ولو تأمَّل الأستاذ فريد ما ساقَه نفسه من الأحداث المتتالية، والاندفاعات الثائرة في المعسكر الصليبيّ؛ لعرَفَ أنَّ الحملة الثالثة كانت أقوى الحملات ضراوة؛ لأنَّها كانت نتيجة عودة بيت المقدس التي زلزلت الكنيسة زلزالاً شديداً، وإذا كانت خاتمة عكَّا غير سارَّة، فالحرب سِجال، ويومٌ لنا ويومٌ علينا كما يقال.

* * *

(١) صلاح الدين الأيُّوبي، للأستاذ محمد فريد أبو حديد، (ص ١٧٠)، ط دار الهلال.

سَبَّاح فِدائي

كان المطر يتساقط على صفحة النهر في سكون الليل، وقوارب الصيد تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال في هبَّات الرياح المتلاحقة، والبرد يرعش جسوم الصيادين، فترتعد فرائصهم دون هدوء، ولكنهم لا ينقطعون عن تجديفهم المتواصل سَعْياً وراء الرزق؛ فهذا ينصب فخاخه، وذاك يجمع ما وقع في شباكه، حتى إذا أذَّن الفجر وبدأت لوامع النور تفسح طريقاً في حندس الظلام تسلل كل صياد إلى بيته القريب من الشاطئ، راضياً بما ساقه الله إليه من الخير، قليلاً أو كثيراً.

ورجع عيسى العوَّام فيمن رجع إلى كوخه الصغير، ونادى زوجته سلمى البكرية، لتأخذ عنه ما حمل، فتدور به إذا أشرق الصبح على منازل الحي كعادتها بائعة جائلة، ولكنه لم يسمع لها صوتاً يجيب، وقد بحث عنها في كل ناحية، فلم يقف لها على أثر، وإذ ذاك جلس منهوكاً مرهقاً، يفكر فيما دار بينه وبينها بالأمس، فقد هدّدته بالرحيل عن الكوخ والالتحاق بجيش صلاح الدين الرابض حول بيت المقدس، فتقوم بما يقوم به مثيلاتها من النساءِ فتُعدّ الطعام وتحمل المؤن، وتدور على العطاش بالماء، وعلى الجرحى بالدواء.

وكانت تَسْلِقَ زوجها بقوارص اللوم، وتدعوه أن يلحق بالجيش الظافر، فيؤدي واجب الرجولة والعروبة والإسلام، ولكنه يجيبها في مرارة أليمة؛ فيقول: «لست والهفتاه رجل طِعان وصيال، وكم كنت أتمنى أن أُدَرَّب في حداثتي على امتطاء الخيل وامتشاق السيف، ولكن البيئة الظالمة حصرت جهدي الضئيل بين القارب والشبكة والنهر»!! فتردّ عليه سلمى في حدّة: «إن لكلّ رجل نصيبه من الكفاح والجِلاد، وإذا توجَّهت إلى الميدان، فسيضعك القائد المظفَّر حيث تفِيد!». فتتلعثم الكلمات تحت لسانه، ولا يدري كيف يجيب!!.

لقد أدرك عيسى أن زوجته الباسلة، قد يئست منه، فاتَّجهت وحدها إلى ساحة الحرب، مستجيبة إلى داعي الجهاد.. إلى نداء الكرامة والعزة؛ وقد شعر بحسرة لاذعة تكوي فؤاده حين وجد امرأة ضعيفة تنقاد لحميّتها العارمة، فتعرِّض نفسها للموت قريرة العين باسمة الثغر، وأخذ يقارن بين عزيمتها الواثبة وخَوَره المتردد، ففارت الدماء في عروقه، وأخذ عدته، ثم يمَّم شطر بيت المقدس.

وأحسَّ بفرحة بهيجة تملأ جوانحه حين سمع على بعدٍ أصوات التكبير والتهليل. وتقدّم جريئاً إلى خيام الجند وطلب أن يقابل أحد القادة من حماة الكتائب الإسلامية! ثم عرض عليه أن يهيِّئ له عملاً حربياً يناسب استعداده، ففكر القائد في أمره، ثم أشار عليه أن يصحب الأسطول الإسلامي في جولاته البحرية، فعيسى ـ بحكم مهنته ـ صياد سبَّاح يستطيع أن يخوض اللجج المتراكمة

لينقذ ما يسقط في الماء من مؤن وآلات، وقد استشعر الرجل فرحة غامرة حين وفِّق إلى طريق من طرق الجهاد، فاستقبل عمله الجديد مرتاحاً مسروراً، وأدَّى واجبه الحربي مع رجال الأسطول أداءً مخلصاً، فكافح الموج وجابه الموت غير هيَّاب! وقد أنقذ من آلات الذخيرة وأدوات الحرب شيئاً كثيراً، حتى أَكْبَرَهُ أصحابه، وكتب الأمير حسام الدين لؤلؤ قائد الأسطول إلى صلاح الدين يحدِّثه عن مهارة عيسى وبسالته.

مضت الأيام، وزادت معامع القتال ضراماً واشتعالاً، فأبدى الفريقان المتصارعان من خوارق البطولة وغرائب التضحية ما كان موضع العجب والإعجاب، ثم علَت راية الحق فانتصر الجيش الإسلامي، وسقط بيت المقدس سقوطاً عاد بالنكبة والخذلان على الصليبيين، فانكسرت حدَّتهم، وانكفؤوا على وجوههم في الفجاج المترامية بين هارب جازع، وجريح يتوجس، وطريح قتيل!! كما وقع في الأسر من جموعهم الحاشدة ما يقدّر عدده بالآلاف! وظنَّ الناس أن صلاح الدين سيفعل بأسرائه ما فعلوه هم من قبل حين اقتحموا بيت المقدس، فما تركوا عذراء في خدرٍ ولا مصلّياً في محراب، ولا عجوزاً مُقعَداً... وخاضت الخيل في بركها العائمة فكانت تخضب منها القوائم والبطون!! أجل، ظنَّ الناس أن البطل العظيم سينتقم، ولكنهم نظروا فوجدوا الصفح الغافر، والتسامح النبيل.

احتفل صلاح الدين بنصر الله في موكب حاشد، فنصب

سرادقاً فسيحاً يضم الأفواج الغفيرة من جنوده وأعوانه، وجعل يستقدم إلى مجلسه الأبطال واحداً واحداً، فيصافح كل جندي بيده، ويثني على همته ونجدته، ومن حوله أمراؤه وقواده يخبرونه عن بلاء كل محارب وجهاده، والقائد المظفر يبتسم ابتسامة الارتياح، ويسلِّم تسليم المقدِّر المعتزّ، وجاء دور عيسى العوَّام فنهض الأمير حسام الدين لؤلؤ قائد الأسطول الإسلامي، وقال مخاطباً صلاح الدين:

ـ هذا سبَّاح ماهر يا مولاي! كان يقذف بنفسه بين الأمواج، فيحمل على كتفه الناحل، ما ثقل من آلات الحديد، وكم أنقذ من ذخيرة ثمينة ساعدت على النصر والنجاح! فنهض صلاح الدين من مجلسه محيِّياً مصافحاً! ولكن أبصر امرأة متهلِّلة باسمة، تتخطَّى الرقاب، وتجتاز الصفوف، حتى دنت من عيسى فعانقته في فرحة دافقة، وقالت مهتاجة:

ـ أأنت هنا يا زوجي العزيز؟.

ـ لقد تبعتُكِ يا سلمى حيث تشائين.

وأدرك صلاح الدين حقيقة الزوجين فغضَّ طرفه مستحيياً، ولوى عنقه إلى الخلف، حتى يفرغا من عناقهما اللهيف!!.

وانتهى المشهد المؤثِّر فنادى صلاح الدين عيسى، وسأله في ابتسام عن زوجته، ولكن القاضي بهاء الدين بن شدَّاد أسرع فقال:

ـ هذه يا مولاي سلمى البكرية من أشجع النساء، وأكرم السيدات، كانت تحمل الجريح على صدرها مسافة طويلة فتنقله إلى

الخيام من الميدان، ثم تطير بالرسائل حيث آمُرها أن تسير، فترجع بالردّ في أسرع وقت ينتظر، فحيّاها الله من سيدة ذات إقدام!!.

فنهض صلاح الدين من مجلسه، وخاطب سلمى وزوجها قائلاً:

ـ يا لكما من زوجين باسلين أحسنت لقاءهما الأقدار!.

وانتهى احتفال النصر في بهجة رفَّافة، فخرج الزوجان فرحين، ليقيما في خيمة متواضعة وراء الأسوار. قال عيسى لصاحبته:

ـ أتظنين أن مقامنا ها هنا سيطول؟.. فأجابته:

ـ لقد سمعت من بعض القوّاد أن الصليبيين سيثأرون لهزيمتهم عن قريب، حتى تأتي إليهم الأمداد المتلاحقة من وراء البحار، لأن أوروبا لن تهدأ بعد فشلها الخائب على يد صلاح! فقد كانت طوال الأعوام السابقة تسوق الجيوش وراء الجيوش، لتحمي بيت المقدس، وهي بلا شك ستصاب بجنون مغيظ حين تعلم أن جهودها المتلاحقة قد تمزَّقت أيدي سبأ! على أني واثقة من النصر الظافر على يد صلاح الدين!!.

فابتسم عيسى ابتسامةً عذبة؛ وقال في حنان:

ـ علم الله أني أتطلّع إلى ساعة النضال في شوق لهيف! فقد أصبحت أهوى حياتي الجديدة هوى يختلط بدمي، ويجري في عروقي، وإني لآسف أشد الأسف على ما ضاع من أيامٍ موحشة،

قضيتها في كَسْبِ تافه، أتبلَّغ به بعد تعب ضائع كريه! غافلاً عن ميدان الرجال، وحومة الأبطال، ولولاكِ يا سلمى الحبيبة، لبقيتُ هكذا خاملاً مجهولاً، أشعر في أعماقي الدفينة بالضَّعة والهوان، وأكابد صراعاً داخلياً بين عجز الحيلة ورغبة الآمال! أما الآن فيخيَّل إليَّ أني سيّد الماء وفارس البحار!!

ـ ستمتد سيادتك على البحر بعد حين، فتصبح أمير الأسطول وقائد الأمواج، وسيزهى بك صلاح الدين في إكبار، ويغدو اسمك أنشودة الركب وترنيمة الأبطال!.

دقّت الطبول فجأة بعد أمر قريب، فعلم المسلمون أن الميدان قد هيِّئ، وأنّ الكتائب المترقّبة قد زحفت سيولها من الغرب، فقد جاء ملوك أوروبا يتقدّمهم فريدريك، وقلب الأسد، وفيليب أوجوست! ومن ورائهم مَن لا يحصون من الحشود والجنود، وما لا يقدَّر من الأسلحة والعتاد والأساطيل! وسار صلاح الدين بنفسه يجمع الجموع، ويضع كل بطل في موضعه، ويحمي ما يستطيع حمايته من البلاد والقلاع، إلا أن الكثرة الكاثرة قد اتّجهت إلى (عكا) فحاصرتها حصاراً شديداً، وقاسى العرب داخل الأسوار صروف المحن وضروب الشدائد، أما الجيوش العربية فقد اشتبكت مع المحاصرين بالخارج في حروب دامية مريرة، كان النصر بها سجالاً، فيوم للهلال ويوم للصليب.

وكان صلاح الدين يفكِّر في أمر هؤلاء الذين حوصروا خلف الأسوار! فيُمنع عنهم الطعام والشراب، وأحاط بهم العدو، فلم

يقدروا على الإفلات! كيف يتصل بهم فيلمّ بأخبارهم، ويعرف حقيقة ما لديهم من الزاد والعتاد! لقد فكَّر وقدَّر، ثم هداه تفكيره إلى أن يستقدم عيسى العوَّام، فهو سبَّاح ماهر يستطيع أن يخوض لجج البحر متخفياً، فيحمل الرسائل في حذر إلى العرب، ويمدهم بما يقدر على حمله من أكياس الذهب والفضة، ثم يعود وقد رسم الصورة الصحيحة لما شاهد وخلَّف! ولعلَّه بسفارته المستترة يقدِّم من الفوائد الحربية ما لا تقوم به الكتائب والجيوش! هكذا قدَّر صلاح الدين ودبَّر، ثم بعث بمن أحضر إليه عيسى العوَّام، فأصدر له أوامره وتوصياته.

كان على السبَّاح الفدائي أن يخوض البحر مخترقاً صفوف السفن الإفرنجية، دون أن يشعر به أحد، ثم يأتي إلى الأسوار الناهضة فيعمد إلى فرجة ضيقة تأذن له بالتسلل، فإذا وُفِّق في مسعاه اتَّجه برسائله وأكياسه إلى بهاء الدين قرقوش حاكم المدينة، وقائد المسلمين، فأبلغه رغبات صلاح الدين.. ثم حمل عنه ما يخطُّ من الرسائل ويبدي من المقترحات، وكان الليل مَسْرحاً أميناً لمغامراته، فهو ينتظر حتى تهجع عيون الأعداء فوق السفن، ينغمس في الماء مجتهداً ألا يظهر ما ينبئ بمروره، وقد يصطدم في ظلمات العباب بسفينة أو صخرة، فيتحمَّل كل عسير حتى يصل إلى الشاطئ ثم يلتفت في كل ناحية، حتى يلمس مأمنه، فيسرع إلى مبتغاه، ويقضي اليوم الطويل داخل الأسوار، حتى إذا أقبل الليل كرَّ راجعاً إلى سيده ومعه الرسائل والأنباء!!.

وكم قاسى من زمهرير الشتاء، وأهوال الظلام، وصدمات البحر، ولسعات البرد في أعماق البحر!! وهو سعيد هانئ، يغمره شعوره النفسي بدفءٍ مريح، وينفحه إيمانه القوي بما يبدِّد كل خوف وارتعاش!! ومازال يواصل رسالته الفذَّة، حتى قطف المسلمون على يديه أنضر زهرات النجاح.

وذات مساء تسلَّل كعادته حاملاً أكياس الذهب إلى قرقوش!! وخاض لجج الماء في برودته القاسية، مستهيناً غير مكترث! وانتظر المسلمون عودته فأبطأ.

وجاء الحمام الزاجل من عكا ينبئ بأن عيسى لم يحضر شيئاً!! فأخذ الناس يتساءلون ويتكهَّنون؛ فمن قائل: غرَّه الذهب فاستولى عليه ولاذ بالفرار!، ومن قائل: وقع في يد الفرنجة فأسروه. حتى تكشَّف الحق الأليم، حين وجد المسلمون جثة طافية على الماء تتجه رويداً إلى الساحل، فأسرعوا إلى انتشالها، فعرفوا بها وجه عيسى العوَّام، وقد مزَّق أحشاءه سهم من يد عدوّه تربَّص به حتى أصاب مرماه! وكانت الحسرة أليمة حين أبصروا حزامه في وسطه وبه أكياس الذهب كاملة لم يَضِعْ منها دينار! وراح الخبر إلى صلاح الدين فدمعت عيناه، وأمر بدفنه في موكب خاشع رهيب!!.

وطاف القاضي بهاء الدين بن شداد ذات مساء على ساحل البحر، فوجد سيدة تسبح في الماء! فدهش متعجباً، وانتظر حتى ارتدت ملابسها ورجعت إلى الخيام، فتبعها ليقف على حقيقة أمرها، فعرف أنها سلمى البكرية زوجة عيسى! فسألها في حنان عما

تصنع؛ فصاحت في اعتداد: آليت على نفسي أن أتعلم السباحة لأواصل رسالة عيسى العوَّام، وأحظى باستشهاده النبيل!.

فنظر إليها القاضي متعجباً وصاح: صدق صلاح الدين حين قال: يا لكما من زوجين أحسنت لقاءهما الأقدار!.

* * *

شُجُون بَطَل

البطلُ إنسانٌ يتعذَّب ويتألَّم كما يفرح ويتنعَّم، ولكنَّ الذي يكونُ من قَدَره أن يواجه جيوش قارَّة بأكملها، خرجت بأساطيلها ومدافعها وجحافل جيوشها، لتهدِّده في جيشه المحدود وبأسه المجهود بتوالي الزحوف وتتالي الوقائع.. هذا البطلُ لا بدَّ أن يكون تألُّمه أكثر من فرحه، وتعذُّبه الهائل يُعفي على ما قد يبدو من مسرَّته.

وصلاح الدين الأيوبي حين وجد نفسه وحيداً في مواجهة القارَّة الزاحفة، اضطرَّ إلى أن يستنجد بمن يراهم أهل العون، وأن يكتب الرسائل إليهم مستحثَّاً هممهم الإسلامية، كي يكونوا معه في خندق واحد، لأنه يدافع عن إسلامهم، ولا يدافع عن نفسه وحدها!

هذه الرسائل كان يُدَبّجُها قلم القاضي الفاضل، ولكن معانيها وأفكارها من وحْي صلاح الدين، فكلُّ ما فيها من وصفٍ لأزماته وكروبه لا يعبّر عنها القاضي دون أن يستمدها من خاطرِ صاحبها! وقد يكون للأسلوب الأدبي في تعبيره البياني تأثيرُه النفَّاذ، ولكن التعبير الأدبي لا يأتي من فراغ، بل لا بدَّ أن تستولي الفكرة القوية

والإحساسُ المتَّقد على منافذ تأثيره، وهذه الفكرة فكرةُ صلاح الدين، وهذا الإحساس هو ناره المشتعلة بين حناياه.

وقد عبَّر خليل مطران عن لوعة صلاح الدين أصدَقَ تعبير؛ حين قال في مناسبةٍ تشبه مناسبته، وإن كانت لا ترقى إلى مستواه الرفيع؛ فقال:

وممَّا يُضيم الحرَّ شقوةُ موطن بَنُوه نيامٌ عنه، والحُرُّ زائدُ
فهم في عديدٍ للكفاح وعدَّةٍ بعَيْن الأعادي، والمكافح واحدُ

وهكذا كان صلاح الدين يقف أمام أوروبا جميعها، ممثِّلاً للمسلمين، وفيهم من يتآمرون به، بدلَ أن ينضمُّوا تحت لوائه، وفيهم من يتَّصل بالعدو ليبدي له ما يجهل من أمور عدوّه المناضل، وأقلُّ هؤلاء ضرراً من يلوذ في موطنه مكتفياً باستماع الأنباء عن معارك صلاح الدين، وفي مُكْنته أن يكون ساعده الأيمن... أليس لمثل هذا البطل أن يتعذَّب حين يبعثُ رسائله يستنجد ويستغيث؟!.

لقد كان صلاح الدين حريصاً على تأييد الخليفة العباسي لجهاده، ليكون كافياً في إقناع مناوئيه في الشام ومصر والجزيرة، كي يلتفُّوا تحت رايته؛ فأرسل إليه بعد سقوط الخلافة الفاطمية، يُبيِّن له الخطرَ الفادح الذي يتهدَّد الإسلام في كلِّ مكان إن قُدِّر لأوروبا الصليبية أن تسحق مصر والشام، وقد سعد الخليفة العباسي المستضيء بالله برسالة البطل، وكتب ردّاً عليه يقول[1] ـ ببعض التصرُّف ـ:

(١) حسن المحاضرة (٢/ ٢٣).

«وقد علمتُ أن العدوّ وهو جارُك الأدنى، ولا تكونُ للإسلام نِعْمَ الجار، حتى تكون له بئس الجار، ولا عذْرَ لك في ترك جهاده بنفسك ومالك إذا قامت لغيرك الأعذار، وأميرُ المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاهُ مصافحاً، بل يريد أن تقصد البلاد التي في يده قصْد المستغير، لا قَصْدَ المغير، وأن تحكم فيها بحكم الله الذي قضاه على لسان سعدٍ في بني قريظة والنضير، وعلى الخصوص بيت المقدس، فإنه بلدُ الإسلام القديم، وقد أصبح يشكو طولَ المدَّة في أسر رقبته، وأصبحتْ كلمةُ التوحيد تشكو الوحشة في غربتها عنه، فانهض إليه نهضة متوغِّلٍ في قرْحة، وإن كان له عام حُدَيبيته فأتبعه بعام فتحه».

هذه رسالة الخليفة العباسي في بعض سطورها الدالة على جميعها! فماذا قدَّم لصلاحِ الدين مِنْ عونٍ؛ سوى أن أفهمه ما هو من قبيل تحصيل الحاصل لديه، لم يكنِ البطلُ في حاجة إلى الأمر بغزو الصليبيين، فذلك مذهبهُ الذي بَذَل حياته في تحقيقه، وإنما كان في حاجةٍ إلى أن يبادر الخليفة (إذا كان لا يستطيعُ العونَ الحربي كما هو معروف) بأن يكتبَ إلى أُمراءِ الإسلام جميعاً بضرورة مساعدة صلاح الدين، والسير صفّاً واحداً تحت لواء إنقاذ الإسلام، أما أن يقول له: «ولا عذر لك في ترك جهادك بنفسك ومالك إذا قامت لغيرك الأعذار؛ لأنك جارٌ للعدوِّ»؛ فهذا موضعُ السخرية اللاذعة في الكتاب، أيقومُ العُذْرُ للمسلمين في خذلان صلاح الدين لأنهم ليسوا بالجار الأدنى، في معركةٍ ستأتي على الجار الأدنى والجار الأقصى معاً، هل يريد الخليفة أن يقول له: ليَ

العُذرُ إن تخلّفتْ بغداد عنك، فإنها ليست جارةً لبيت المقدس!!

يخيَّل إليَّ أن خطاب المستضيء بالله كان سيِّئ الوقع في نفس صلاح الدين؛ لأنه لم يكن ينتظر أن يأمره بجهادٍ هو صاحبُه وحاملُ رايته، ولكنه كان ينتظر المدد المعنويّ حين يتَّخذ الخليفة نفوذه الرسمي، فيوجِّه خصومه، ومَنْ يُسرُّون الكيد في مصر لصلاح الدين إلى ضرورة نسيان أنانيَّاتهم المريضة، والإسراع بمنابذة العدو تحت راية واحدة؛ لأنَّ الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفّاً كأنَّهم بنيان مرصوص، ومتى علم الأمراء أنَّ الخليفة قد اختارَ البطل للقيادة الفعليّة وأشار عليهم بتأييده السريع؛ فقد قضى على أكثر أسباب النزاع بين صلاح الدين وحاسديه!.

كثرتْ معارك صلاح الدين مع أعدائه، وكان يرى في تواصل هذه الوقائع ما يدعو أمراء المسلمين إلى مؤازرته، فعزَّ عليه أن يكونوا لاهين عن نارٍ توشك أن تحرقهم جميعاً، كما قدَّر في نفسه أن الخليفة المستضيء بالله لا يقدِّر حجم الوباء الزاحف على بلاد الإسلام قاطبةً، فكتب إلى بغداد رسالة صارخةً تصفُ بأفجع أسلوب وأوجعه تخاذُلَ المسلمين وتكاثُف الصليبيين، واشتعال نار الحماسة في صدور الفرنجة وخمودَها في نفوس مَن يزعمون أنَّهم ولاة المسلمين! ما قرأتُ هذه الرسالة الكاوية إلاَّ وأدركتْ لهب الغيظ المشتعل في صدر صلاح الدين؛ حين كتب إلى المستضيء يقول[1] ـ ببعض التصرف ـ مبتدئاً حديثه بوصف الفرنجة المغيرين:

---

(١) الروضتين (٢/ ١٦١).

«قد بُليَ الإسلام منهم بقومٍ قد استطابوا الموت، واستجابوا للصوت، وفارقوا المحبوبَيْـن: الأوطان والأوطار، وهجروا المألوفيْـن: الأهل والديار؛ كلّ ذلك طاعةً لقسِّيسهم.. لا يطلبون مع شـدة الإمـلاق مـالاً، ولا يجدون مع كثـرة المشـاحة ملالاً؛ بل يتسـاقطون على نـار الظُّبى تسـاقط الفراش، ويقتحمون الرَّدى مُتدرِّعين الصبرَ ثابتي الجأش، حتى خرجت النساء من بلادهن متبرِّزات، وسِرْنَ إلى الشام في البحر والبر متجهِّزات، وذواتُ المقانع من الفرنجة مقنّعات مقارعات، وقد وُجِدَ في الوقعات التي جرت عدَّةٌ منهنَّ بين القتلى، وما عُرِفنَ حتى سُلِبْن.

والبابا الذي بروميَّة قد حرَّم عليهم مطاعمهم ومشاربهم، وقال: مَنْ لا يتوجه إلى القدس مستخلصاً، فهو عندي مُحرَّم لا منكح لـه ولا مطعـم؛ فـلأجـل هـذا يتهـافتـون علـى الـورود، ويتهالكون على يومهم الموعود، مع تعصُّبِهم في ضلالتهم، ولجاجتهم في غوايتهم.

بخلافِ أهلِ الإسلام؛ فإنهم يتضجَّرون ولا يصبرون، بل يتفلَّلون ولا يجتمعون، ويتسلَّلون ولا يَرجعون، وإنما يقيمون ببذل نفقة، وإذا حَضرُوا حَضرُوا بقلوب غير متَّفقة»[١].

هذه الحالةُ المزعجةُ كانت جديرةً بأن يترك المستضيء بغداد، ويرحل إلى من يستظلُّون بلواء الدولة العباسية؛ طالباً أن يخفُّوا

(١) صبح الأعشى (٦/ ٥٢٨).

لنصرة الإسلام.. وقد أخبره صلاح الدين أن بابا روميّة قد أصدر أمرهُ بتحريم المآكل والمناكح على كل قادرٍ على السفر إلى بيت المقدس ولا يسافر!! كما أخبره بتهالكِ العذارى الشابات منهنَّ على القتال، حتى وُجِدْنَ في ساحة الصراع طعيناتٍ ميِّتات!

ويَقيني أن أمثال هذه الرسالة قد كُتبت إلى ملوك المسلمين وأمرائهم! فما نَهض غير القليل من الكثير، ولولا رحمةُ الله بالإسلام لبلغت المأساة أفدحَ ما تبلغُ من هولٍ واستفظاع!!.

أقول: إنَّ أمثال هذه الرسالة قد كُتِبت إلى ملوك المسلمين وأمرائهم، لأنِّي قرأتُ رسالة كتبها القاضي الفاضل بلسان صلاح الدين إلى ملك المغرب المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، بعد فتح القدس راجياً العون المادِّي والحربيّ؛ لأنَّ الفرنجة قد قذفت بهم أوروبا من جديد في حشودٍ هائلة لاستخلاص بيت المقدس، وقد ملؤوا الشواطئ بسفنهم الحربيّة، ولدى المنصور من أمثال هذه السفن ما يغني في الموقعة المنتظرة. تقول الرسالة:

«لم نرَ لمكاثرة البحر؛ إلاَّ بحراً من أساطيله ـ أساطيل الملك المغربي ـ فإن عددها وافٍ وشطرها كافٍ، ويمكنه أدام الله تمكينه، أن يمدَّ الشام منه بعددٍ كثيف، وحدٍّ رهيفٍ، ويمكنه أن يكفَّ شرَّ أسطول طاغية صقلية؛ ليَعْتقلهُ في جزيرته، ويجري إليه قبل جريرته، فيذهبُ سيدنا وعقبُه بشرف ذكرٍ لا تردّ به المحامد على عقبها، ويقيم على الكفر قيامةً يطلع بها شمس النصر من مغربها».

إنَّ صلاح الدين يرجو أن يمدَّه المنصور بأسطولٍ حربيٍّ يقف

معه أمام الزحف، فإذا لم يتيسَّر؛ فليعمل على محاصرة أسطولِ صاحب صقلية الذي يمرُّ بالمغرب قاصداً صلاح الدين، فيمحق الشرّ قبل استفْحاله.

ولم يجد البطل أثراً لخطابه الذي أرسله مع الأمير عبد الرحمن بن منقذ، فلم ييأسْ، وعجَّل بخطاب آخر، بدأه بثناءٍ طويل على الملك المنصور، وبوصفٍ رائعٍ لأمجاده العظيمة في نصرة الدين، ثم تحدَّث عن قيامه بالزحوف المتوالية ضد العدوان الصليبي حتى أنقذَ بيت المقدس، فهاجتْ هائجة البابا المتلدِّد غيظاً على ضياع بيت المقدس، وبعَثَ بجيشٍ جرَّارٍ كثيف. تقول الرسالة عنه[1]:

«لقد فزع الكفَّار بالشام إلى الكفار بالغرب؛ فأجابوهم رجالاً وفرساناً، وشيباً وشبَّاناً، وزرافاتٍ ووحداناً، وبرّاً وبحراً، ومركباً وظهراً.. وما احتاجوا ملوكاً ترتادُهم، ولا أرساناً تقتادهم، حتى خرج كلٌّ يلبّي دعوة بطركه، ولا يحتاج إلى عزمة ملكه، وجلب الكفار إلى المحصورين بالشام كلَّ مجلوب، وملؤوا عليهم ثَغْريْهم من كل مطلوب، ما بين أقواتٍ وأطعمة وآلات، إلى أن شحنوا بلادهم رجالاً مقاتلة، وذخائر للعاجلة والآجلة، لا تشرقُ شارقةٌ إلا طلعتْ على العدوِّ من البحرِ طائلة، تُعوِّض من الرجال من قُتِلَ،

(١) الروضتين (ج/ ١٧١)، ومن الأمانة أن أقول: إني اعتمدت على نقول الدكتور أحمد بدوي فيما سطّره بكتابه (الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية) في مواضع متفرِّقة.

وتخلفُ من الزاد ما أُكِل، فهم كلّ يوم في حصول زيادة، ووفورِ مادة، قد هان عليهم موقع الحَصْر، وأعطاهم البحر ما منعهم البر، وبلغت عُدَّتهم مئة ألف أو يزيدون، وكلَّما أفناهم القتل، أخلفتْهم النجدة، فكأنَّهم قبل الممات يعودون».

أصرِّحُ للقارئ أني لم أستطع أن أُكمل هذه الرسالة، لما ملأني من الحسرة والغيظ؛ حسرة على مسلمين يتباعدون غافلين، وغيظ من قوم ملؤوا البر والبحر ليغصُبوا أرضاً ليست لهم، بل حسرةٌ على بطلٍ كصلاح الدين لا يجدُ المَدَدَ من غير الشام ومصر وبعض مدن العراق! وأوروبا تقفُ في وجهه لا لتقذف به وحده؛ بل لتقذف بكل ما ينتسب إلى الإسلام!.

لقد كنتُ كتبتُ نقداً عاصفاً لملك المغرب على تقاعسه، لأنَّه لم يفعل شيئاً.. لم يُرسل عتاداً، ولم يمنع أسطولاً؛ ثم عنَّ لي أن أرجعَ إلى ظروف الملك في وطنه، لأعرف أيّ سبب عاقه، فرأيتُ أنَّه كان يكابدُ حروباً طاحنة مع فِرنجة الأندلس، لا يَسلَمُ من موقعة حتى يُجابَه بما هو أشدُّ هولاً منها. فقد علم عقب تولِّيه الحكم أنَّ الفرنجة ملكوا مدينة (شلب) وهي غرب الأندلس؛ فتوجَّه إليها بنفسه، وحاصرها وأخذها، وأنفذ جيشاً من الموحِّدين والعرب ففتح أربع مدن مما يلي (شلب) بعد أن ظلَّت في يد الفرنجة أربعين سنة، وخافه صاحب طليطلة؛ فهادَنَه خمس سنوات.

ولم يكد يمضي أمدٌ قريب؛ حتى جمع الفرنجة جموعهم فزحفوا إلى بلاد إسلامية في الأندلس واحتلُّوها، ونهبوا وعاثوا

عَيْشَاً فظيعاً ـ كما يقول صاحب نفح الطيب[1] ـ فزحفَ إليهم بجيشٍ كثيف، وجمع الفرنجة جموعهم وأقبلوا نحوه، ولكنَّ مرضاً شديداً عاقه في الطريق، وعلم بذلك الأذفونش فأرسل إليه يتهدَّد ويتوعَّد، ويطلبُ بعض الحصون المتاخمة له ببلاد الأندلس، ورغم المرض الذي حاق بالمنصور، فإنه أمرَ بمواصلة الزحف، وقامت معارك رهيبةٌ استُشهد فيها جمعٌ هائلٌ من المسلمين، وأعملَ المنصور الحيلةَ فأظهرَ الفرار، وكرُّوا خلفه غير مكترثين، فهاجمهم بأقسى ما يتوقَّعون في معركةٍ تسمَّى في التاريخ معركة (الأرك) التي لم يسمع المسلمون بانتصارٍ حاسمٍ مثلها منذ معركة (الزلاَّقة) ثم تعقَّب الفارِّين في عدَّة بلاد، فحاصر طليطلة، وقتلَ رجالها وسبى حريمها، ومضى إلى إشبيلية، فتخاذلت أمامه، وضاقت على الفرنجة الأرض بما رحبت؛ فطلبوا الصلح».

هذا جهادُ بطلٍ من طراز صلاح الدين، وله مع هذه الأحوال عذره، ومَن لامه من مؤرخي سيرة البطل صلاح الدين، عرفوا وجهاً واحداً من الحقيقة، هو وجه امتناعه عن مناصرة البطل الأيوبي، ولم يعرفوا الوجه الآخر، وهو ثباتُه الرائع أمام جحافل الفرنجة بالأندلس؛ حتى فعلَ بهم في الغرب ما فعل صلاح الدين في الشرق، والغرب كلّه ملَّةٌ واحدة!.

يأخذ مؤرِّخو اليوم صلاح الدين على أمورٍ يظنُّونها موضعَ نقدٍ عنيف، لأنه لم يأتِ بما كانوا ينتظرونه من الهجوم الدائم؛ وقد

(١) نفح الطيب (٦/ ١١٥) وما بعدها بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

فاتهم أنَّ الحاضر يرى ما لا يرى الغائب، وأنَّهم لا يملكون الحكم على أشياء لم يُحيطوا بها علماً كما أحاط بها مَن اصطلى بنارها، وواجه مكروهها، فهو أدرى بملابسات الهجوم والفرار، والتوثُّب والانتظار.. ومَن يقرأ بعض الرسائل التي كُتِبت على لسان صلاح الدين يعرف من أمره ما لا يعرفه مَن يقرأ تراجم العظماء في كتب التاريخ؛ لأنَّ أكثر أصحاب التراجم ينظرون إلى الوجه البرَّاق في السيرة التي يعرضونها، وقد يدفعهم الإعجاب بالبطل إلى الإغضاء عن كلّ ما يُنقص هذا الإعجاب من وجهة نظرهم القاصرة، وأقولُ: من وجهةِ نظرهم القاصرة؛ لأنَّ المؤرِّخ المستوعب يعرف أسباب هذه المآخذ، ويراها ضروراتٍ لا مفرّ منها؛ لأنَّ الدنيا لا تسير على وجهٍ واحد.

ومن هؤلاء الناقدين مَن أخذ على صلاح الدين أنه أرسلَ كتابَ تعزية حارّاً إلى ملك بيت المقدس يتأسَّف فيه على فقد والد الملك الراحل، ويدعو الملك الجديد إلى احترام ما كان بينهما من مواثيق! وهذه حُنكةٌ سياسية تُحسَبُ لصلاح الدين، لا أنها تُحسَب عليه؛ لأنه أدرى بظروفه الحربيَّة، فهو يعرف أن المعركة إذا سبقَت ميعادَها المناسب قد تكون نتيجتها وخيمة بالنسبة له، وفي الملك الجديد شباب مندفع، وقد تُسوِّلُ له نفسه أن ينقضَ الهدنة فيضطرّ البطل إلى النزال دون استعداد كافٍ، فمِنَ الحكمة كلّ الحكمة أن يكتب إليه مُعزِّياً، وأن يذكِّره بمعاهدته مع والده، وأن يعلن تمسُّكه الشريف بما كان من تعاهد! أليستْ هذه مهارةٌ كيِّسة لا سبيل إلى نكرانها!! لقد كانت رسالة التعزية هذه مصدر هدوء نفسي

للمتعاهدين معاً، وإذا تركتْ لصلاح الدين أن يفرغ إلى إعداد خطَّة منتظرة؛ فقد أكسبته وقتاً طيّباً كان في حاجةٍ إليه، ولا أجدُ مانعاً من الاستشهاد بنصوص من رسالة التعزية، لأنها درسٌ حصيف في الدبلوماسية السياسية عرفه صلاح الدين، ولم يعرفه من يكتبون التاريخ بروح الاستعلاء، وكأنَّهم بقراءة بعض الصحف أصبحوا حاكمين على الأبطال..

قال القاضي الفاضل على لسان صلاح الدين ـ مع بعض التصرُّف ـ[1]:

«خصَّ الله الملكَ المعظَّم حافظ بيت المقدس ـ برودويل ـ بالجدِّ الصاعد، والحظِّ الزائد، وهنَّأه مِن ملْك قومه ما ورثه، وأحسن من هُداه في ما أتى به الدهر وأحدثه، فإنَّ كتابنا صادرٌ إليه عند ورود الخبر بما ساء قلوب الأصادق، والنّعي الذي وَدَدْنا أنه غير صادق، بالملك العادل الأعز، لقَّاه الله خير ما لقَّى مثله، وبلَّغ الابن سعادته كما بلَّغه محلّه، وإنَّ الله عزَّ وجل قد هوَّن الحادث؛ بأن جعلَ ولده الوارث، وأنسى المصاب بأن حفظ به النصاب، ورسولنا الرئيسي العميد مختار الدين ـ أدام الله سلامته ـ قائمٌ عنَّا بإقامة العزاء من لسانه، ووصف ما نالنا من الوحشة لفراق ذلك الصديق وخلوّ مكانه، وقد استفتحْنا الملكَ بكتابنا وارتيادنا، فلْيَلْقَ التحيَّة بمثلها، وليأتِ الحسنة ليكون من أهلها، وليعلَم أننا له كما كنَّا لأبيه مودَّةً صافيةً، وعقيدةً وافية، فليسترسل إلينا استرسال

---

(١) صبح الأعشى (٧/ ١١٥).

الواثق الذي لا يخجل، وليعتمد علينا اعتماد الولد الذي يحمل[1] عن والده ما تحمَّل، والله يديم تعميره، ويحرس تأميره، ويقضي له بمرافقة التوفيق، ويلهمه تصديق ظنّ الصديق».

إنَّ قارئ هذا الكتاب، لا بدَّ أن يعرف أنَّ صلاح الدين في حاجة إلى الاستراحة الحربية ليأخذ من راحة اليوم لتعبِ الغد، كما لا بدَّ أن يعرف أنَّ الملك الجديد له حاشية تُطمعه في المجد، ليبلغ شأواً بين ملوك الفرنجة بمنازلة صلاح الدين، وأنَّه شاب متعجِّل قد تبهره خلابة الإطراء، فينساق إلى حرب يجدُ عدَّتها تأتي إليه كلّ يوم من الغرب؛ فتزيده منعةً واستطالة! فمن الخير أن يطمئنه البطل على سلامةِ مملكته في ظلِّ الهدنة المنعقدة مع أبيه، وإذا اطمأنَّ إلى ذلك فلن يستجيبَ إلى دعاة القتال، وقد أدَّت الرسالة دورها عن يقين.

وأحرّ شكوى وأوجعها فيما صدر عن البطل؛ ما كتبه إلى بغداد شاكياً تقاعس المسلمين عن مناصرته في معركة (عكا) الرهيبة، حين زحفت آلاف السفن من أوروبا حاملةً الدمار المبيد لجيش صلاح الدين، وهو وحده كالزورق في بحر هائج تدهمه الأمواج من كل جانب، وقد أراد باستنجاده أن يعمل الخليفة على حثِّ الأمراء في الجزيرة على النهوض الواثب إلى الميدان؛ لأنَّ

(١) في الأصل (الذي لا يحمل) وما أظنُّها تستقيم.

الوضع كما وصفه القاضي الفاضل في هذه الرسالة الشاكية على لسان البطل صلاح الدين[1]:

«وهمُ الآن على عكا يمدّهم البحر بمراكب أكثر من موجه، ويخرج منه للمسلمين ما هو أمرُّ من أُجاجه، وقد تعاضدت ملوك الكفر على أن يُنهِضوا إليه من كلّ فرقة طائفة، ويرسلوا إليهم من كل سلاح شوكة، فإذا قَتَل المسلمون واحداً منهم في البرّ؛ بعثوا ألفاً عِوَضاً عنه في البحر، فالزرع أكثر من الحصاد، والثمرةُ أنمى من الجذاذ، وهذا العدوُّ المقابل ـ قاتله الله ـ قد زرَّ عليه من الخنادق دروعاً متينة، واستجنَّ من الجنَّانات بحصون حصينة؛ فصار محصوراً متمنِّعاً، وعددهم الجمّ قد كاثر القتل، ورقابُهم الغُلب قد قطعت النصل، لشدَّة ما قطعها النصل.

وأصحابنا قد أثَّرتْ فيهم المدَّة الطويلة، والكُلف الثقيلة في استطاعتهم، لا في طاعتهم، وفي أحوالهم لا في شجاعتهم، وكلُّ مَن يعرفهم يناشد الله فيهم المناشدة النبوية، في الصحبة البدرية: «اللهمَّ إنْ تَهلِك هذه العصابة لا تُعبَد في الأرض»، ويرجو على يد سيدنا أمير المؤمنين الإجابة. فقد حرَّم على الفرنجة باباهم ـ بابا روما ـ كلَّ مباح، واستخرج منهم كلّ مذخور، وأغلقَ دونهم الكنائس، ولبسَ وألبسهم الحداد، وحكَمَ عليهم ألاَّ يزالوا كذلك، أو يستخلصوا المقبرة ـ قبر المسيح ـ.

---

(١) الروضتين (٢/ ١٥٧).

فيا خليفة محمد عليه السلام، أخلِفْهُ في أمَّتِه بما تطمئن به مضاجعه، ووفِّ الحقَّ فينا، فإنَّا والمسلمين عندك ودائعه.. ولولا أن في التصريح ما يعود على العدالة بالتجريح، لقال ـ صلاح الدين ـ ما يبكي العيون، وينكي القلوب، ولكنه صابرٌ محتسبٌ منتظرٌ لنصر الله مرتقب، قائم لله بما يجب.. ربِّ إنّي لا أملكُ إلاَّ نفسيٍ، وها هي ذي في سبيلك مبذولة؛ وأخي، قد هاجر إليك هجرةً يـرجوهـا مقبولـة، وولدي، وقد بذلتُ لعدوّك صفحـات وجوههم، وهان عليَّ محبوبك بمكروهي فيهم ومكروههم؛ ونقف عند هذا الحد، ولله الأمر من قبل ومن بعد».

تُرى هل تحتاج هذه الزَّفَرات اللافحة إلى تعقيب؟!.

* * *

القاضي الفاضل

ما تكْتَملُ سيرة صلاح الدين دون أن نعرضَ لسيرة مستشاره الأمين، وصديقه الحصيف، وصاحبِ سرِّه ونجواه: القاضي الفاضل، فقد كان الأديب الكبير من القائد العظيم بموضع الاسترواح من الهمّ، والتفريج من الكُرَب الشداد، إذ كان صلاح الدين لا يأمن على سرِّه سواه، ولو كان من أقرب قرباه، فقد جرَّب الأخَ وابن العمّ والصّهر؛ فوجدهم يعملون لأنفسهم قبل أن تجتمعَ كلمتهم على الجهاد، ورأى من دلائل الكراهة في أقوالهم ما سبَّب له حزازةً في النفس وغلّة في الصدر، فكان يستريحُ من غضبه بمحادثة صديقه الودود.

وكان القاضي الفاضل من الذكاء والإخلاص بالمنزلة التي تزيدُه تمكيناً فوق تمكين، لأن ذكاءه يمنعُه أن ينتقص أسرة الملك الناصر في حضرته، مهما انتقصهُم هو في شكواه، فكان يُغضي على ما يسمع، ويميل إلى السكوت دون التعليق، ولأنَّ إخلاصه كان يدفعه ألاَّ يسكت عن شرٍّ يوشك أن يحيق، فكان يجعل نفسه مكان صلاح الدين، فيفترض الاحتمالات، ويبني المقدِّمات ويستشفّ النتائج ثم يقابل صديقه ومولاه، وقد مَلك ناصع الحجّة، وأنار

ظلمات الشبهة؛ فأفرغ رأيه في ثباتٍ واستدلال، فكان هو الرأي الذي يجتبيه صلاح الدين ويصطفيه.

ولكنْ مَنْ هو القاضي الفاضل؟ هو عبدُ الرحيم بن علي اللخمي؛ ولد سنة (٥٢٩هـ) من أبٍ فقيهٍ قاضٍ عربي، ولأبيه منزلةٌ رفيعةٌ في محلّ قضائه بعسقلان، فشبَّ الناشئ ليرى مجد أسرته العربيـة، ومكانـة والده القاضي الأشـرف ـ كما كان بنـو بلدتـه يدعونه ـ. وقد كان القاضي الوالد لا يستجيب لرغباتِ والي عسقلان (المرتضى الطرابلسي) فبدت بينهما حزازات، رأى فيها القاضي أنَّ صلاح ولدِه ـ بعْد رحيله الموشك إلى ربِّه ـ لن يكون في مدينةٍ يتولاَّها خصمه، فأشارَ عليه بعد أن رضع لَبان الفقه والأدب والحديث أن يرحل إلى القاهرة، ليجد من أصدقاء أبيه مَن يأخذ بيده، وقد حقّق الله أملَه فاتّصل بابن الخلاّل رئيس ديوان الإنشاء ولزمه وتدرّب على يده، حتى عرف قواعد الكتابة الديوانية، وسار له بها ذكر، ثم رأى نفسه لا يتقدَّم بين موظفي الديوان، وهم أكثرُ منه صلةً بذوي الأمر، فذكر أنَّ لوالده صديقاً بالإسكندرية هو القاضي ابن حديد، وأنَّ بين الوالد والقاضي مراسلاتٍ دينيّة وأدبية تنطق بالودّ، فبادر بالرحيل إلى الثغر، وأنزله القاضي منزلاً حسناً، إذ استكتبَه في مجلس قضائه، وجعل رسائله إلى الرؤساء في القاهرة من فيض خاطره.

وكان بعض هذه الرسائل النابهة خاصّاً بالوزير العادل (ابن رزّيك)، فرأى في أسـلوبها ما أثـار انتباهـه، وقـال: إنَّ القاضي

ابن حديد فقيهٌ لا يرقى قلمُه إلى هذا المستوى، فبعث إليه أنْ يُرسلَ كاتب الرسائل إليه بالقاهرة، وسرعان ما انتقلَ إلى حظّه السعيد، حيث آثرَه العادلُ واجتباه؛ ولكن السياسة لا تصبرُ على حال، فقد قُتِل العادل على يد شاور، ولم تَضِق الحياة بعبدِ الرحيم، لأنَّ الأمير شجاع بن شاور كان يعرف مكانته الأدبية، فقدَّمه إلى القصر الفاطميّ ليكون كاتباً للعاضد، وأخذ يتولَّى تحرير رسائل الخليفة إلى من يكتب إليهم، ومِن هؤلاء نور الدين محمود، الذي تعجَّب كثيراً من بيان الرسائل، وقرأها لخاصَّته، ومنهم أسد الدين شيركوه وصلاح الدين، فعرفا الرجل قبل أن يقدما البلاد.

وكان هذا من حظّ القاضي الفاضل، لأن صلاح الدين قد سأل عنه وأكَّد صلته به، ثم اختاره ليكون لسانه في مكاتبة الخلفاء والملوك والأمراء، فأبدى من البراعة ما جعله ينطق عن ضمير صلاح الدين بكلِّ ما يريد، وأحلَّه ذلك من نفسه منزلةً عالية، فصرَّح له أنه أعزُّ عليه من أهله وأولاده. كان إذا سافر في غزوةٍ ما وتركه لتدبير الأمر بالقاهرة كاتبه طالباً المشورة، جاعلاً له الكلمة على من خَلَّفه من أولاده في دَسْت الحكم، حيث يصدرون عن أمره.

وقد صحبه في بعض حروبه في ديار الشام، وقام على تدبير شؤون الجيش والأسطول والإدارة الداخلية، فيمضي حكمَه دون الرجوع إلى السلطان. ومازال القاضي صديقه الأول حتى اختار الله صلاح الدين لجواره، وحاول أن يتمثَّل دوره مع العزيز ولد صلاح الدين كما كان الحال في أيام أبيه، ولكنه وجد العزيز لا يستَمعُ إليه

حين أشار عليه بأن يُهادن أخاه الملك الأفضل، لذلك آثرَ أن يعتزل السياسة متعلّلاً بالمرض؛ إذ رأى أنَّه لا يستطيع أن يشتغل بها وهو لا يملك المشورة كعهده من قبل، وقد يخفق العزيز فيحسب ذلك عليه، ويراهُ خصومه عدوّاً لا صديقاً، لذلك اعتلَّ متمارضاً، ولجأ إلى الهدوء بعيداً عن الصيال حتى لقي ربَّه مقدَّراً غير منكور.

تحدَّث الدكتور عبد اللطيف حمزة عن القاضي الفاضل بمقالٍ قيِّم نشره بمجلة الثقافة[1]، قال فيه ـ ببعض التصرُّف ـ:

«سُلِّمَتْ للقاضي الفاضل ـ زمن صلاح الدين ـ زعاماتٌ أربع، لا نكادُ نعرفُ أنَّها سُلِّمت كلها لرجلٍ مثله في عصرٍ من عصور التاريخ المصري؛ وهي: الزعامةُ السياسية، والزعامةُ الاجتماعية، والزعامة العلمية، والزعامة الأدبية.

أما الزعامة السياسية فيكفي في تصويرها قول صلاح الدين: «ما ملكْتُ البلاد بسيوفكم ولا رماحكم، ولكن بقلم القاضي الفاضل».

وأما زعامةُ الفاضل الاجتماعية فيكفي في تصويرها أنَّ شعراء عصره مدحوهُ جميعاً دون استثناء، وكان قُصارى جُهْدِ أحدهم في حياته أن ينال شرف مدحه، ومدح السلطان... إلخ.

وأما زعامة الفاضل العلمية فتظهر من أنه كان القائم على تنفيذ

---

(١) مجلة الثقافة عدد (٢٦٧) بتاريخ ٨/ ٢/ ١٩٤٤ تحت عنوان (أدب القاضي الفاضل).

هذه الخطة الذهبيّة، وهي الخطّة التي جاء بها صلاح الدين إلى الديار المصرية، وتتلخَّصُ في إنشاء المدارس العلمية التي تُحارِب بها الدولة الأيوبية عقائد الدولة الفاطمية، وقد نجح السلطان ووزيره في هذه الخطَّة التي رسماها نجاحاً لا يفوق مثله، ثم لم يكتفِ القاضي بذلك، حتى كان يشرف بنفسه على سير الحركة العلمية كذلك، فكان يشجِّع العلماء على التأليف والإنتاج.

أما عظمتُه الأدبية فهي بيت القصيد، والغريب أنَّ الناس نَسُوا أو كادوا ينْسُون للفاضل الزعامة السياسية، والزعامة الاجتماعية، وبقيت الزعامة الأدبية حيَّة في أذهانهم، كأنها الأدب بين مذاهب الحياة كلها، هو الذي يستأثر دونها بالخلود».

أما الغريبُ الذي تحدَّث عنه الدكتـور؛ فهو أمرٌ مطَّرد في التاريخ؛ لأنَّ كلَّ من اشتهر بالسياسة والأدب معاً تغلب عليه شهرةُ الأدب فتغطّي على جهوده السياسية، وفي عصر القاضي الفاضل مثالٌ لذلك هو الأمير أسامة بن منقد، حيث كان محارباً خاض المعارك وكسب الغنائم، وكان شاعراً مُصنِّفاً، والناسُ لا يذكرونه اليوم إلاَّ بالشعر والتصنيف.

إنَّ قارئَ هذه الحقبة من التاريخ يجدُ بصمات القاضي الفاضل في كثيرٍ مـن الأحداث الهـامَّة، حتَّى قبـل أن يلي صـلاح الدين الوزارة، فإن الخليفة العاضد قد استمع إلى رأيه في اختيار صلاح الدين حينَ حضر مجلس الخلافة في الاختيار، فعرض القاضي لجميع المرشَّحين، وذكر لكل مرشَّح مزاياه ومؤاخذاته، ثم ذكر

صلاح الدين فأشار به، ووافق العاضد على مشورته! وهو موقفٌ لا ينساه صلاح الدين.

وفي حصار الصليبيّين لدمياط، كان القاضي مستشارَ الرجل المقرَّب، وهو الذي أشار عليه أن يُرسِلَ إلى نور الدين مستنجداً عن طريق الحمام الزاجل، ليكون الردّ أسرع وأفْيد، وفعلاً علِم نور الدين بهجوم الصليبيِّين؛ فنفر لقتالهم في الشام، وخاف (أموري) على دولته؛ فعجَّل بالانسحاب. وفي غزوة الكرك لم يتهيَّأ صلاح الدين للحرب إلاَّ بعد مشورته، وفي الغزوات التي كان يصحبه بها، كان لا يبعد عن جواره، إذا ترك ساحة الحرب فلأمورٍ تتعلَّق بها، وتقفُ نتائجها على جهده، ومَن يقرأ تاريخ صلاح الدين في مراجعه المستوفاة يتخايل له اسم القاضي كثيراً بين السطور، لأنه الرجل الثاني في هذا المضمار.

وقد اشتهر القاضي الفاضل بأنَّه زعيم الأدب النثريّ في عصره، ولهُ طريقةٌ في الكتابة عُرِفت به، وعُزيت إليه، يقول عنها الأستاذ علي الجارم[1]:

«تأثَّر الكتَّابُ في هذا العصر طريقة القاضي الفاضل التي جَرَتْ على غِرار طريقة ابن العميد، وأرْبَتْ عليها بالإغراق في التورية والطباق ومراعاة النظير، وغير ذلك من أنواع البديع، لذلك كانت طويلة الأسجاع، لأنَّ التعمُّل لإبراز هذه الأنواع كان يضطرّ

(١) جارميات، للأستاذ الجارم، (ص ٩٧).

الكاتب إلى التمهيد لها والاحتيال على إيرادها، وهذا يدعو إلى تطويل الكلام، وكانت مواهب القاضي وسلامة فطرته وتمكّنه من اللغة تُنقِذُ كتابته من السقوط في دَرْكِ السخف؛ وكثيرٌ مما بين أيدينا يشهد له بحسن الذوق، ودقّة الصناعة، والقدرة على اجتذاب القارئ كيفما كان رأيه فيما يجب أن تكون عليه الكتابة الفنية».

وقول الجارم رحمه الله: «اجتذاب القارئ كيفما كان رأيه فيما يجب أن تكون عليه الكتابة الفنية»؛ يدلّ على أنَّ الأذواق قد تغيَّرت، وأنَّ أسلوبَ القاضي الفاضل إن أعجب أبناء عصره، لا يحوزُ قبول البيانيين في هذا العصر إلا باعتباره صفحةً من صفحات التطوُّر الأدبيّ للكتابة الفنّيّة، جاوزها الزمن إلى غيرها من أساليب التحرر والانطلاق.

وقد لاحظتُ أنَّ أكثر الأنواع البديعية التي اهتمَّ بها القاضي الفاضل؛ هو الاقتباس من كتاب الله، وهو بابٌ صعب المرام لا يجيده إلا مَن قدر على فهم آيات الكتاب المبين فهماً واعياً، ثم قدر على أن يُنزل الاقتباس منها مَنْزِلة الصحيح، لأنَّ كثيراً ممن تبعوه قد ولعوا بالاقتباس على غير دُرْبة وإمكان، فحاولوا تقليد القاضي تقليداً لم يُرزقوا فيه موهبته، فجاء اقتباسهم في غير موضعه وهو أمرٌ يجب الاحتراز عنه؛ لأنَّ المقام مقام كتاب الله.

ولي ملاحظتان بشأن أدب القاضي بعامة:

الملاحظة الأولى: أنَّ المؤرِّخين تجاهلوا شعره، فذكروه

عَلَماً من أعلام النثر في عصره، ولم يذكروه شاعراً مجيداً، مع أن شعره في نقْدنا المعاصر أرقى من نثره، لأنَّه نجا كثيراً من وَهَن المحسِّنات، وقد صدر ديوانه بتحقيق الدكتور أحمد بدوي رحمه الله، وطالعتُهُ فما شعرتُ باستثقالِ ما أعهد من بعض نثره، بل رأيت غوصاً على المعاني لا على تنميق الألفاظ، غوْصاً يدلُّ على عُمقٍ فكريٍّ نادرٍ بالنسبة لعصره، فالقاضي كان أحْدَبَ غير ذي رَوْنَق، ومع ذكل كان له قلب يخفق، وظلّ يرسل شعره في الغزل العاطفي حتى وافاه الشيب، فلم يجدّ به جديداً عليه، لأنَّه كان من علّته في شيبٍ مستتر؛ يقول القاضي:

فبلغـــتُ أوَّل عمـــري أرذلَ العمـــر
فلم يزدْني اشتعالُ الشيب في الشعرِ
والشيبُ والشّعر كانا ساكنَيْ خَلَدي
وإنَّمـــا انتقـــلا منـــه إلـــى نظـــري
كـان الحِمـام أمـام الصَّفْـوِ أرفـق بـي
مـن الحيـاة التـي أفضَـتْ إلـى الكـدر
عمـرُ الفتـى ليلُـه، والمـوتُ صُبْحَتُـه
والشيبُ بين الدجى والصبح كالسحر

فهذه أبيات شاعر متأمِّل حكيم! ولو فرَغَ القاضي لهذا الضَّرْبِ من التأمُّل؛ لكان فيلسوفاً من طراز أبي العلاء المعرّي. ومِن شعره الغزليّ الدقيق قوله عن فاتنة حسناء مُغنّيه:

تلـــذُّ بجنّتهـــا أعيـــن وفيهـا التـي تجتنـي الأنفـسُ

لهـــا نكهـــةٌ إذ تُحيّـــي بهـــا ... يغـضُّ لهـا عينُـه النـرجس
وجـاءت بعـد دلِّهـا مطـرب ... أرمّ لهيبتــــه المجلـــسُ
أرى العودَ من قبلها أخرساً ... وفـي يـدهـا ينطـق الأخـرسُ

وقد كنَّا في عهد الطلب بالمعاهد الثانوية نحفظ قصيدةً طويلة للقاضي الفاضل، جاء في مطلعها عن شهر رمضان:

قضى نحْبه الصومُ بعد المطال ... وأُطلـق مـن قيـد فتـر الهـلال
وروَّض كـاتـب جَنْبـي اليميـن ... وأتعبَ كاتب جنبي الشمال
فـدعْ ضيقـةً مثـل شـدِّ الإسـار ... إلـى فـرجـةٍ مثـل حـلّ العقـال
فـلا تـذكـرنّ عهـود الـوصـال ... فعهـدي بهـا والليـالـي ليـال

أما الملاحظة الثانية: فهي أدبُ القاضي المسترسل دون سجع، فهو لونٌ من التفكير الدقيق، ينساب في تعبير موفَّق، وقد كان يكتب به كثيراً إلى صلاح الدين الأيوبي في رسائله الخاصة حين يكون الملك الناصر غائباً عن مصر في غزوةٍ من الغزوات، وأنا أحرص على التعبير بالغزوة في حديثي عن حروب صلاح الدين، لأنها كلّها كانت في سبيل الله، فهي تحتذي غزوات بدر وأُحُد وغيرهما، وكان صلاح الدين يفرح بخطابات القاضي إذا كَتَبَ له مهنِّئاً بالنصر، كما كان يتأسَّى برسائله إذا كتبَ له مواسياً بعد إحدى الهزائم.. ففي انكسار صلاح الدين بعد موقعة عكا، علم القاضي ـ وكان بمصر ـ أن السلطان في حزنه الأليم لا يأكل ولا يشرب، فرأى من واجبه أن يكتب إليه مواسياً، فأتى بالرائع المبدع حين قال مخاطباً صلاح الدين:

«يا مولاي؛ أليس الله قد اطَّلع على قلوب أهل الأرض، فلم يؤهِّل ولم يستصلحْ ولم يخترْ في إقامة دينه وإعلاء كلمته سواك، هذا وفي الأرض مَن له بالنبوَّة قرابة، ومَن له بالمملكة وراثة، ومَن له في العدد ثروة، فأقعدهم وأقامك، وكسَّلهم ونشَّطك، وحبَّب الدنيا إليهم وبغَّضها إليك، وأغمد سيوفهم وجرَّد سيفك، ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

نعم. وأخرى ـ أهمُّ من الأولى ـ أنه لما اجتمعت كلمةُ الكفر من أقطار الأرض وأطراف الدنيا، وزخَر البحر، ما تأخَّر منهم متأخِّر، ولا استبعد المسافة بينهم وبينك مستبعد، وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة، لا أموال تُنفق فيهم، ولا ملوك تحكم عليهم، وهم من كلِّ حَدَب ينسلون، كنت يا مولانا كما قيل:

ولست مليكاً هازماً لنظيره ولكنّه الإسلام للشِّركِ هازم

هذا، وليس لكَ من المسلمين كافة ساعدٌ إلاَّ بدعوة، ولا مجاهدٌ معك إلاَّ بلسانه، ولا خارجٌ معك إلا لهمٍّ، ولا خارج بين يديك إلاَّ بالأجرة، ولا قانعٌ منك إلاَّ بالزيادة، تشتري منهم الخطوات شبراً بذراع، وتدعوهم إلى الله، وكأنَّما تدعوهم لنفسك، وتسألهم الفريضة، وكأنَّما تكلِّفهم النافلة، وتعرِض عليهم الجنَّة، وكأنَّك تستأثر بها دونهم، والآراء تختلف بحضرتك، والمشورات تتنوَّع بمجلسك، فقائلٌ: لِمَ لا تُباعد عن المنازلة؟ وآخر: لِمَ لا تميلُ إلى المصالحة، ومتندِّمٌ على فائتٍ ما كان فيه حظ، ومشير

بمستقبل ما يلوح فيه رشد. . . ويريدُ المملوك بهذا ألاَّ يتغيَّر لمولانا وجهٌ عن بشاشة، ولا صدرٌ عن سَعَة، فالشدَّة تذهب، ويبقى ذكرها، والأزمة تنفرج ويبقى أجرها».

هذه بعض رسائل المواساة، ولها أمثالٌ أروعُ منها، لأنَّ المقام ليس مقام إحصاء، ولكنَّه استشهاد، وقد اخترتُ هذه الرسالة بالذات لأنها قطعة حية من تاريخ صلاح الدين، تصوِّر مَن حوله أكمل التصوير، وتفضحُ أناساً يُظهرون الودَّ ويبطنون الكيد، ويَدعون إلى التخاذل مَن يهمّ بالكرَّة، ويسعَوْن في الحرب لِمَا يرْجون من مغنم دنيويّ، لا لما يُدَّخر عند الله من ثواب أخروي! وصلاح الدين يعلمهُم عن يقين، ولكنه صبورٌ لا يُفصح، فإذا قرأ خواطره الدفينة في كتابٍ مبسوط، سُرَّ وبُشّ وافترّ، وهذا بعض ما عناه القاضي حين توالت رسائل كثيرة منه تنسج على هذا المنوال!.

وقد قرأتُ رسالة نثرية للقاضي الفاضل كتبها لأخيه عبد الكريم حين اغترَّ بسلطان أخيه القاضي الفاضل، فأساء إلى رجل كريم هو الأمير علم الدين بن النحَّاس، وطار الخبر إلى القاضي الفاضل، فاشتعل الغضب في نفسه، وكتب ما يلي بحروفٍ من الجمر لا بنقط من المِداد، وفي هذه الرسالة عبرةٌ لمن يحتمون بأقاربهم من الرؤساء، فيبخسون الناس أشياءهم، مغترّين بما يستندون إليه من جاه، ولا يجدون غيرَ الإغضاء ممَّن استندوا إليه، أمَّا القاضي الفاضل الكريم المعدن؛ فقد صاح بأخيه قائلاً[1]:

---

(١) نقل هذه الرسالة كمال الدين بن العديم في مخطوط قرأه الأستاذ =

«بالله أُقسِم لئن لم تُداوِ ما جَرحت، وتستدرك ما فعلت، وتستأنف ضدَّ القبيح الذي كتبت به وشافهت؛ ليكونَّن الحديثُ مني بغير الكتاب، ولأزيلنَّ السبب الذي قدرت به على مضرَّة الصحاب، فويلٌ لِمَن كانت غنيمتُه من الأيام عقدَ القلوب على البغضاء، وإطلاقَ الألسنة بالمذامّ، ولولا أنَّني شريكُكَ في كلٍّ ما تستوجبه من الناس، لألقيتُ حبلك على غاربك، وتركتُك وما اخترتَ لنفسكَ، ولكنَّ سكوت الناس عن قبيحك مقابلةٌ لجميلٍ كثيرٍ منِّي، لأنَّك لا تنفق إلاَّ من كيسي، فأشفق على تعسك إن كنت تنظر في أمسك، وعلى مكانك مني إن كنت لا تنظر إلاَّ في اليوم، ولا تجاوِبْني إلاَّ بلسان الرجل شاكراً لك، فإنه وإن كان والله ما ذمَّك نقدٌ ذَمَمْتُك به عنه، ولولا علمي أنَّ الكثير مما قيل عنك في أمرِ الرجل هو القليل مما فعلته لأضربتُ عن هذا الكلام كما أضربتُ عن غيره، وستعرِّفُكَ الأيام ما كنت تجهل، والله يأخذ بناصيتك إلى رضاه، ويغمد سيفك عن مقتلك، والسلام».

لم أسُقْ هذه الرسالة أنموذجاً من أدب القاضي المنطلق فحسب، ولكن لأكشف عن خُلُقٍ نفسيٍّ رائع جدير بأن يكون موضع الاحتذاء في دنيا السلوك الإنساني المجيد.

* * *

= محبّ الدين الخطيب، ونقله عنه بالجزء الثالث من الحديقة، (ص ٢٨).

مصاعب وأزمات

لم يُـتَح لصلاح الدين أن يذوق قليلاً من الصفو بعد (عكَّا)، إذ كان كثيراً ما يوازن بين آماله الواسعة بعد فتح بيت المقدس، وانحسارها المؤلم بعد هذه المعركة، وقد كان من المتوقَّع أن يتحالف الأمراء من المسلمين على تعضيده، وأن يعدُّوا ما أصاب المسلمين قدراً لحقَهم جميعاً، وما صلاح الدين إلَّا أحدُ مَن فاجأَهُم هذا القَدَر، ولكنَّ الأمراء تجمَّعوا تحت تحريض أحدهم، إذ اجترأ على أن يقول للسلطان: إنَّ الأمراء سيرحلون إلى مدنهم ليحكموها بعيداً عن حربٍ لا فائدة من استمرارها.

وأحسَّ صلاح الدين أنَّ الذي يتحدَّث ليس وحده، ولكن معه مَن يشدّ أزره، فسكتَ حتى ينتهي إلى رأي.

ثم طلب القاضي بهاء الدين بن شداد ليُفصِحَ له عن شجونه، ويسأله الرأي فيما بدا مِنْ تَنابُذ؛ فأشارَ القاضي بأن يحضر اجتماع الأمراء بالسلطان، وكانت له هيبة جليلة في نفوسهم، فلم يشأ أن يفلت الزمام من يده، بل بدأ يقول: «إنَّ النبيَّ ﷺ حين اشتدَّ به الأمر في بعض أزمته بايَع أصحابه على الموت في لقاء العدو، ونحن

أولى أن نتأسَّى برسول الله، فالرأي أن نجتمع كلّنا عند الصخرة ونتحالَف على ما تحالف عليه رسول الله، وسيدركنا النصر»؛ فكان حديث رسول الله ﷺ باعثَ يقظة حيَّة في نفوس المستمعين، وأعلنوا ارتياحهم لما سمعوه، فانتهز صلاح الدين هذه اليقظة الطارئة، ووقف خطيباً يقول:

«اعلموا يا قوم أنَّكم وحدكم اليوم جند الإسلام، ودماء المسلمين وأموالهم معلّقةٌ بذممكم أنتم، وليس لهذا العدوّ الغادر مَن يلقاه غيركم، فإن تولَّيتم عنه طُويت بلادُ الإسلام تحت قدمه كطيِّ السِّجلِّ وأنتم تنظرون، والمسلمون كلهم في بقاع الأرض يعقدون الأمل عليكم وحدكم، فكيف تخذلونهم وقد وعد الله عباده النصر على أعدائهم، ولن يكذب الله وعده»! ثم بكى السلطان؛ فتأثَّر الحاضرون وقالوا جميعاً: نحنُ يا مولانا عبيدك ومماليكك، أنت الذي ربَّيتنا وعظَّمتنا وأعطيتنا وأنعمت علينا، وليس لنا إلا رقابنا، وهي الآن بين يديك، ولن يرجع أحد منَّا عن نُصْرتك حتى نموت!

لقد كان الموقف حاسماً تغيَّر به الوضع من حال إلى حال ببركة مشورة بهاء الدين، وكان السلطان ممتنعاً عن الطعام لم يذقه، فقرَّت عينه، ودعا بالسماط، وأكل الجميع في فرحة، وقد أكَّدوا عزمهم، وكأنَّ الله أراد أن يثبِّت من بأس القوم، فقد جاءت الأنباء بأنَّ ملوك الصليبيّين أخذوا يتناحرون؛ إذ قام النزاعُ بين اثنين من كبرائهم حول عرش بيت المقدس حين يفلحون في استرداده، نزاعاً

تطوَّر إلى حدّ العداء، كما أنَّ (فيليب أغسطس) ـ ملك فرنسا ـ قد غادر الشام إلى أوروبا ضائقاً بهذا النزاع، وتاركاً الأمر لـ(ريتشارد) قلب الأسد ملك إنجلترا، وفي هذا كله ما يعطي معنى الخذلان لدى القوم، وما يعطي معنى التساند لدى المسلمين.

كان ريتشارد الإنجليزي ينظر إلى حسابه قبل أن ينظر إلى قضيّة المسيح التي كانت السبب الظاهريّ لحملته، ففرح في نفسه أن تَخَلَّص من مزاحِمه الكبير ملك فرنسا، وأن أصبح رجل الموقف يُدوي صيتُه بين الناس في أوروبا، باعتباره هو الذي يقف في وجه صلاح الدين بعد موت ملك ألمانيا وفرار ملك فرنسا. وقد ذاعت عنه بطولات ميدانية لا شكَّ فيها، ولكنَّها ليست بطولة الفارس النبيل كما حاول بعض كتَّاب الغرب أن يصفوه ليضعوه بذلك في صفِّ صلاح الدين! لأنَّ واقع الأحداث ينطق بأنَّ الملك داهيةٌ ماكر، إذ أبدى التسامح واتَّسم بالنبل فلصيدٍ يحاول اقتناصه، لا لأن مُثُلاً عالية تهديه، وهذا ما غاب عن أحد كتَّاب أوروبا حين قال بصدد الحديث عن ريتشارد:

«لقد هُذِّبت طبائع أمرائنا الإقطاعيين الخشنة في العصور الوسطى بفضل علاقتهم بالعرب، وتقليدهم لهم، فتعلَّم أشرافنا وفرساننا رقَّة العواطف، وحسن الأخلاق، دون أن يفقدوا شيئاً من شجاعتهم، وإني أشكّ في أنَّ النصرانية وحدها كانت تستطيع أن تأتي بمثل هذا التأثير»[١].

---

(١) الناصر صلاح الدين، للدكتور عاشور، (ص ٢٤١).

نعم إنَّ أثر المسلمين في تهذيب الطبائع الأوروبية مما ردَّده الأوروبيُّون أنفسهم، فلا مجال للشكِّ فيه، ولكنَّ أنداد صلاح الدين من الملوك كانوا بمنأىً عن هذا الأثر، فإذا ذُكِرَ لصلاح الدين حرصه على الوفاء بالعهد، فإن ريتشارد لم يعرف معنى هذا الوفاء، إذ أنَّه حين انتصر في موقعة عكَّا، ودخل المدينة مقيَّداً بشروط الصلح، نبذها من وراء ظهره، وقبضَ على كلٍّ من بها من المسلمين، وكانوا أكثر من ثلاثة آلاف مسلم، وأعملَ فيهم السيف جميعاً! فكيف يُقال: إنَّه مَثَلٌ للفروسية التي نجد مظهرها الأمثل في صلاح الدين!

ومؤرخو أوروبا يعلمون جميعاً ما كتبوه عن موقف صلاح الدين من الصليبيّين يوم فتح القدس، فقد عفا عنهم، وتركهم يرحلون آمنين، ومَنْ بقي كان آمناً على نفسه وماله! وكان فيما صنع هذا الغادر بمسلمي عكا ما يدفع صلاح الدين إلى الانتقام من أسرى الصليبيّين، وعددهم تحت يده أكثر من عدد المسلمين الشهداء، وقد أُشير عليه بذلك فرفض أن يغدر بقوم أمَّنهم على أرواحهم لأنَّ غادراً لم يفِ بالعهد، فالخطأ في رأيه لا يبرر الخطأ! أفنقول بعد ذلك إنَّ ريتشارد كان فارساً من معدن صلاح الدين؟!.

لقد وَقَر في نفس ريتشارد أنه سيستردَّ بيت المقدس بعد معركة عكَّا، فصمَّم على أن يبدأ الخطوات المرشحة لهذه النتيجة المرتقبة في رأيه، فحاول إعادة ساحل البحر من عكا إلى عسقلان، وأخذ يدمِّر ما يقع في طريقه من القرى والمدن. ولكنَّ صلاح الدين تعقَّبه وأوقع به، فاضطرَّ إلى جهة أخرى تكونُ بعيدةً نسبيّاً عن جيوش

صلاح الدين معتمداً على ما يأتي به الأسطول الفرنجي من زاد ورجال؛ فاحتلَّ حيفا، واتَّجه إلى قيسارية، ومنها إلى أرسوف؛ حيث أنجدته القوى الوافدة بما لم يكن ينتظر، ودارت معركة حامية حول (أرسوف) كانت عاقبتها احتلال المدينة بعد تراجع المسلمين.

وكان احتلال الفرنجة لأرسوف مكمن خطرٍ على الروح المعنوية للجيش الإسلامي، ومصدر احتجاج لبعض الأمراء الذين آثروا أن ينهوا معركتهم مع الصليبيّين بالانسحاب التام، وقد تحمَّل السلطان مشاقّ نفسيّة في سبيل إرضائهم، وأعلمهم أنَّ ريتشارد لا بدَّ أن يُداهم بيت المقدس إذا علم أنَّ التخاذل قد ساد بين الصفوف.. ولم ينتظر الجواب بل سارع بمن معه إلى عسقلان ليدمّرها رغماً عنه كيلا تكون مصدر قوَّة للأعداء في مهاجمة بيت المقدس المنتظرة.

وقد عزَّ عليه أن يخرج الأهل من المدينة حاملين أنْفَس ما يحرصون على بقائه، مبشِّراً إيَّاهم بردِّ ما يفقدون حين يتمُّ الانتصار في بيت المقدس، وكان تدمير عسقلان مصدر فزع للصليبيّين؛ إذ كانوا يعوِّلون عليها في اتِّخاذها مقرّاً لإدارة المعركة متمتّعين بما بها من خيرات وذخائر، وقد حصل ما يشبه الانشقاق بين أمراء الصليبيّين وملوكهم، إذ اختلفت مطامعهم السياسية، ولجأ (كونراد) إلى صلاح الدين ليكون حليفاً له في وجه ملك إنجلترا، ولكنَّ السلطان عرف من تجاربه الأليمة أنَّهم أهل غدر، فرفض ما عرض عليه.

وتحقق ظنُّ السلطان إذ رأى ريتشارد يجتمع معه ليدبِّرا خطَّة

جديدة، وقد صمَّما على الزحف قبل موسم الشتاء، فسار ريتشارد إلى الرملة واللَّد، في طريقه إلى بيت المقدس، حيث كان صلاح الدين قد أخلاهما تماماً من كلٍّ ما يجلب النفع للأعداء، فأمَّن بذلك جانباً من المخاطر المرتقبة، وزحف إلى بيت المقدس، فسارع بإعداد العدَّة الكاملة للدفاع، وكان قلب الأسد قد أوجدَ في جيشه شعوراً دينيًّاً يشبه الشعور الذي بعثه البابا الكاثوليكي عندما دعا إلى الغزو في الحملة الأولى، فتقدَّم الرُّهبان جيشه يقرؤون الإنجيل، ويرفعون الصليب، ولم يسر الجيش سريعاً لمبتغاه؛ حيث كان يتلبّث في الطريق، وكأنَّه يرتاح استعداداً للموقف المنتظَر.

وهذا ما أتاح لصلاح الدين أن يُحكم ترميم أسوار المدينة، بل إنه شرع في بناء سور جديد، وقسَّم العمل بنفسه على الأمراء، كي يقوم كلُّ أمير بالإشراف على جانبٍ معيَّن من السور في همّة لا تعرف الكلال، وبذلك ارتفع السور الشامخ وكأنه حصن جديد، وليس السور فقط هو الذي كان موضع اهتمام السلطان؛ بل شرع في حفر الخنادق المحيطة به لتكون موضع تعويق أمام الزحف المنتَظَر.

ويحكي المؤرخون أنَّ السلطان العظيم كان ينقل الأحجار بيده مع أولاده وكبار أسرته ليضربَ المثل المستبسل في سرعة الإنجاز، ورأى الفقهاء والعلماء عرق السلطان يسيل من شدَّة الجهد؛ فسارعوا بالعمل معه، وهم يتلون كتاب الله! وكأنَّ الله قد استجاب لدعوات مَن يقاتلون في سبيله صفَّاً كأنَّهم بنيانٌ مرصوص، فأنزل الرعبَ في قلب ريتشارد، حين رأى السور يعلو، وحين علم أنَّ الخنادق قد حُفرَت

في وقت سريع، فقال في نفسه: وإذا كان هذا بعض ما يُرى من الخارج، فما بال المتحفزين للدفاع في الداخل، ومعهم أقوى الذخائر وأشدّ الرجال، ومن ثمَّ فقد آثر الانسحاب، ورجع نحو الرملة يندب أملاً رآه عسير التحقيق.

ويتحدَّث المؤرخون مسهبين عن مفاوضات كثيرة، كان أطرفها أن يقترح ريتشارد على السلطان أن يتزوَّج الملك العادل ـ أخو صلاح الدين ـ شقيقته الأميرة جوانا، فيساعد ذلك على صلح نهائي، حيث يشترك الزوجان في إدارة الحكم ببيت المقدس، فيصبح مقسَّماً بين المسيحيّين والمسلمين، وقد رحَّب الملك العادل بهذا الاقتراح، وكان الرجل الثاني في المعارك بعد صلاح الدين، حيث أبدى من البسالة ما تذكره صحف التاريخ بالتقدير والإعجاب؛ ولكنَّ الأميرة سمعت إلى تحذير القُسس وتهديدها بالطرد من جنّة المسيح، وهذا ما كان يعلمه صلاح الدين سلَفَاً حين أظهر الموافقة مبدئياً، إذ يعرف أنَّ المسألة ليست من السهولة كما يتصوَّر قلب الأسد، فإذا كان الإسلام يبيح للملك العادل أن يقترن بالأميرة الصليبيّة، فإنَّ غُلاة القُسس سيجعلون ذلك مصدر لعنةٍ أبدية! ولكنَّ هذا الاقتراح ـ بصرف النظر عن عدم تحقيقه ـ يدلُّ على أنَّ ملك الإنجليز قد أدركه السأم، كما يدلُّ على أن المسألة لديه ليست مسألة انتصار الصليبيّين وطرد المسلمين، بل مسألة سلطانٍ وجاه قد تأكَّد منهما قبل مجيئه، وبنى عليهما أعظم الآمال، ثمَّ لم يجد في يده غير الهواء.

وحين انكفأ ريتشارد إلى عسقلان؛ شرع في بناء سورٍ يُماثل

سور بيت المقدس، ليتَّخذ من المدينة مقرّاً آمناً يصلح أن يكون موضعاً استراتيجياً يهدِّد ما يأتي إلى بيت المقدس من الذخيرة والأقوات، وكتب إلى أمراء الصليبيّين وملوكهم كي يجتمعوا معه لتحديد البلاد الخاصة بكل ملك، والتأم مؤتمرٌ كبيرٌ يجمع المشاهير من الأبطال، فظهر الاتجاه القوي لاختيار (كونراد) ملكاً على بيت المقدس لما عُرِفَ من شجاعته المشهودة، وهو اتّجاهٌ لم يسترح له قلب الأسد في أعماقه؛ إذ كان يودُّ أن يكون هو البطل المُعْلَم، ولكنه لم يشأ أن يُصادم رغبةً رآها موضع الإجماع من غير جنوده، فأسرَّها في نفسه.

ولم يمضِ وقت ما حتى اغتيل (كونراد) بيدٍ مجهولة، وقد حار المؤرخون في تحديد القاتل، فذهب قومٌ إلى أنَّ قلب الأسد قد تآمر عليه، وذهب آخرون إلى ثأر مستحكِم بينه وبين الفدائيين من الإسماعيلية، وهم لا يصبرون على هوان؛ فانتهزوا فرصةً سانحةً لاغتياله، ومنهم من قال: إنَّ السلطان قد دبَّر ذلك وقام على تنفيذه.

والرأي الأخير أضعفُ الآراء وأرذلها، إذ لم يسبق لصلاح الدين أن ائتمر بأحد في الخفاء، وفروسيَّته المشهودة تنطق ببراءته؛ ثم إنَّه يعلم أنَّ (كونراد) خصم عنيد لقلب الأسد، فكيف يُسهِم في إراحته من خصمه العنيد، وهو العدوّ الأول لصلاح الدين! كما أكَّد مرافقو صلاح الدين ممن خالطهم بنفسه، وكتبوا سيرته بعد وفاته؛ أنَّه عدَّ قتْلَ كونراد مبعثَ قلق جديد له.

الحقُّ أنَّ إصبع الاتهام تشيرُ إلى قلب الأسد، وقد أقرَّ القاتلان

بذلك أثناء استجوابهما، فالقولُ أنهم يدلّسان كي يُصرف النظر عن المتآمر الحقيقي: موضع نظر، وإذا كان الثابتُ أنَّهما من غلاة الباطنية، فإن العداء المستحكم بين الإسماعيلية وصلاح الدين يمنع السلطان أن يجعل منهما أداة قتل وغدر، وكيف يأمنهما على نفسه، وقد دبَّرت هذه الطائفة عشرات المكايد لاغتياله، فباءت بالخذلان.

إنَّ المعارك المتبادلة بين المسلمين وريتشارد بعد هذا الاغتيال؛ لم تُفسح باب الأمل أمامه، بل زادته يأساً، وإذا كان المسلمون قد أُرهقوا إرهاقاً بما نالهم من تتابع هذه الوقائع، فإنَّ ما أبدوه من شجاعةٍ في حماية بيت المقدس قد كان مضرب المثل، وقد نجح الأبطال في تعقب الجيش الفرنجي حين نزوحه من عسقلان إلى بيت المقدس تعقباً أفقده الكثير قبل أن يتلاقى الجمعان، وقد جبنوا عن اقتحام المدينة.

ثم جاءتهم الأنباء بأن القافلة القادمة إليهم من يافا تحمل الضروري من الأقوات والذخائر قد استولى عليها الأمير بدر الدين دلدرم أحدُ القادة المسلمين، بعد معركةٍ أفقدتهم كل ما لديهم من عتاد، لذلك صمَّم ريتشارد على أن يقف بجيشه عند (بيت نوبة) دون أن يقتحم المدينة، وحين بدا تردّده الواضح شاء أن يُلهي جنوده بارتدادِ بعض الفرق لقطع الطريق بين مصر والشام، وكان ذلك ميسوراً له دون أن تتقدَّم زحوفه قريباً من بيت المقدس.. ولم يفتْ صلاح الدين أن يتعقَّب هؤلاء المتربِّصين، فأرسل كبيراً من أمرائه لدرء الخطر.

وإذا كان ريتشارد قد نجح في مهاجمة قافلةٍ كبيرةٍ وأسر

خمسمئة رجل من أبطالها؛ فقد خسر كثيراً من جنوده أثناء القتال، ولم يعوّضه عنهم غير ما كسب من عتاد القافلة، وقد كان كثيراً لافتاً للنظر، ولكنَّ العتاد مهما سمتْ قيمته لن يعوِّض الأبطال في شيء، لأنه لا يحييهم بعد الموت، ولكنَّ الجنود تأتي بالعتاد ثانية إنْ أدركه الفقدان.

ولقد كان صلاح الدين حائراً في مواجهة ما يصل إليه من أنباء هذه الخسائر، ولكنه لم يستطع مغادرة بيت المقدس؛ إذ كان يرى أنَّ كلَّ شيء أهونُ من وقوعه ثانية تحت سلطان الفرنجة، وإزاء تردُّد ريتشارد في اقتحام بيت المقدس دبَّ الخلاف بين جنوده وجنود غيره ممَّن التحقوا بجيشه، ورأوا أنَّ الأمر هزلٌ وما هو بالجدِّ، ولكنَّ ريتشارد تخوَّف العاقبة، وبدأ بالارتداد إلى الرملة يائساً من اقتحام المدينة. وكان ذلك بشارة أملٍ للمسلمين، بل إن صلاح الدين قد أمر بصلاة الشكر؛ فأدَّاها المسلمون في فرح وابتهاج.

ولا نطيل في حديث المفاوضات التي تردَّدت بين الجانبيْن رغبةَ الوصول إلى حلٍّ نهائيٍّ، ويكفي أنْ أُسجِّل أن ريتشارد قد تنازل عن المطالبة بحكم بيت المقدس مكتفياً بإقرار حقّ الفرنجة في حماية الأماكن المقدَّسة، مع ضمان حرية الحج للوافدين من الغرب، وهذه الحرية كانت مقرَّرة قبل الحملة الأولى، فمحاولة تأكيد الحصول عليها من قبيل تحصيل الحاصل، وقد اشترط ريتشارد أن تكون عسقلان تحت سيطرة الفرنجة، فرفض السلطان هذا الشرط، وكانت مسألتها عقبةً شائكة في المفاوضات، وهي حينئذٍ في أيدي

الصليبيّين. فتوجَّه السلطان إلى يافا حيث دارت بها مواقعُ حامية، أدَّت إلى انسحاب المسلمين منها وفقاً لخطَّة مرسومة بعد وصول الأمداد إلى الأعداء، ولأمرٍ ما جُوبِه صلاح الدين باعتراضات مَن سئموا القتال تحت رايته، فكظم غيظه متصابراً، ثم مرض ريتشارد في يافا، فرأى السلطان مجاملته بأن أرسل مَن يسأل عن صحَّته، ويُقدِّم له الدواء والفاكهة والثلج.

وكان في هذه اللفتة الإنسانيَّة ما مهَّد طريق الوفاق، فانعقد الصلح النهائي محدِّداً سيطرة الصليبيّين على المنطقة الساحلية من صور إلى يافا، أما عسقلان فترجع للمسلمين، كما تظلّ الأماكن المقدّسة تحت أيديهم مع ضمان حرية الحج للمسيحيّين ودون مطالبتهم بدفع ضريبة ما، وهي شروطٌ مكَّنت صلاح الدين من الاحتفاظ ببيت المقدس، والسيطرة على عسقلان ذات الموقع الجغرافي الحسَّاس، ولن تسمح الظروف له بأكثر من ذلك، وكأنه أراد أن يجد في الهدنة المقرَّرة ما يُطفئ غضب المعترضين من جنوده، وما يسمح له بتعويض ما فقدَ من العتاد والرِّجال.

والحقّ أنَّ الفريقيْـن معاً قد فرحا بالصلح فرحاً شديداً، وكأنَّهم يردِّدون قول الشاعر:

وما الحربُ إلاَّ ما علمتُم وذقتمو
وما هو عنهما بالحديث المرجّم

* * *

خَفْقَــةُ السِّـرَاج

آن أن أتحدث عن خفقة السراج الأخيرة في حياة البطل الخالد، ولا أدري لماذا أُحسُّ بوقدة الألم اللاذع، كأني أشهد السراج الوضيء فعلاً وهو في خفقته الأخيرة، ذلك أني كنت أتابع حياة صلاح الدين وأنا أتصوّره حياً ماثلاً أمامي، أشهد مواقفه التي أسطِّرها على الورق وكأني أراها رأي العيان في ميدان الحياة، فأنا ألمح كلَّ خلجة من خلجاته، إذ أرى بعين الخيال آثارها على صفحات وجهه.. فلما بلغت هذا الفصل خُيِّل إليّ أني أشهد نهاية البطل عن كثب، فأحسّ جذوات من الألم تشتعل في نفسي أسفاً على هذا الذي قضى عمره الشائك في هبَّات الأعاصير دفاعاً عن شرف الإسلام.

وكم حاولتُ أن أهدئ من مشاعري دون جدوى، وبلغ بي التأثير مداه حين قرأت ما كتبه القاضي بهاء الدين بن شدّاد واصفاً حالة الناس حين فاجأهم نعي البطل العظيم.. لقد أحسست صادقاً أني أحد هؤلاء الناس الذين يقول عنهم القاضي ابن شداد[1]:

---

(١) النوادر السلطانية، (ص ٢٥٠)، ط صبيح.

«كان يوماً لم يُصب الإسلام والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين، فغشيَ القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنّون فداءه بنفوسهم، وما سمعت هذا الحديث إلا على ضربٍ من التجوُّز والترخّص إلا في ذلك اليوم، فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قُبِل الفداء لفُدِّي بالنفس».

وابن شداد قاضٍ موجز القول لا يعرف بلاغة التنميق، ولكنه يتحدّث عما رأى وشاهد دون مبالغة، ومَن عرف مشاعر صلاح الدين بعد صُلح الرملة يتأكد أن ألمه النفسي قد كان عوناً للمرض على حياته، ذلك أن هذا الصلح في حقيقة أمره كان متنفَّساً للمسلمين من كرْب متواصل، ولهذا قبله صلاح الدين.

ولكنه من ناحية أخرى كان مبعث شجن في نفس بطلٍ لم يكن ليقنع إلا بطرد أعدائه من بلاد إسلامية أتَوا لاغتصابها دون حق، وما حمل السيف إلا ليبلغ هذه الغاية، فإذا جاءت شروط الصلح بما لا يتفق وهذا الأمل، فلا تسأل عن ألمٍ نفسي يكتمه البطل في أعماقه، ثم هو لا يريد أن ينقل أشجانه إلى مَنْ حوله من الناس، كيلا يوقعهم في مثل أشجانه، فهو يخرج للصيد ويُطعم الطعام، ويُكثر الهبات، ويتسمَّع للأحاديث الدينية وقصائد الحماسة، وكأنه مستريح البال هادئ النفس.

ولكنّ ذلك كله لا يطفئ شجناً يبعث الوهج اللافح في صدر بطل طموح؛ يدل على ذلك ما قاله القاضي ابن شداد، وهو جليس

السلطان وموضع نجواه: «والله إن الصلح لم يكن من إيثاره، فإنه قال لي في محاوراته في الصلح: أخاف أن أصالح، وما أدري أي شيء يكون مني فيقوى به هذا العدو، وقد بقيتْ لهم هذه البلاد، فيخرجون لاسترداد بقية بلادهم»(١). فكأنه يخشى أن تكون هدنةً يتجمع فيها القوم ليعيثوا من جديد، ولذلك فهو يترقب ويحترس.

على أن روح الفتوَّة قد سيطرت عليه بعد أن أبرم العهد، فقد أسرعت طوائف كثيرة من المسيحيين لزيارة بيت المقدس. وخاف ريتشارد أن يظن صلاح الدين أن هذه الكثرة المطَّردة توحي بمستقبل مريب، فكتب إلى صلاح الدين يُبيح له أن يمنع الزوار إلا إذا حملوا تصريحاً خاصاً منه، فرد عليه البطل الوفي قائلاً: إن هؤلاء الحجاج قد وصلوا بعد جهاد شاقّ إلى هذا المكان الشريف، فلا أستحلّ منعهم، وزاد فأمر بمد الطعام لهم ومُحاسنتهم.

ثم جاءه من يخبره بسفر ريتشارد إلى إنكلترا فجأة، فاستراح لما يشهد من بوادر السلام، واتجه إلى دمشق ماراً بالقرى والمدن الإسلامية، فكان يُستقبَل استقبال الفاتح المنتصر، وجعل يتفقَّد القلاع الساحلية، ويعمل على سدّ ما بها من الخلل، ويتسمَّع لآراء الحاميات القاطنة بها، فيستجيب لما يطلبون في بشاشة وابتهاج، حتى إذا بلغ دمشق كان استقباله بها فوق ما يتصوَّر، فاختلط بالعامة وآنسهم واستمع إلى رغباتهم.

---

(١) النوادر السلطانية، (ص ٢٣٧).

وكان فرحه بما شاهد من استقباله داعياً لطول إقامته بدمشق، بعد أن عقد العزم على السفر إلى مصر... ولو كان صلاح الدين بريئاً من شجونه الخاصة، لما أصيب بمرض مفاجئ عقب خروجه لاستقبال الحجاج العائدين من مكة، إذ خرج بنفسه لاستقبال القادمين، معبِّراً عن أسفه الشديد لعدم زيارته البيت الحرام، وما درى أنه قام بجهاد يفوق كل جهاد، بحيث لم يأتِ عليه موسمٌ من مواسم الحج دون أن يشترك في موقعة، أو يكسب انتصاراً.

أَنسِـيَ هذا البطل ـ الذي تساقطت دموعه، حين رأى الحجاج آسفاً ألا يكون من العائدين معهم ـ أن الأعمال بالنيات، وأن الجهاد الأكبر الذي عاناه صابراً محتسباً فوق كل جهاد؟! ولكن شعلة الإيمان في صدره جعلته يتساءل عن شعائر الإسلام قائلاً: إنه أدى الصلاة والزكاة والصوم، وقد بقي الحج دون أداء! وقد استمع بعقله إلى تهوين الأمر من فضلاء كالقاضي الفاضل، والقاضي ابن شداد، ولكن منطق العقل وحده لا يقنع الوجدان!.

لا أطيل في وصف ما كابد البطل من آلام مَرَضٍ امتد اثنتي عشرة ليلة كانت صحّتُه تنحدر بها من هول إلى هول، وقد أحس في الليلة الأخيرة بقرب الرحيل، فدعا شيخاً يتلو على سمعه كتاب الله، حتى إذا بلغ قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨] تهلّل وجهه وتبسّم، وانتقلت روحه إلى بارئها ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة (٥٨٩هـ) عن سبع وخمسين سنة، وما شاع نبأ رحيله حتى ارتجت دمشق رجّة عظيمة، فكان

زلزالاً عاصفاً أخرج الناس من منازلهم باكين صارخين، وجلس ولده الملك الظافر بين الناس ليتقبّل العزاء، ولكن الألسنة لم تكن تنطق، بل كانت الدموع هي التي تقول!.

ومن دمشق سرى النعي إلى شتى ممالك العالم شرقاً وغرباً، فبكاه أبناء ملَّته جميعاً، أما أعداؤه في الغرب فلم يستطيعوا أن يصِمُوه بما ينقص مروءته أو يضائل من فروسيته، وفيهم من شهد له شهادة الحق، فارتفع به إلى مستوى لا يبلغه أحد ممن قاموا بمصاولته. . بل ظلوا منه بمكان بعيد.

* * *

شخصية نادرة

طابعُ الفروسية يعمّ السمات الخاصة بصلاح الدين، وأريدُ بها فروسية الإسلام الجامعة لمعاني الكرامة والمروءة والشجاعة والرحمة، والمتمثِّلة في أفذاذٍ نوادر نعرفهم بسيماهم حين نقرأ صفحات التاريخ الإسلامي، فنجدها تعبق بأريج هذه الصفات، والذين كتبوا تاريخ البطل الخالد قد ألمُّوا بهذه السمات النبيلة، إذ لا يسعهم السكوت عنها، وهي التي خلدت ذكره، وأفاضت حديثه.

وإذا كان من القدماء من ذكروا هذه السمات متفرِّقةً بين وقائع البطل، فإن القاضي الفقيه بهاء الدين بن شداد قد افتتح بها كتابه (النوادر السلطانية) فكان بذلك مسعفاً للقارئ المتعجِّل كي يجد ما يشفيه عن خِلال هذا البطل في سرْدٍ متصل، لا يُتخمه المؤلِّف بتحليلٍ مسهب، كما قد يصنع سواه، إذ أن طبيعة التأليف في عصره كانت تتجه إلى السرد المتعاقب، فيخرج القارئ بمعلومات شافية تنطق بمضمونها الفريد مستغنية عن فلسفةٍ تترك بعض الضباب في آفاق النظر.

لذلك سأجعل ما كتبه القاضي ابن شداد مصدر هذا الفصل، والرجل فقيهٌ محدِّث قرَّاء، لم يكن من همّه أن يكون مؤرخاً، قدر ما كان من همّه أن يتحدث عن قدوة مثالية من قدوات الصلاح والإصلاح، وقد كتب مؤلَّفه الصادق بعد أن فارق صلاح الدين دنياه، وبعد أن اعتزل القاضي منصبه الديني، وآثر الراحة والهدوء.

فهو إذن لا ينشد به مأرباً غير إيضاح الحقائق التي وقف عليها بنفسه، إذ كان من أقرب الأصدقاء لصلاح الدين، وقد اتصل به أول ما اتصل في سفارة سياسية بين السلطان وأحد ملوك الموصل، وكان بهاء الدين في اللقاء الأول متشدِّداً مع صلاح الدين رعاية لأمر مَنْ يتحدَّث عنه، وقد أعجب به صلاح الدين إذ رأى فيه رجل صدق وإخلاص وأمانة، كما لمس الزائر الوافد من سلوك السلطان ما بهره وأعجبه، فآثر بعد أداء الرسالة أن يكون من جنوده الأوفياء، إذ رأى من حرصه على استعادة مجد الإسلام ما جعله موضع الإعزاز والثقة من نفسه، ثم امتدت الصداقة بين الرجلين بحيث كان القاضي ابن شداد ثاني عالِمَين كريمين نزلا من نفس السلطان أطيب منزل، هما القاضي الفاضل، والقاضي ابن شداد.

بدأ القاضي الفقيه المحدِّث كتابه بالقول عما سمّاه (مواظبتُه على القواعد الدينية، وملاحظته للأمور الشرعية)، وهو موضوع لا بد أن يكون في بؤرة الشعور من اهتمام فقيه محدِّث قاضٍ، فذكر أن القائد كان يلمّ بكل ما يدور في مجلسه من أحاديث الفقه،

فيشارك فيها برأيه «ويقول قولاً حسناً، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته من كدر التشبيه»[1]، ومعنى ذلك أن السلطان كان يفهم الروح العامة للشريعة دون أن يلم بالمصطلحات الفقهية التي قرَّرها المصنِّفون! وماذا نريد من سلطان سياسي أكثر من أن يلمّ بروح الشريعة في قضاياها المختلفة.

وقد جمع له أكبر العلماء عقيدةً تجمع كلّ ما يقال في هذا الباب، فكان لشدة حرصه عليها يعلِّمها الصغار من أولاده حتى ترسخ في أذهانهم من الصغر. وكانوا يُلقَّنونها حفظاً بين يديه، فإذا عرفنا اتجاهه السنِّي في مصر فذلك من آثار ما حَفِظ وفَقِه.

ولم يكن يأخذ بالرخص، إذ كان مع كثرة أعبائه المضنية حريصاً على الصلاة في جماعة، بحيث كان يستدعي إماماً خاصاً إذا اشتد عليه المرض ليؤمّه، مع صلوات يتهجد بها في الليل. وكان يصلي في مرضه الأخير قائماً! أما الزكاة فقد مات ولم يحفظ ما تجب عليه به الزكاة، وأما صدقة النفل فقد استغرقت جميع ماله، وقد مات ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعةً وأربعين درهماً، وجراماً واحداً من الذهب.

ولم يخلف مِلكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا مزرعة، وأقلّ أتباعه من الأمراء يملك من ذلك الشيء الكثير! وأما صوم رمضان فقد كان يضطر إذا مرض لتناول الدواء، فيكلِّف القاضي

---

(١) النوادر السلطانية، (ص ٥).

الفاضل بأن يثبت هذه الأيام في دفتر خاص ليقوم بقضائها متى برئ، وقد كان الطبيب أحياناً يلومه على الصوم في بعض أسقامه، وهو لا يستجيب لرأيه.

كما كان على شوق تام للحج، ولكن ظروفه الحربية لم تسعفه بما يريد.. ولا يستوي القاعدون عن الجهاد ـ مهما حجُّوا ـ بالمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم! وفي تسجيل الاهتمام بهذه الشعائر ما يدل على شدة الصلة الوثيقة بين البطل وربّه، بل ما يدل على أن صبره عند الأزمات الكاربة كان شيئاً طبيعياً بالنسبة لإيمانه، إذ يعلم أن لله مشيئته، وسيجعل بعد عُسر يُسراً.

وإذا كان كتّاب اليوم يجعلون لكل إنسان مفتاحاً لشخصيته، فأنا أرى أن الإيمان هو مفتاح شخصية صلاح الدين.. ولعل فيما أنقله عن القاضي نصاً ما يؤكد هذه الوجهة في التحليل، حيث قال ابن شداد:

«وكان رحمه الله خاشع القلب رقيقه، غزير الدمعة، إذا سمع القرآن يخشع قلبه، وتدمع عينه في معظم أوقاته، وكان شديد الرغبة في سماع الحديث، ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه، وأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصِّين به، ويأمر الناس بالجلوس إجلالاً للحديث، وإن كان الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور في مجالسهم

سعى إليه وسمع عليه»[١].

ولعل من أكبر مظاهر هذا الإيمان ما ذكره ابن شداد في تفصيلٍ مُسهب أضطرُّ إلى إيجازه، حين أقول: إن السلطان وهو في بيت المقدس جاءه من أخبره باتفاق كلمة الفرنجة على مهاجمة بيت المقدس مع وفرة هائلة من الجنود والذخيرة؛ فجمع الأمراء وأشار عليهم بمحاصرة الزحف وتعويقه، على أن يظل ببيت المقدس ليرسم خطة الدفاع، فلم يستجيبوا لرأي السلطان، وبدت مظاهر الفرقة في ما يوحي به حوارهم، فانصرف السلطان ضائق الصدر، ولم ينم طيلة الليل لكثرة ما كابد من الهواجس، وكانت الليلة ليلة جمعة، فتقدم إليه القاضي ابن شداد يواسيه حين رأى دموعه تتساقط، فقال له: يا مولاي، أقترح أن تصلي الجمعة بالمسجد الأقصى، وتصلي ركعتين بين الأذان والإقامة تدعو الله في السجود أن يلهمك الصواب، ويمهّد أسباب النصر.

فاستجاب السلطان لاقتراح القاضي، ووقف ابن شداد جواره في الصلاة فكان يسمع نحيبه في الدعاء، فيسأل الله معه أن يكف الشر عن بيت المقدس.. وخرج المصلُّون، وقد هدأت نفس السلطان. وفي المساء جاءت البشرى بأن الفرنجة قد اختلفوا في الرأي، إذ عارض فريق منهم الهجوم على بيت المقدس وصلاح الدين رابضٌ به يدرأ عنه، وقد اتجه نفر كبير منهم جهة أخرى، فابتهج صلاح الدين، وأيقن بإجابة الدعاء.

---

(١) النوادر السلطانية، (ص ٧).

هذا بعض ما ذكره ابن شداد عن تأثير العقيدة الإسلامية في سلوك الملك الناصر، أما مظاهر عدله فقد تجلّت في مجالس القضاء التي يعقدها يومي الإثنين والخميس بمشهدٍ يحضره الفقهاء والعلماء ومن يريد من الرعية، فيخفُّ إليه من يشكو دون حاجز، ثم يستمع مُصغياً في انتباه، ويميل على الكاتب ليسجل ما يراه من الحكم في ورقة تُحتِّم التنفيذ العاجل، وفي هذه المجالس قضايا هامة تتعلق بأسرة السلطان وذوي قرباه وكثيرٍ من الأمراء، فكان يضع الحق في نصابه، وقد خاصمه نفسَه بعضُ الناس في تركة مملوكٍ مات، وادعى المدعي أنه كان سيداً له قبل أن ينتقل إلى صلاح الدين، وشهد الشهود بغير ما أقرّ المدَّعي، فلم تكن النتيجة مرضية له، ولكن السلطان دعاه بعد الحكم ووهب له مالاً خاصاً من حيازته، وقال: هذا مالي أهبُه لك، ما دام الحق في القضية ليس معك. فرجع المدَّعي وهو لا يكاد يصدِّق!.

أما طرائف الكرم والجود فغير مستغربة من فارس ذي مروءة مثله، إذ كان يعطي في حالة الضيق ما يعطيه في حالة السعَة، بل كان نوّاب خزائنه يُخفون عنه ما بقي بها من المال النزر، لأنه إذا علم بمال لا يبقيه، وقد عاتبه بعض أخصّائه في هذا الفيض المنهمر من عطائه، فقال: إن المال الذي يزيد عن حاجة الطعام واللباس الضروريين تراب فَلِمَ أُبقيه! وكثيراً ما تفِد إليه الرسائل المستمنحة يقرأها عليه القاضي ابن شداد، فيسارع بإجابتها على وجه سارّ، حتى قال القاضي: إني كنت أخجل لكثرة ما أعرض عليه من

الرسائل مع علمي بأنه يجود عن سماح.

وفيما تقدم من أحداث شجاعته في صفحات هذا الكتاب ما ينبئ عن بطولته الخارقة، ولكنها بطولة مؤمن يعتقد أن الله معه في كل خطوة يخطوها في معارك النضال، قال ابن شداد: «وكان رحمه الله إذا اشتدت الحرب يطوف بين الصفّين بنفسه، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة، ويرتّب الجنود ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها، وكان يشارف العدو حتى يجاوره، ولقد قرئ عليه جزآن من الحديث بين الصفين، وذلك أني قلت له: قد سُمع الحديث في جميع المواطن الشريفة، ولم ينقل أنه سُمع بين الصفين، فإن رأى المولى أنه يؤثر عنه ذلك كان حسناً، فأحضر جُزأه، وأحضر من له به سماع فقرأ عليه، ونحن على ظهور الدواب بين الصفين نمشي تارة ونقف أخرى»[1].

وبهذا الإيمان الوثيق عَظُم ثبات البطل في مواقع الهول، حيث إنه لم يستكثر جنود العدو مهما أربَوا على عدد الرمل، وقد تقع الهزيمة بدءاً في جيشه، وهو ثابت القدم، ينظر إلى موقع يكون أكثر أمناً فينحاز إليه مع جنوده، ويواصل الكفاح حتى تؤول الهزيمة إلى نصر، كما وقع في مرج عكا، حين بدت علائم الهزيمة بدءاً، ثم حقق الله النصر، فقتل من جيش العدوّ زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس.

---

(١) النوادر السلطانية، (ص ١٥).

أما حبُّه للجهاد فلم يكن في حياته من هو أشد ولعاً به منه، بل كان الرجل يتقرب من مجلسه إذا تحدث عن الجهاد في سبيل الله وعظيم مثوبته، وقد جمع له القاضي كتاباً في آداب الجهاد يضم آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ ووقائع السلف، فكان السلطان يطالعه كثيراً، وقد أهداه لولده الملك الأفضل لتشملَه هدايته.

وقد حدث أن صلَّى العيد يوماً بالقدس، وشرح الله صدره فعزم على السير إلى عسقلان متفقداً البلاد الساحلية ليطمئن عليها، ثم يعود، فخاف مستشاروه أن يدهمه الفرنجة وهو في قلة من الجند، وأشاروا عليه أن يتريث، ولكنه أصرَّ ونفَّذ، وقد وقف على شاطئ البحر مع ابن شداد، فسبحت به آماله الشريفة إلى مرمى أبعد من جهاد الصليبيين بالشام، وقال لابن شداد[1]: «أحكي لك شيئاً من نفسي، إنه متى يسَّر الله تعالى فتح بقية الساحل قسَّمتُ البلاد وأوصيت وودَّعتُ، وركبت هذا البحر إلى جزائره وأتْبعتُهم (الكفار) حتى لا أُبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت»، يقول ابن شداد: «فعظم وقع الكلام عندي». ودار بينه وبين السلطان حديث نبيل حول هذا المعنى الشريف لا سبيل إلى تقصِّيه.

أما ما اتسم به من الصبر الجميل في الشدائد، فما أروع ما سجَّله ابن شداد في هذا المجال، إذ كشف عن معدنٍ خُلقي نادر لا يمكن أن نراه إلا عند ذوي البطولة الخارقة من الفرسان، فقد

---

(١) النوادر السلطانية، (ص ١٧).

مرض السلطان مرضاً نتجت منه جروح دامية في جسمه، وانتقلت (الدمامل) من وسطه إلى ركبته بحيث لا يستطيع الجلوس، فكان ينكبّ على جانبه ليستطيع الكلام مع زائريه، دون أن يتأوّه من تأثير الجراح، وقد امتنع عن تناول الطعام لأنه سيضطر إلى الجلوس حين يمد يده، وهذا ما يضنيه، فكان إذا جاءه الزاد أمر بتفريقه على من بالباب من الفقراء.

وفي هذه الأزمة علم أن معركة دارت بين أحد أمرائه وأمير صليبي، وأن الغلبة تظهر في جانب الأعداء، فأمر بمن يحملونه، وجعل يرتّب الجنود ميسرة وميمنة صابراً على شدة الألم (وقوة ضَرَبان الدمامل) كما يقول ابن شداد.

وفي معركة أخرى مع اشتداد المرض علم أن الفرنجة قد اتجهوا إلى التلّ ليخربوا الآبار، فركب من الخيمة ليتدارك الموقف، ورتب العسكر، فجعل أخاه الملك العادل في الميمنة، وولده الملك الظاهر في الميسرة، والملك الأفضل في القلب، وأخذ يباشر المعركة، فانحاز العدو إلى رأس النهر، فتابعه السلطان بجنوده، والشمس محرقة. وهو يعصب رأسه بمنديل من شدة الوهج، وظل كذلك طيلة النهار حتى قدم الليل فتأجل الزحف.

وكان طبيبه طيلة الليل يمرِّضه ويشاغله ويدعوه أن يستقر في الخيمة كيلا تزيد جراحه، ولكنه حين سمع ضرب البوق نهض ليكون في طليعة الجيش، وقد قدَّم أولاده وأخوته في الطليعة بدلاً عنه، لأنه لا يستطيع أن يتولى المقدمة، فيرى العدو ما به من مرض

فيتشجَّع، وقد أمر بنصب عدد كبير من الأعلام والبيارق ليرى العدو مساحتها الكثيفة فينخلع رعباً، وهذا ما تم، وقد انتهت المعركة بنصره الميمون.

وفي معمعان القتال جاءه نبأ وفاة ولد له، فطوى الكتاب دون أن يظهر شيئاً من حزنه، كيلا يفتَّ في عزيمة الجند، ومع ذلك فقد كانت عيناه تدمعان، ولا يستطيع حبس الدموع. وكذلك فعل حين جاءه نعيُ ابن أخيه تقي الدين، وكان أحد الأبطال، حيث طوى الرسالة محزوناً، حتى انتهت المعركة فأخرجها، وجعل يبكي بكاء شديداً، فبكى الناس من حوله لبكائه، فقال ابن شداد: يا قوم استغفروا الله فلا معنى لهذه الحالة، فقال السلطان: نعم نعم، نستغفر الله، وسكت!.

أما سعة صدره ووفرة حلمه، فقد تحدث عنها الفرنجة بما لا مزيد عليه، وقد كان يسير بين الناس فيتزاحم الطالبون حوله، ويدوسون عباءته من خلفه فلا يستطيع السير فيقف. ومن نوادره مع ابن شداد أنه ركب معه في يوم عاصف شديد البرد، فتقدّمت بغلة القاضي عليه، وجعلت تنضحه بالطين من رجلَيها، حتى أتلفت ثيابه، فأخذ يبتسم، وأراد القاضي أن يتأخَّر كيلا يتكرر هذا الوضع، فأمره أن يستمر في موضعه.

أما رعونة بعض المتظلِّمين؛ فقد كانت تقابل لديه بكل هدوء واحتمال، وأمثلة ذلك مما يطول تسجيله، وقد خاطبه أحد الأكراد بأفظع ما يوجَّه إلى إنسان فضلاً عن سلطان، فكظم غيظه وتولى إلى

الخيمة، وظن ولده الملك الظاهر أنه سيصدر أمراً خطيراً بشأنه، وتهيَّب أن يكلمه بعد ما سمع من لغو الكردي، ولكن السلطان يعفو عن هذا المتهوّر، ويُقدِّم الفاكهة لزائريه ويقول: كلوا كلوا لتنسوا ما كان!.

وقد عرف الفرنجة تسامُحه مع أعدائه، فكان إذا وقع أحدهم في خطأ، وخاف العقاب من أميره الصليبي، فرَّ إلى معسكر السلطان معلناً أنه يحتمي به، فكان صلاح الدين يأويه ويكرمه، ولكنه يأمر أحد خاصَّته بمراقبته كيلا يكون دسيسة تحمل الشرّ، وقد تحدثتُ من قبلُ عن المرأة التي فقدت ولدها وجاءت إلى السلطان فعمل على إسعادها، وبحث عن الطفل حتى قرَّت عيناها به، وعما يشبه هذا من النوادر فأكتفي بالإشارة إلى لذلك، ولعل خير ختام لما تحدث به ابن شداد في هذا النطاق أن أذكر قوله[١]:

«لقد كان حسن العشرة، لطيف الأخلاق، طيّب الفكاهة، حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم، حافظاً لسِيَرِهم، عالماً بأنساب الخيل، بحيث كان يستفيد محاضره منه ما لا يسمع من غيره. وكان حسن الخلق يسأل الواحد عن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه وتقلُّبات أحواله، كما كان طاهر المجلس لا يُذكر بين يديه أحدٌ إلا بخير السمع، إذ لا يحبُّ أن يسمع عن أحد إلا كل خير، وما رأيته ولعَ بشتمٍ قط، وما حضر بين يديه يتيم إلا ترحَّم على مُخلِّفيه،

(١) النوادر السلطانية، (ص ٢٧).

وجبر قلبه وأعطاه، وإن كان من أهله كبير يعتمد عليه سلّمه إليه، وإلا أبقى له من الخير ما يكفُّ حاجته، وسلّمه إلى من يعتني بتربيته ويكفلُها».

وإذا كان القاضي ابن شداد قد صادق السلطان حيناً من الدهر، وآكله وسايره وناجاه، حتى أصبح موضع سره، فإن الرحَّالة الأندلسي ابن جبير صاحب الرحلة الشهيرة لم يكن من ذلك في شيء قلَّ أو كثر، ولكنه جال في شتَّى ربوع العالم الإسلامي، ورأى من سلاطين الممالك من لا يُحصَون، ومنهم السلطان صلاح الدين الذي انفرد وحده بإعجابه، حتى قال عنه في باب الموازنة[1]:

«وهذه البلدة لسلاطين شتى كملوك الطوائف في الأندلس، كلّهم قد تحلَّى بحلية تُنسَب إلى الدين، فلا تسمع إلا ألقاباً هائلة، وصفاتٍ لدى التحصيل غير طائلة، فقد تساوى فيها السُّوقة والملوك، واشترك فيها الغني والصعلوك، ليس فيهم من ارتسم بصفةٍ تليق، أو اتصف بصفة هو بها خليق، إلا صلاح الدين صاحب الشام وديار مصروالحجاز واليمن المشتهر بالفضل والعدل، فهذا اسمٌ وافق مسمَّاه، ولفظٌ طابقَ معناه، وما سوى ذلك في سواه فزعازعُ ريح، وشهادات يردُّها التجريح، ودعوى نسبةٍ للدين برَّحت به أي تبريح.

ألقاب مملكة في غير موضعها
«كالهرِّ يحكي انتفاخاً صولة الأسد»

---

(١) رحلة ابن جبير، (ص ٢٢٨).

وقد تردَّد ذكر السلطان في صفحات كثيرة من الرحلة مضمَّخاً بعبير الثناء، ولكنه ثناءٌ موضوعي يؤيده الواقع العملي، والمشاهد الفعلي مما عاينه الرحالة بنفسه ولاحظه، وأطيل إذا أتتبَّع كل ما قاله ابن جبير عن صلاح الدين، فذلك فصل شافٍ ليس هنا مجال تدوينه، ولكني أكتفي بما ذكره في موضعين اثنين من مواضع الرحلة، حيث قال في أسلوب ينفح بالإخلاص، وتعبيرٍ كله صدقٌ قامت عليه الشواهد الدالة في آثار الكبار من المؤرخين، قال ابن جبير[1]:

«ومن مناقب هذا البلد ـ الإسكندرية ـ ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه: المدارسُ والمحارس الموضوعة فيها لأهل الطلب والتعبُّد، يفِدون من الأقطار النائية، فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوي إليه، ومدرِّساً يعلِّمه الفن الذي يريد تعلُّمه، وإجراءً يقوم به في جميع أحواله» إلى كلام أطال فيه، وسأذكره بنصّه في موضوع تالٍ، ثم قال تبعاً لذلك:

«ومن أعجب ما اتّفق للغرباء أن بعض من يريد التقرب بالنصائح إلى السلطان، ذكر أنه أكثر هؤلاء يأخذون جراية الخبز ولا حاجة لهم بها، رغبة في المعيشة، لأنهم لا يصلون إلا بزادٍ يقلّهم، فكاد يؤثر سعيُ هذا المتنصِّح، فلما كان في أحد الأيام، خرج السلطان المذكور على سبيل التطلُّع خارج بلده، فتلقَّى منهم

(١) رحلة ابن جبير، (ص ٢٥).

جماعة فد لفظتهم الصحراء المتصلة (بطرابلس) وقد ذهبت رسومهم عطشاً وجوعاً، فسأل عن وجهتهم، واستطلع ما لديهم، فأخبروه أنهم قاصدون بيت الله الحرام، وأنهم ركبوا البرَّ وكابدوا مشقّة صحراويّة، فقال: لو وصل هؤلاء وهم قد اعتسفوا هذه المجاهل التي اعتسفوها، وكابدوا من الشقاء ما كابدوه، وبيد كل واحد منهم زنته ذهباً وفضة، لوجب أن يشاركوا، ولاتقطع عنهم العادة التي أجريناها لهم، فالعجب ممن يسعى على مثل هؤلاء، ويروم التقرب إلينا بالسعي في قطع ما أوجبناه لله عز وجل خالصاً لوجهه».

أما الموضِع الآخر فقد قال فيه[1]:

«ومن مفاخر هذا لسلطان المُزْلِفة من الله تعالى، وآثاره التي أبقاها ذكراً جميلاً للدين والدنيا: إزالته رسم المكْس المضروب وظيفةً على الحجاج، فكانوا يلاقون من الضغط في استيدائها عنتاً مُجحفاً، ويُسامون فيها خطة خسف باهظة، وربما ورد منهم من لا فضل لديه على نفقته، أو لا نفقة عنده، فيلزم أداء الضريبة المعلومة، وكانت سبعة دنانير ونصف، من الدنانير المصرية التي هي خمسة عشر ديناراً على كل رأس، ويعجز عن ذلك فيُتَنَاول بأليم العذاب، وكان (بِجَدَّة) أمثال هذا التنكيل وأضعافه.

فمحا هذا السلطان هذا الرسم اللعين، ودفع عوضاً منه ما يقوم مقامه من أطعمة وسواها، فعوَّض من ذلك أجمل العوض،

(١) رحلة ابن جبير (ص ٢٥).

وسهَّل السبيل للحجاج، وكان في حيِّز الانقطاع، وكفى الله المؤمنين على يد هذا السلطان العادل حادثاً عظيماً، وخطباً أليماً، فترتَّب الشكر له على كل من يعتقد من الناس أنَّ حجَّ البيت الحرام إحدى قواعد الإسلام... إلى مكوس كانت في البلاد المصرية وسواها، وضرائب كانت على كل ما يُباع ويُشترى مما دقَّ أو جلَّ، حتى كان يؤدَّى على شرب ماء النيل المكس، فمحا هذا السلطان هذه البدع اللعينة كلها، وبسط العدل، ونشر الأمن.

ومن عدل هذا السلطان وتأمينه السبل أن الناس في بلاده لا يخلعون لباس الليل تصرُّفاً فيما يعنيهم. ولا يستشعرون لسوادِه هيبة تثنيهم، وعلى مثل ذلك شاهدنا أحوالهم بمصر والإسكندرية».

وفي هذه الشهادات الناطقة ما يغني الباحث عن مطالعة أسفار كثيرة، تجمع أمثال هذه النوادر مشتَّتة في صفحات متباعدة، يتطلَّب تتبُّعها بعض المعاناة.

* * *

موازنة غير عادلة
حول عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين

ارتقت فنون الكتابة التاريخية في عصرنا الحديث ارتقاءً حميداً، فأصبحنا نرى التاريخ الإسلامي يقدَّم في أنماط مختلفة، ويفسّر تفسيراً منهجياً على ضوء ما استُحدث من المذاهب الأدبية والنفسية والاجتماعية، حتى إنك لتقرأ الموضوع الواحد لنفر من الكتّاب، فتجد من اختلاف النظر، وتنوُّع المذاهب، وتميّز الأسلوب ما يكون موضوع عجبك وإعجابك.

فمنذ أعلن ابن خلدون طريقته التحليلية في معرفة العلل والأسباب، واتصال النتائج بالمقدمات، ومِلء الفجوات المتَّسعة بما يوحي به منطق الأشياء، وتمليه ظروف المكان والزمان، وكتابة التاريخ تحيد قليلاً قليلاً عن النسق التقليدي في الرواية والإسناد، وسرْد الحوادث في نطاق السنين والأيام دون نقدٍ حصيف لرواية مدخولة، أو وقوف دقيق عند تناقض مضطرب، إلا فيما ندر عند القليل من المتعمِّقين، حتى جاء العصر الحديث بأسلوبه المنهجي، ومنطقه القوي وتعليله العلمي، فأوجد في الحقل التاريخي زرعاً ناضر اللون شهي الثمر متعدد الأفانين.

والموازنة بين الوقائع والأشخاص في كتابة التاريخ ميدانٌ فسيح يجذب إليه أقلام الكاتبين، فنرى الحادثة القديمة تُقرن بالحادثة الطارئة، في نسقٍ دقيق تتّضح معه العلل والنتائج، فترجح كفة عن كفة، أو تتساوى الكفتان في موضع واحد من الملامة أو الإطراء، وقد تنتقل الموازنة إلى الأبطال، فترى التليد والطارف من أخبار هؤلاء على بساطة النقد في مستوى عادل دقيق، والقارئ بلا شك ظافر بالفائدة الجزيلة، متمتِّعٌ بما يقرأ من التعليل والترجيح، فيسير مع الكاتب في أُفُقه المتَّسع، يرصدان ما يفِد من أسباب الارتقاء والهبوط، أو ينجم من علل الانحراف والاعتدال، وتلك لذّةٌ فكرية هنيّة يحرص عليها من يُقَدِّر معدنها الأصيل.

غير أن هذه الموازنة الممتعة، تتعرض في بعض الأحيان إلى تيارات خفيّة، تجعل من الصعب الشاقّ على الكاتب أن يصيب مقطع الحق فيما يقول، ومردُّ ذلك إلى الإعجاب الخفي أو الواضح ببطل معيَّن تتضاءل بإزائه محاسن سواه، فمؤرِّخه يفسر الأشياء بما يرضي هذا الإعجاب الواضح لديه، وقد يكون غافلاً عن حقيقة إعجابه اللاّشعوري، حين يميل على الطرف الثاني بالملامة والمؤاخذة، وتلك مرحلة شائكة تدعو إلى التريُّث الوئيد حتى يتبين الكاتب حقيقة نفسه بالمعاودة والتحليل! وفيما يلي شاهد قوي الدليل:

لقد ظفرت المكتبة التاريخية أندلسية وشرقية بكثير من مؤلَّفات الباحث الموهوب الأستاذ الدكتور حسين مؤنس، وأشهد

لقد انتفعت كثيراً ببحوثه المتقنة وآرائه الصائبة، وما زلت أرجع إلى آثاره التاريخية في نشوة سعيدة، وحين أخالفه الرأي هنا في بعض ما اعترضني من اتجاهاته النفسية لا أزعم لنفسي حقَّ التوجيه والتصويب، فأنا دون الكاتب اطلاعاً ونفاذاً وقوة حَدْس، ولكني أعرض وجهة نظر متواضعة قد تكون مقبولة، فتصحِّح وضعاً مخطئاً وقد تكون مرفوضة فتحتاج إلى تصحيح منه[1].

لقد قرأت كتابه القوي «من قصص البطولة» فرأيت ما لا مزيد عليه من الروعة والنصاعة والاتّزان، ولكن بعض الفصول تجنح إلى الموازنة بين شخص وشخص، فأراها من وجهة نظري المخلصة تشتطُّ كثيراً في التهجُّم على من لا يستحق غير التأييد في أكثر الأحيان والتبرير في أقلها، فأقع في حيرة مربكة حين أرى الإعجاب اللاّشعوري لدى الكاتب يعلو ويحتدّ حتى يجور على أناس معتدلين، وسأضرب المثل بما كتبه الدكتور عن البطل العظيم نور الدين محمود زنكي قاهر الصليبيين.

وقبل كل شيء أعلن للدكتور الفاضل أني أشاطره الإعجاب المطلق بهذه الشخصية المثالية، وأعد كل ما ذكره عن فضائلها الباهرة حقاً لا مرية فيه، وأذكر بادئ ذي بدء أني كتبت مقالين كبيرين عن نور الدين منذ سنوات قلت في أحدهما[2]:

---

(١) كُتب هذا المقال قبل أن ينتقل الدكتور حسين مؤنس إلى رحمة الله.

(٢) مع الأبطال، للدكتور محمد رجب البيومي، (ص ٩٥)، مطبعة دار القلم بدمشق.

«إن نـور الدين يلتقي بعلي بن أبي طالـب في أبـرز صفـاته وأخلص معادنه، فإذا كان تقديس الحق وحده دون النظر إلى مغنم سياسي أو ظفر حربي هو مبدأ أمير المؤمنين الورع الزاهد، فإن هذا التقديس العظيم للحق وحده دون اعتبار لسواه كان مبدأ نور الدين، فطالما اصطدم الرجلان بأهواء المغرضين ونزوات الوصوليين، وكان في بعض التهاون على حساب الحق ما يجمع المتفرق ويلمّ الشعث ويطفئ الثورات، ولكن المثل الأعلى يصيح في أذني البطلين الكريمَين أن قدِّسا الحق وحده ولا تحفلا بغنيمة يعقبها وخز الضمير وتعب البال، ويا له من نداء مؤمن صادق يرتفع عن الرغبات والأهواء، وإن عاد على سامعه بكثير من العنت والإرهاق».

بل أزيد على ذلك فأزعم أني أنصف نور الدين من الدكتور نفسه، فقد ذكر في معرض حديثه عنه أنه لم يكن: «بالجندي الماهر ولا بالسـياسـي الضليع، وإنمـا كان المؤمن الذي يغنيه الإيمان الصادق عن مهارة القيادة وحنكة السياسة». فهذا كلام يحتاج إلى تصحيح، ولعلي قاربت الحق حين قلتُ مخلصاً في تفنيده[1]:

«إن تقديس مبادئ الإسلام سياسة رفيعة عالية، يصعب على كثير من الناس أن يتمسكوا بها فيما يأخذون ويدعون من الأمور، ويعزُّ عليهم في الوقت نفسه أن يعترفوا بتقصيرٍ تتأكد ملامته، ويتحقق عيبه، فيحاولون أن يجعلوا من تهاونهم الناقص كياسة

(١) مع الأبطال، للدكتور محمد رجب البيومي (ص ٩٦).

حاذقة توجبها الظروف، وتفرضها الملابسات، ثم يتّجهون بأبصارهم إلى أناس لا يعرفون التهاون في الحق، فيرون بُعْد ما بين الفريقين من خلاف في الهدف والغاية والطريقة، إذ ذاك ينحون باللائمة على من يستمعون الحق فيتبعون أحسنه، ولو رجعوا إلى ضمائرهم في لحظة مؤمنة بصيرة لانكشف الغطاء عن خداعهم الزائف، وعرفوا أن أصحاب المثل أناس لا تنقصهم السياسة والكياسة والمران، ولكنها سياسة القرآن وحده يؤكدها الإيمان!

أفكان عليٌّ في تربيته وحصافته وفقهه وبصره غير سياسي؟! أفكان نور الدين في تسامحه وإيفائه بعهده وصدق وعده غير سياسي؟! لا ياهؤلاء!! إنهما سياسيان عظيمان! لهما مبادئ خالدة لا تتطرق إليها رغبة جامحة ولا تشين نقاءها نزوة هوجاء!! هما سياسيان محنَّكان يلتزمان سياسة القرآن، وكياسة الإسلام، فلا يعرفان غدراً بعهد أو تحرُّشاً بغير خصم! فليكونا في جلالهما السامق سياسيَّين مثاليين في دنيا الأطماع».

إذن فمكانة نور الدين لدي أقوى من مكانته لدى الدكتور!! ولكن موضوع هذا المقال لا يقف عند ذلك، بل يتجه إلى تصحيح ما ذكره المؤلف ـ في معرض الموازنة ـ عن عماد الدين زنكي والد نور الدين من ناحية وعن صلاح الدين الأيوبي خليفة نور الدين من ناحية ثانية، فقد أجحف بالرَّجُلَين بعض الإجحاف وفيما يلي تصحيح وإنصاف.

قال الدكتور ـ في معرض بحثه عن نور الدين ـ: «ولم يكن

نور الدين كأبيه عماد الدين زنكي ينشد ملكاً بأي ثمن، ولا يتردَّد في مصالحة الصليبيين والمضيّ معهم إلى حيث يريدون، ولا يحفل بوضع يده في يد مسلم أو نصراني مادام الأمر ينتهي باتساع ملكه أو زيادة موارده».

وقال الدكتور مؤنس عن صلاح الدين في هذا البحث عينُه:
«وقد كان صلاح الدين لا يكاد يتشمّم ريح خطر من ناحية إلا تغيَّرت نفسه، وغاضت فيها عيون الحلم والصبر، وكانت مشاريعه ومطالبه متعددة لا تنتهي، فكانت حاجته للمال لا تنتهي أيضاً، وكان عمَّاله وجُباته من أقسى خلق الله على الناس، ما مرَّ ببلد تاجرٌ إلا قصم الجباة ظهره، وما بدت على إنسان علامة من علامات اليسار إلا أُنذر بعذاب من رجال السلطان، وكان الفلاحون والضعفاء معه في جُهدٍ، ما أينعت في حقولهم ثمرة إلا تلقَّفها الجباة، ولا بَدَتْ سنبلة قمح إلا استقرَّت في خزائن السلطان حتى أملق الناس في أيامه، وخلَّفهم على أبواب محن ومجاعات حصدت الناس حصداً».

هذا كلام الدكتور عن البطلَين الكبيرين، ولولا الإعجاب المتدفِّق بنور الدين ما جار هكذا على أبيه عماد الدين وتلميذه صلاح الدين في مجال الموازنة والترجيح، وسنعرض لهما بإيجاز محدود لنعرف موضع الجور الأليم فيما سبق من الكلام!!.

لقد زحفت جيوش الصليبيين على الشرق الإسلامي في وقت عصيب، فإمارات الشام تخضع للنظام الإقطاعي الذي ينفرد فيه كل حاكم بولاية صغيرة لا تملك جيشاً أو تدَّخر قوة، وأمراء الدول

الصغيرة في تنابذٍ يحول دون التفاهم والاتحاد، والخلافة العباسية ببغداد عاجزة ضعيفة لاتملك أن تدفع عن نفسها الشر، وقد استُصرختْ ولاذ بها اللائذون، فقطعوا شعورهم وبكوا دون طائل، والدولة الفاطمية بمصر متجهة إلى مكايدة القصر، ودسائس الوزراء، والانشقاق الداخلي بين الخليفة ورؤساء الجيش!!.

وبهذا التخاذل المنحلّ في ممالك الإسلام استطاع الصليبيون أن يؤسسوا أربع إمارات لاتينية في: الرها، وأنطاكية، وبيت المقدس، وطرابلس، بعد أن جرت خيولهم في أنهار الدماء إلى صدورها، وضاع في معركة بيت المقدس أكثر من سبعين ألف شهيد من المسلمين!!

وقد هيأت الأقدار عماد الدين زنكي أمير الموصل للنهوض بهذا العبء الجسيم، وكان وافر الكياسة دقيق الإدارة، واسع الحيلة، فصمم على توحيد الإمارات العربية تحت قيادته، فضم إلى قيادته معظم بلاد الجزيرة، ثم عبر الفرات واستولى على حلب وكثير من بلاد الشام، واستطاع أن يقف وجهاً لوجه أمام الفرنجة، وثقل عليهم بخيله ورجله، وتبعهم في الدروب والأزقّة، فاستنجدوا مذعورين بملك القسطنطينية.

ثم هجم على الرها فاستردّها، وبدأ المسلمون يشعرون بقوّتهم على يديه، وأشرقت بوارق الأمل في نفوسهم خلف قيادته، على حين ذعر الصليبيون وأيقنوا أن ما خدعتهم به الكنيسة من اطراد النصر وتعاقب الفوز سرابٌ مغرِّر في صحراء حامية، يشتعل بها الهجير.

فعماد الدين لم يكن مُنشداً ملكاً بأي ثمن، ولكنه كان يجمع الصفوف خلف قيادته كي لا يطعنه طاعن من خلفه، وفي ذلك من بعد النظر وعمق الفراسة ما يسجَّل بالإعجاب، وحين هادن الصليبيين في بعض المآزق كان يماطلهم بدهائه ليتسع أمامه الوقت للتجمُّع فالوثوب، وكانت ظروفه في ذلك غير ظروف ولده نور الدين، إذ أنه صاحب الصيحة الأولى في التجمع والاستعداد، ولولا جهوده الشاقة في ضمٍّ الشمل، ومطاردة المغرضين، ما ترك لولده هذا التراث المكين.

قد يكون الدكتور صادقاً إذ يقول: إن نور الدين أزهد في الجاه والسياسة من أبيه، فهذا ما لا يجحده جاحد! ولكنه يجور على الحقيقة حين يذكرِ أنه كان يمضي مع الصليبيين إلى حيث يريدون!! وإذن ففيم السلاح والعتاد والحرب والصيال!! وكيف قطف أولى ثمرات النجاح، وهيَّأ طريقه الواضحة لنور الدين ثم صلاح!! إن مثل عماد الدين مع خَلَفَيْه كمثل أسرة أرادت أن تنشئ حديقة فيحاء في أرضٍ ذات صخور وأشواك وآكام، فقام عميدها الكبير بإزاحة الأشواك وتسوية الطريق وشقِّ الجداول وتنمية البذور، ثم وافاه أجله، فاستأنف قومه الغرس والبذور، وتعهَّدوا الزرع بالري والتسميد، حتى ترعرعت الأفنان وتهدَّلت الثمار!! فهو مشكور مأجور دون نزاع فكيف نَنعتُه بالوصولية المغرضة دون برهان؟!!.

هذا عماد الدين فماذا كان من أمر صلاح؟! يخيَّل إلي أن الدكتور مؤنس قد اعتمد فيما ادعاه على ما كتبه غلاة المغرضين من

مؤرخي الفرنجة، وما وسعَه خيال قصّاصيهم حين راحوا يلفِّقون أساطير موهومة عن السلطان في اصطياد الجواهر والحلي من اليهود والنصارى بنوع خاص!! أما ما ذكره مؤرخو العرب، ومنصفو الأوروبيين عن شجاعة صلاح الدين وكرمه فبعيد كل البعد عن هذه الأراجيف!!.

ولولا ما أُسمِّيه عبارة البطل الواحد، في مجال الموازنة التاريخية لأفضْتُ في ذكر ما نسيه الدكتور المؤرخ من البدائه الذائعة، والأمثال السائرة مما تُنوقل عن شهامة صلاح الدين وأريحيّته، وما أظن أحداً ممن يتصدر لتسجيل أعمال السلطان ينسى أنه أخذ من مال الفداء يوم استرجاع بيت المقدس مئتي ألف دينـار، وعشـرين ألفاً فوقها، ففرَّقها على العلماء والمجاهدين والفقراء، وأطلق الكثير من ضعفاء الصليبيين دون فداء، كما أغضى عن جواهرهم وحليهم فلم يعرض لها بمصادرة، مما لا نظنه يصدر عن أرقى رجل مهذّب في القرن العشرين.

وقد خرجت ابنة الملك الصليبي تحمل صلبانها الذهبية، وحليَّها المتوهِّجة المغرية، وهمَّ بها أصحابه، فحال بشهامته النادرة دون ما يبتغون، بل إن بطريرك القدس جمع أموال البِيَع والكنائس في صناديق مختلفة، وأُخبر بها صلاح الدين فتركها لهَ، وقال في أريحية مثالية: لا يجوز أن نفجعه في ثروته بعد فجيعته في أحلامه الدينية!! فليت شعري أيكون السلطان بعد ذلك لا يترك إنساناً من المسلمين تبدو عليه علامات اليسار إلا أنذره بالويل والعذاب!!.

لنتأمل ما سطره الدكتور المسلم ولنقارنه بما ذكره أوروبي وهو صاحب كتاب (تاريخ المؤرخين) إذ يقول ما ترجمته[1] - نقلاً عن كتاب الدكتور أحمد البيلي - في صلاح الدين: «ولقد كان من شدة كرمه أن عماله كانوا ينكرون عليه المال، حتى إذا جاءت ساعة الحاجة أخرجوا إليه ما يريد، وهذا من كثرة بذله وعطائه، وكان من عادته أنه إذا استولى على مقاطعة من المقاطعات نشر أعلام كرمه وسخائه على أتباعه، وسكان الجهة، فملك بذلك رقابهم، ولما استولى على دمشق لم يأخذ لنفسه شيئاً من خزائنها، بل وزَّع ما وجد على الأهالي، وكان يحترم كل من في خدمته، ويعاملهم معاملة ليِّنة، فإذا وقع من أحدهم ما يسيئه كتمه ولم يظهره.

أما مجلسه فكان طاهراً لا يجسر فرد أن يقول سوءاً في جارٍ له، ولم يرَ يتيماً إلا تحركت فيه عاطفة الشفقة والحنان عليه، وكان فوق هذا محبّاً لأولاده وأهله، وكثيراً ما شارك أطفاله لعبهم، وكان يحب العدل ويعاقب كل من خالف أحكامه، فكان يجلس للمظالم بنفسه مرتين في الأسبوع للغني والفقير في حلّه وترحاله وفي سفره ومقامه».

ولو شئنا أن ننقل كثيراً من النصوص المسيحية لغير هذا الكاتب المنصف لضاق بنا القول، دعْ كل ما تفيض به الروايات الإسلامية من باهر المزايا وروائع الخيال، ولا نريد أن ننقل ما سجَّله

---

(١) سبق أن نقلنا هذا النص، ونعيده في مناسبته.

أصدقاء الرجل ممن خالطوه وصادقوه كابن شداد وغيره كيلا نظنّ بهم بعض المبالغات في رأي من يتشدَّدون في الرفض والقبول! بل إننا سننقل عن رحلة ابن جبير ما شهده بنفسه من كرم السلطان وسخائه، وهو بَعْدُ ممن لم يتعمَّدوا كتابة تاريخ السلطان على وجهٍ يُشمّ منه التحيُّز، وإنما هو عابر سبيل، طاف وقتاً ما بمصر فرأى وشاهد، ثم سجَّل انطباعاته بعد أن فارق البلاد دون أدنى تأثير من حاكم، أو زُلفى إلى كبير، ولم يكن الرجل مؤرخاً رسمياً يدفعه الإعجاب بالبطولة إلى التزيُّد، وإنما كان وصفاً يفيض بخوالجه دون أن يحسب لنفسه مكان المسجِّل العلمي، فاتخذ كتابه طابع الصدق الساذج والوصف الأمين، وكان مما قال(١) :

«ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه: المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبُّد، يفِدون من الأقطار النائية، فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوي إليه، ومدرِّساً يعلِّمه الفن الذي يريد تعلُّمه، وأجراً يقوم به في جميع أحواله. واتسع اعتناء السلطان بهؤلاءالغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمَّامات يستحمّون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم، وتحت أيديهم خدّام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء، ويُنهون للأطباء أحوالهم ليتكفّلوا بمعالجتهم.

ومن أشرف هذه المقاصد أن السلطان عيّـن لأبناء السبيل من

---

(١) ابن جبير، (ص ١٠)، وقد سبقت الإشارة إلى جزء من هذا النص.

المغاربة خبزتَين لكل إنسان في كل يوم بالغاً ما بلغوا، ونصب لتفريق ذلك كل يوم إنساناً أميناً من قِبَله، فقد ينتهي في اليوم إلى ألفي خبزة أو يزيد بحسب القلة والكثرة وهكذا دائماً... أما أهل بلده ففي نهاية من الترفيه واتساع الأحوال لا يلزمهم وظيف البتة!».

فما عسانا نقول في هذا التسجيل العَرضي الذي لم يتعمَّد سوى النقل الفوتغرافي لما كان، دون احتفاء بإطراء أو اعتناء بتمجيد!!.

إن ما سطَّره الدكتور عن البطلين الكبيرين في معرض حديثه عن نور الدين يدفعنا إلى الحذر المفرط عند الموازنة الشخصية بين إنسان وإنسان، وإذا كان في هذه الموازنة ما يفسح وجهات النظر، ويجلو غوائض الحقائق، ويفسح مجال التحليل والتأمل، فإن في الانحياز الخفي ما يجعل منها أداة إجحاف وانحراف، وقد تكون الموازنة الأدبية بين نصٍّ ونصٍّ أسلم من الموازنة التاريخية بين إنسان وإنسان؛ لأن الموازنة الأدبية في النصوص الفنية تعرض الأثرين الأدبيَّين أمام القارئ المنصف أولاً، وسيكون له رأيه فيما يقرأ من أسلوب، وما يسجِّل من حكم. أما الموازنة التاريخية بين إنسان وإنسان فترجع إلى ما كوَّنه الموازِن في نفسه من أحكام على الشخصيتين دون أن يسرد الوقائع الكثيرة لصاحبها!! لذلك كانت الدقة البالغة من ألزم اللوازم في هذا المجال، وإلا نشز وجه الحق فيما يقال.

* * *

مَاذَا قَالَ هٰؤُلَاءِ

لن تجد أكثر من صلاح الدين ممدوحاً بقصائد في تراثنا الأدبي، حيث كان شعراء عصره يبهرون بثباته وإيمانه وفوزه المتكرِّر، على حين تغلي نفوسهم حفيظة على أعدائهم الذين قذفتهم أوروبا الباغية، ليحتلُّوا ديارهم ظلماً دون عدل، فوجدوا في مدح صلاح الدين تنفيساً لما يكنُّون من مشاعر مضطرمة، ولو قُدِّر لرجال التاريخ ألا يدوّنوا سيرة البطل الخالد، لكان فيما تركه هؤلاء الشعراء، ما يبرز دوره الباهر في تحقيق النصر.

وقد نشر الدكتور أحمد بدوي فهرساً مفصَّلاً بأسماء من مدحوا صلاح الدين أو من استطاع أن يلمّ بهم، محدِّداً مراجعَ القصائد وأسماء الدواوين، وصفحات الموسوعات التراثية؛ فكان ما قام به إحصاءً رائعاً يسهّل لباحثي الأدب طريقهم في رصد الأسلوب الشعري في عصر صلاح الدين[1]، ولولا أن الأسلوب التعبيري في هذا العصر قد انحدر عن مستوى الشعر في القرن الرابع

---

(١) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، (ص ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨).

وما فوقه لكان لهذا الرصيد الضخم صيتٌ بعيد المدى بين القراء، ولكنه مهما كان مستواه قد حفظ للرجل العظيم مكانه الرائع بين الممدوحين.

والشعر التاريخي عامل قوي من عوامل البعث الروحي للأمة، وقصيدة واحدة تقال في مناسبة تاريخية جهيرة لشاعرٍ عظيم تظلُّ نداء تردده الأجيال، وانظر إلى قصيدة أبي تمام في سقوط عمورية، فقد خلَّدت المعتصم خلوداً باهراً، لا لأنه قد فاز في المعركة، فكم فاز من قبله في هذا المضمار خلفاء مثل المهدي والرشيد والمأمون، ولكنهم لم يُرزقوا من قال كما قال أبو تمام.

ونحن نعرف وقائع سيف الدولة مع الروم، لا لأن المؤرخين سجلوها في كتبهم، فقد سجَّلوا لغير سيف الدولة الشيء الكثير، ولكن سيف الدولة رُزق أبا الطيب المتنبي، فخلد وقائعه في شعره وأصبح البطل بما قاله شاعره بطلاً ذائع الصيت!.

أقول ذلك الآن لأني آسف أشد الأسف حين أجد الشعر العربي في هذا العصر تحوَّل عن أداء رسالته الخالدة في بعث الهمم وإيقاظ النفوس، وأصبح شبيهاً بالألغاز والأحاجي، وبذلك فقد تأثيره في الناس بحيث لا يستطيع شاعر من أدعياء الشعر الحر أن يقول قصيدة تتردد على الأفواه في أقوى المناسبات. لقد كان الشعر ديوان العرب بالأمس، وهو اليوم كلام لا تدري أهو شعر أم نثر، بل ليته كان نثراً تسيغه الأفهام!.

وأمام الحشد الهائل الذي أشار إليه الدكتور أحمد بدوي أَجِدني حائراً في اختيار ما أستشهد به من هذه النفثات البارعة! ونحن نعلم أن مادحي صلاح الدين لم يكونوا على مستوى واحد من الجودة، ففيهم المجلّي والمصلّي، وقد جُمعت دواوين بعض هؤلاء وفيها كل ما قالوه عن صلاح، مثل القاضي الفاضل وابن الساعاتي، وابن سناء الملك، وأسامة بن منقذ، وسبط بن التعاويذي، وابن عنين، وعمارة اليمني؛ ولو اقتصر باحث على تحليل ما قاله هؤلاء لوجد من العطاء الشعري الجمّ ما يظهر الممدوح في جلاله المشهود.

ولكن من الظلم البيِّن أن نقتصر على هؤلاء ودواوينهم متداولة في أيدي الدارسين، على ما بها من تفوُّق ملحوظ، ونترك جماعة من الشعراء لم يقدَّر لنظْمهم أن يُجمع في حيّز مستقل، ولهم بعدُ سبقهم المبدع، وعطاؤهم الثرّ، ولعل هذه الصفحات المتواضعة، تسلّط بعض الضوء على نتاجهم الأدبي، فتكون حافزاً لمن يريد البحث عن المغمورين كي يبذل جهداً في استحياء ما دُفن في صفحات المخطوطات المجفوّة، وليس من خطأ الشاعر أنه مغمور لم يُشتهر، بل لعل الخطأَ خطأُ من استناموا إلى الراحة، فاكتفوا بأصحاب الدواوين المطبوعة، وما تناثر في كتابين أو ثلاثة تحدَّثت عن مسيرة صلاح الدين في عصره، فسردت شذوراً مما قاله المغمورون.

قد يكون إهمالي لأصحاب الدواوين المطبوعة الذائعة مما يجعل الفصل في حاجة إلى الإتقان، بل مما يقع موقع الظلم على

صلاح الدين نفسه، حيث أتجاوز نفائس كثيرة قيلت فيه، وهذا حقٌّ. ولكن الذي يخفف هذا الظلم أني في هذا الحيّز القليل لا أستوعب، بل أمثّل فقط، ومهما اخترت من قصائد المشهورين فسأترك منها ما قد يكون أحسن مما اخترت، وذلك ما يشفع لي في أن أختار لأناس لم أسمع عن بعضهم قبل أن أبحث عن مواد هذا الكتاب.

ومنهم الشاعر الأعمى سعادةُ بن عبد الله الحمصي، فقد كان يفِد على صلاح الدين مبهوراً بأعماله، فيقول في وصفه أجمل ما تجيش به نفسه من خواطر، وله قدرة تصويرية على وصف ما لم يره إلا بالسماع فقط، وإذا كان أبو العلاء قد تحدّى قُرَّاءه حين نَظَم قصائد عِدّةً في الدرعيات الحربية وهو لم يرها، بل علم عنها أكثر مما يعلم المبصرون، فإن سعادة بن عبدالله الحمصي أكثر من وصْف جيش صلاح الدين في قصائد عدّة بلغ بها موضع الإصابة حيث قال:

فاسلمْ فجيشك لا يُثنى له علم ... واسعد فبيتُك لا تهوي له عُمُدُ
عرمرَمٌ كالدُّبى الطيّار منتشر ... تحصى الرمال ولا يُحصى له عددُ
تسمو عليه سماءٌ من عجاجتهِ ... مبنيّةٌ من قناةٍ تحتها عمدُ
سماءُ نقعٍ لشيطان العدوّ بها ... من الأسنَّة شهبٌ كلها رصدُ
وفي دياجيه نار من صوارمه ... تكاد تقطر ماءً وهي تتّقدُ
نارٌ تشبّ على أيدي غطارفة ... لا يبرق الجو إلا كلّما رعدوا
ما جِنٌّ عبقر جنٌّ كلما عزفوا ... ما أُسْدُ بيشةَ أسدٌ كلما حردوا

مـن كـلِ أروع أمّـا رمحُـه ثمـلٌ لا يستفيـق وأمّـا سيفـه غـردُ
فـي كـلِّ يـوم جـلادٌ لـو ألـمَّ بـه عمرو بن ودٍّ عَداه الصبرُ والجلَدُ
شِمْ بالشآم سيوفاً من عزائمهم إذا غَمَدْت المواضي ليس تنغمدُ
ولا تخفْ فالعوالي شوكها ثمر حلوُ الجنى والمعالي صابُها شَهدُ
فمن يكنْ بالمواضي خاطباً أبداً زفَّـتْ إليـه بـلادٌ كلهـا خـرد

وهذا شعر قوي يضارع كل ما قيل في موضعه، والوصف الحسّي للعجاجة التي ارتفعت على أعمدة الرماح، وللسيوف التي تقطر دماءً وهي تتقد، يدل على حذقٍ باهر في تصوُّر ما يُسمع لدى الشاعر وكأنه يرى.

أما الثقافة العلمية فواضحة في الحديث عن عمرو بن ود وأسد بيشة، وجن عبقر، وأما التصوير الدقيق لثمر العوالي ذات الجنى الحلو، وللمعالي ذات الشهد الحلو مهما قاسى الشجاع في سبيلها من مرِّ الصاب، وللخرائد التي تخطب بالسيوف: فقد جاء على أحسن ما ينتظر، والشاعر هنا قد تحدّث عن الجيش لا عن قائد الجيش، لأن القيادة هي التي أحسنت اختيار الجنود، وأدارت رحى الموقعة حتى تكلّلت بالنجاح.

أما الحديث الخالص عن صلاح الدين فقد جاء في قصيدة رائعة أبدع فيها الشاعر سعادة بن عبد الله الحمصي حين لجأ إلى التصوير الحسّي، وكأنه يثبت بذلك ما أثبته أبو العلاء وبشار من قبل حيث وصفا المعارك الحربية وصف الرائي المشاهد، فلم ينزل عن ستواهما حين وصف راية صلاح الدين وسيفه ورمحه وجواده فقال:

ورايـةٍ مـا هفـتْ يـومـاً ذوابلهـا إلا على قدٍّ عسّال من الذبل
صفـراء خافقـة بالنصـر حائـزة بالحول ما لم يحُزْه الغيْرُ بالحيل
منشورة ليس يُطوى عزم صاحبها حتـى ينـال مكـانـاً قـطُّ لـم يُنـل
وصارمٍ مرهف خفَّتْ مضاربه فليس يسبق إلاَّ سرعة الأجل
سيفٌ ليوسف ما قُدَّت حديدته إلا من الظَّفَرِ المقرون بالجذل
كـأنـه وهْـوِ فـي يمنـاه منصلـت برقٌ جلا عارضاً في عارضٍ هطلِ
وذابـلٍ عطفُـه يهتـز مـن طـرب إلى الطعان وما يهتزُّ من خطل
يزداد من طوله طولاً براحته إذا طـوال الـردينيّـات لـم تطـل
وسابحٍ لو يجاري الريح عاصفةً لقُيِّدت خطوات الريح بالفشل
سهلِ القياد فما يُغرى إلى شغب جمّ النشاط فما يُدعى إلى كسل
نجـم يمـرُّ ببـدْر فـي دجـى قتـم صقرٌ يكرُّ بليث في شرى أسلِ

لقد أراد سعادة الضرير أن يثبت قدرته التصويـريـة، لا في تمثيل الخواطر النفسية، والخلجات الإنسـانية، وهي أقرب إليه وألصق، بل في تصوير المشاهد البصرية للراية الخافقة، والسيف المرهف الباتر، والرمح الذي يزداد طولاً في يد الفارس، والفرس الذي لو جارى الريح لقيَّد خطواتها بالفشل وهو في نشاطه الصوال:

نجمٌ يمر ببدر في دجى قتم صقرٌ يكرُّ بليث في شرى أسلِ

وأترك هذا المبدع إلى مبدع مغمور آخر هو من يسمَّى بفتيان الشاغوري، وقد حاولت معرفة شيء مُقنع عن حياته فلم أعلم غير أنه من الشاغور التي نسب إليها! وإذا فاتنا أن نعرف الكثير عن منشئه

ومرباه، فقد عرفنا من شعره أنه صاحَب مجد صلاح الدين منذ تألُّقه في معركة دمياط أيام وزارته، إلى أن كان بطل الأبطال يوم حطين، كما علمنا مما ذكره ابن خِلّكان عنه في وفيات الأعيان[1] أنه أقام مدة بالزبداني ذات المناظر الطبيعية الساحرة، وقد نقل عن صاحب الخريدة شيئاً يسيراً عنه، وما تركه من مدائح صلاح الدين يعوِّض بعض ما فات من أخباره، فقد أبدع في وصف خيبة المعتدين بدمياط، حين ردَّهم البطل على أعقابهم بعد تقليده الحكم بمصر بأمدٍ قصير، فكان ذلك أول عمل بطولي انفرد به بعد رحيل أسد الدين، يقول الشاغوري:

ولما أتوا دمياط كالبحر طامياً
وليس له من كثرة القوم ساحل
يزيد عن الإحصاء والعدّ جمعُهم
ألوفُ ألوفٍ خيلُهم والرواحل
رأوا دونهم أسداً بأيديهم القنا
وبيضاً رقاقاً أحكمتها الصياقل
وداروا بها في البحر من كل جانب
ومن دونها سد من الموت حامل
رأى الكلب ملك الروم إذ ذاك فتْحها
فخاف، وأمُّ الملكِ والروم هابل

---

(١) وفيات الأعيان (٣/ ١٩٥).

فعـادوا علـى الأعقـاب منهـا هـزيمـة
كـــأنهـــم ذلاً نَغـــامٌ جـــوافـــل
ومـــا أمّلــوا أن يلحقــوا ببـــلادهـــم
لتعصمهـــم ممـــا رأوه المعـــاقـــل

وإذا كان القارئ يرى أثر الصنعة المتّئدة في هذه الأبيات، فإن هذه الصنعة قد أخلت مكانها لانسيابٍ عاطفي جاشت به نفس الشاعر عند النصر المؤزَّر في حطين، فنظم قصيدة تلقائية تغني عاطفتَها المتدفِّقة عن تجميلات الصنعة المحكمة. وأجملُ ما بها وصف صلاح الدين في تواضعه، وسيرورة عظمته في الناس، وتشوُّف العيون لرؤيته بعد السماع عن روائعه. يقول فتيان في يوم حطين:

جـاشـت جيـوشُ الشـرك يـوم لقيتَهـم
يتـــذامـــرون علـــى متـــون الضمَّـــرِ
أوردتَ أطـراف الـرمـاح صـدورَهـم
فـولَغْـنَ فـي عَلَـقِ النجيـع الأحمـرِ
فهنـاك لـــم يُـــرَ غيـــر نجـــم مُقبـــل
فـــي إثـــر عفـــريـــت رجيـــم مُـــدْبـــرِ
فمـن الـذي مـن جيشهـم لـم يُخترم؟
ومـن الـذي مـن جمعهـم لـم يـؤسـرِ؟
حتـى لقـد بيعـت عقـائـلُ أُرْهقـتْ
بـالسبْـي بـالثمـن الأخـسِّ الأحقـرِ

لا يَعْـدِمَنْـك المسلمـون فكـم يـدٍ
أوليتَهُــم معـــروفهــا لــم تُنكـــرِ
آمنـتَ سـربَهـمُ وصنْـتَ حـريمهـم
ودرأْتَ عنهـم قـاصمـات الأظهُـرِ
مـــا إن رآك اللــــه إلا آمـــراً
فيهـــم بمعـــروف، ومُنكِـــرَ منكَـــرِ
متـــواضعـــاً للـــه جـــل جـــلالـــه
وبـــك اضمحلَّـــت سطـوة المتكبِّـــر
لـم يخـلُ سمـعٌ مـن هنـاءٍ مهنِّـئ
للمسلميـــن، ومـــن سمـــاع مبشِّـــر
واستعظـمَ الأخبـار عنـك معـاشـرٌ
فـاستصغـروا مـا استعظمـوا بـالمخبر
مَضَـت الملـوكُ ولـم تنـل عشـر الـذي
أوتيتَـــه مـــن منجـــحٍ أو مفخـــرِ!

ويخيَّل إلي أن هذه القصيدة دفقة شعورية قيلت في مجلس واحد، لأنها من السهولة أداءً ومعنى بحيث تجري جريان الماء في النهر، والشاعر إذا فُوجئ بما يحبُّ قد ينطق بما يفِدُ على خاطره دون حاجة إلى اتئاد، لأن التعمُّل في بعض أحواله يكون نتيجة جَدْبٍ وإمحال.

أما ابن جبير، فإننا نعرفه رحَّالة، ولا نعدُّه شاعراً، لأن ما روي له مما بقي من شعره قليل ضئيل، وقد قال مؤرِّخوه: إنَّ له ديواناً

شعرياً خاصاً برثاء زوجته، فكأنه سبق المعاصرين من شعرائنا الذين اتجهوا هذا الاتجاه، وقد ضاع الديوان ولم يُعثَر عليه، وبقيت رحلته الخالدة ذات صدى يتردَّد، وفي هذه الرحلة صفحات عن صلاح الدين تتحدث عن جهاده الحربي، ومواقفه البطولية[1]، ولكنها مع ذلك تشكو سوء الجباة من عمَّال المكوس بجمرك الإسكندرية، حيث أرهقوا الحجاج القادمين من المغرب بما لا يطيقونه، وبعد أن تحدث ابن جبير عن مرهقاتهم ذكر أن الشكوى وصلت إلى سمع صلاح الدين، فأمر بإنهاء المشكلة رحمة بالقادمين.

أما مناسبة ذكره الآن فهي قصيدته الرائعة التي قالها في فتح بيت المقدس على يد البطل صلاح الدين، لأن الرحالة البصير قد زار الشرق أكثر من مرة، وعرف من فظائع الفرنجة، ووقائعهم بالضعفاء من المسلمين ما أرَّق مضجعه، فأضاف بذلك همّاً إلى همّه، لأنه مغربيٌّ شاهدَ مثل هذه الأهوال من فرنجة الإسبان حين فتحوا بلاد المسلمين في الأندلس، وتجاوزوها إلى العُدوة من المغرب، فأبدوا من الفظائع ما أوجع قلب ابن جبير، وكأنه شاء أن ينفِّس بالحج عن كربته، فوجد المأساة على أفظع وجوهها في المشرق، ولمح بصيصاً من الأمل في صلاح الدين، ثم اتَّقد البصيص فكان مناراً يضيء حين فُتح بيت المقدس، وطُرد الصليبيون منه مُندحرين، وكانت فرحةً أية فرحة، عبَّر عنها الكبار من الشعراء بما هو ذائع متردِّد، كما عبَّر عنها ابن جبير بقصيدة رنَّانة

---

(١) يراجع فصل (شخصية نادرة) في هذا الكتاب.

قالَ فيها مادحاً صلاح الدين:

أطلَّت على أفقك الزاهرِ سعودٌ من الفلك الدائرِ
فأبشرْ فإن رقاب العدا تُمدُّ إلى سيفك الباترِ
وكم لك من فتكة فيهمو حكَت فتكة الأسد الخادر
كسرتَ صليبَهم عنوةً فللهِ دركَ من كاسرِ
وأمضيتَ جدّك في غزوهم فتعساً لجدِّهم العاثر
وأدبر ملكهمو بالشآم وولّى كأمسهم الدَّابر
جنودُك بالرُّعب منصورة فناجزْ متى شئت أو صابر
فكلهم غرِقٌ هالك بتيَّار عسكرك الزاخر
ثأرتَ لدين الهدى في العدا فآثرك الله من ثائر
وقمتَ بنصر إلـٰه الورى فسمَّاك بالملك الناصر
تبيتُ الملوك على فُرشهم وترفلُ في الزرد السابري
وتُؤثرُ جاهِدَ عيش الجهاد على طيب عيشهم الناضر
وتسهر ليلك في حقِّ من سَيُرضيك في جفنك الساهر
فتحتَ المقدَّس من أرضه فعادت إلى وضعها الطاهر
وجئت إلى قُدسه المرتضى فخلَّصتَه من يد الكافر
وأعليتَ فيه منار الهدى وأحييت من رسمه الدائر
لكم ذخَر الله هذي الفتوح مِن الزمن الأول الغابر
وخصَّك من بعد فاروقه بها لاصطناعك في الآخر
محبَّتكم أُلقيت في النفوس بذكرٍ لكم في الورى طائر

وروعة هذه القصيدة ليست في سهولتها السَّلِسَة، وخواطرها الصادقة، وعاطفتها الحارة فحسب، فهي مع ذلك كله تُصَوِّر وجهة

نظر المسلمين في المغرب نحو صلاح الدين، وتُنبىء أن العالم الإسلامي حينئذ كان جسداً واحداً، وأنَّ الحدود المصطنعة سياسياً بين دُوله لا تمنع الامتزاج العاطفي بين مَن يدينون بنعمة الإسلام، فهم في كل مكان يتَّحدون في الآمال والآلام، وهذه الحقيقة ترعب أعداء المسلمين في الخارج والداخل، أمَّا في الخارج فالحروب الصليبية في المشرق والمغرب من أوضح آثارها الفاجعة، وأمَّا في الداخل فكم شهدنا دعواتٍ مريبة للقومية والفرعونية والبربرية والفينيقية، وكلها تنزع إلى محاربة الإسلام، وتفزع من ذكره كما يفزع الملدوغ من ناب الثعبان، وقد بذل هؤلاء المُداجون من وسائل التحبُّب فكراً وتحليلاً ومداهنة كي يخفوا نيّاتهم السيِّئة في فصْم علائق الدول الإسلامية، فباءت جهودهم بالخيبة، لأنهم لا يستطيعون أن يطفئوا نور الله.

وحين زحفت جيوش الفرنجة من أوروبا كالجراد بعد تطهير بيت المقدس من أرجاسهم محاولين استعادته، تنبَّه الشعراء للخطر المنتظَر، ولكنهم يعرفون أن صلاح الدين هضبة عالية صعبة المرتقى، وأن جهاده في إنقاذ المسجد الأقصى لا يَفترُ إذا داهمه خطبٌ جديد، وأراد الشاعر (الرشيد بن النابلسي) وهو كالمجهول بين الأدباء، لأني لم أعرف عنه غير ما قيل في هجائه بالجزء الثالث من فوات الوفيات لابن شاكر، وما جاء من شعرٍ بالجزءِ الثاني من الروضتين! ولا يفيد ذلك كثيراً في معرفته. أقول: أراد هذا الشاعر أن يلفتَ صلاح الدين إلى ما قد يجدُّ من الأحداث ـ وما هو عنها بغافل

ـ فأنشد قصيدةً مادحة، قال فيها:

ويح الفرنجة بل، ويْل أمّهم[1]أوَما
فيهـم لبيـبٌ علـى العـلاَّت يعتبـر
فكـم نَثَـرْتهمـو ضـربـاً إذا انتظمـوا
وكـم نظمتهمـو طعنـاً إذا انتثـروا
إن يمَّمـوك فـلا بِـدعٌ لجهلهـم
تسعى إلى الأسد في غاياتها الحمر
فَحام عـن حـوزة البيـت المقـدَّس لا
خوفٌ ـ وحاشاك من خوف ـ ولا ضرر
هـو الشـريـكُ وقـد نـاداك معتصمـاً
فمـا علـى مجـده مـن بعـدهـا حـذر
وسـوف تستغفـرُ الأيـام هفـوتهـا
وتحصـد الفئـة الأوغـاد مـا بـذروا
ما أبهج الدين والدنيا بمالكها الصد
يـق يـوسـف لا لاذتْ بـه الغِيَـر
ملكٌ تساوت جمادى في الجهاد وتَمُّو
ز لـديـه وضـاهـى نـاجـراً صَفَـر
فليـس يثنيـه حـرٌّ إن تـوقَّـد عـن
رضـا الإلـه، ولا إن أغـدق المطـر
ولا يُنَهْنِهُـه عمّـا يكـابـده
ضـجٌّ ـ أعيـذ معـاليـه ـ ولا ضجـر

(١) تنطق هكذا، (وَيْلَمَّهمْ).

ولا يــرى الــروح إلا ظهــر سهلتِــه
فــي بطــن معــركــة مــركــوبهــا وَعــر
صبرٌ جميـل كطعـم الشهـد فـي فمـه
وعنــد كــل مليــك طعمــه الصبــر

وقوله: صبر جميل إلى آخر البيت؛ يذكرنا بما أشار إليه ابن جبير، حين ندَّد ببعض ملوك العصر، ممَّن يرفلون في النعيم، ويبيتـون على الديبـاج، ويؤثـرون العيش النـاضر على الجهـاد، وينامون تاركين السهر لصلاح الدين ذائداً عنهم وهم نيام! وفيهم من يكيدون له كأنهم يعدُّون انتصاراته هزائم توجَّه إلى نفوسهم، وقد يزدردونها في صمت، ولكن الألسنة تتحدث حولهم بما يشين.

هـذه نمـاذج مما قـالـه غيـر المشهـوريـن فـي بطـولات صلاح الدين، وحين انتقل إلى فردوس ربه، تحوَّلت هذه المدائح مراثيَ حارَّة تتوقَّد بالفجيعة، ودراسة هذه المراثي لها فضلٌ في كتُب التاريخ الأدبي، ولا أحبُّ أن أهيج لواعج القارىء بذكر ما أحسَّه الراثون من زلزال مدمِّر كاد يعصف بالنفوس لولا العزاء الأكبر في رحيل العظماء من قبله منذ سيِّدهم جميعاً محمد بن عبد الله ﷺ، فقد كان رُزْء صلاح الدين كما قال الشاعر العربي من قبل:

ومــا كــان قَيْـس هُلْكـه هُلْـك واحـدٍ
ولكنَّـــه بنيـــان قـــوم تهـــدَّمـــا!!

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

أعلام المسلمين

سلسلة تراجم إسلامية تجمع بين العلم والفكر والتوجيه، وتتناول أعلام المسلمين في شتى الميادين.

صدر منها:

١ ـ عبد الله بن المبارك
«الإمام القدوة»
محمد عثمان جمال

٢ ـ الإمام الشافعي
«فقيه السنة الأكبر»
عبد الغني الدقر

٣ ـ مصعب بن عمير
«الداعية المجاهد»
محمد حسن بريغش

٤ ـ عبد الله بن رواحة
«أمير شهيد وشاعر على سرير من ذهب»
د. جميل سلطان

٥ ـ أبو حنيفة النعمان
«إمام الأئمة الفقهاء»
وهبي سليمان غاوجي

٦ ـ عبد الله بن عمر
«الصحابي المؤتسي برسول الله»
محيي الدين مستو

٧ ـ أنس بن مالك
«الخادم الأمين والمحب العظيم»
عبد الحميد طهماز

٨ ـ سعيد بن المسيّب
«سيد التابعين»
د. وهبة الزحيلي

٩ ـ السلطان محمد الفاتح
«فاتح القسطنطينية وقاهر الروم»
د. عبد السلام فهمي

١٠ ـ الإمام النووي
«شيخ الإسلام والمسلمين وعمدة الفقراء والمحدثين»
عبد الغني الدقر

١١ـ الشيخ محمد الحامد
«العلامة المجاهد»
عبد الحميد محمود طهماز

١٢ـ السيدة عائشة
«أم المؤمنين وعالمة نساء الإسلام»
عبد الحميد محمود طهماز

١٣ـ الإمام البخاري
«سيد الحفاظ والمحدِّثين»
د. تقي الدين الندوي

١٤ـ عبادة بن الصامت
«صحابي كبير وفاتح مجاهد»
د. وهبة الزحيلي

١٥ـ عبد الله بن عباس
«حبر الأمة وترجمان القرآن»
د. مصطفى الخن

١٦ـ جابر بن عبد الله
«صحابي وإمام وحافظ فقيه»
وهبي سليمان غاوجي

١٧ـ أحمد بن حنبل
«إمام أهل السنة»
عبد الغني الدقر

١٨ـ كعب بن مالك
«شاعر العقيدة الإسلامية»
د. سامي مكي العاني

١٩ـ أبو داود
«الإمام الحافظ الفقيه»
د. تقي الدين الندوي

٢٠ـ أسامة بن زيد
«حبُّ رسول الله وابن حبِّه»
د. وهبة الزحيلي

٢١ـ معاوية بن أبي سفيان
«صحابي كبير وملك مجاهد»
منير محمد الغضبان

٢٢ـ عدي بن حاتم
«الجواد ابن الجواد»
محيي الدين مستو

٢٣ـ مالك بن أنس
«إمام دار الهجرة»
عبد الغني الدقر

٢٤ـ عبد الله بن مسعود
«عميد حملة القرآن وكبير فقهاء الإسلام»
عبد الستار الشيخ

٢٥ـ معاذ بن جبل
«إمام العلماء ومعلّم الناس الخير»
عبد الحميد محمود طهماز

٢٦ـ الإمام الجويني
«إمام الحرمين»
د. محمد الزحيلي

٢٧ـ القاضي البيضاوي
«المفسِّر والفقيه المؤرخ»
د. محمد الزحيلي

٢٨ـ عبد الحميد بن باديس
«الإمام الرباني والزعيم السياسي»
د. مازن مطبَّقاني

٢٩ـ تميم بن أوس الداري
«راهب عصره وعابد أهل فلسطين»
محمد حسن شراب

٣٠ـ السلطان عبد الحميد الثاني
«آخر السلاطين الكبار في الدولة العثمانية»
د. محمد حرب

٣١ـ السيدة خديجة
«أم المؤمنين وسباقة الخلق في الإسلام»
عبد الحميد محمود طهماز

٣٢ـ زيد بن ثابت
«كاتب الوحي وجامع القرآن»
صفوان داودي

٣٣ـ الإمام الطبري
«شيخ المفسرين، وعمدة المؤرخين، ومقدَّم الفقهاء والمحدِّثين»
د. محمد الزحيلي

٣٤ـ أبو موسى الأشعري
«الصحابي العالم المجاهد»
عبد الحميد طهماز

٣٥ـ أبو عبيد القاسم بن سلاّم
«إمام مجتهد وفقيه محدِّث ولغوي بارع»
سائد بكداش

٣٦ـ الإمام الطحاوي
«الإمام المحدِّث الفقيه»
د. عبد الله نذير أحمد

٣٧ـ سفيان بن عيينة
«شيخ شيوخ مكة في عصره»
عبد الغني الدقر

٣٨ـ الإمام ابن حجر العسقلاني
«أمير المؤمنين في الحديث»
عبد الستار الشيخ

٣٩ـ العز بن عبد السلام
«سلطان العلماء وبائع الملوك»
د. محمد الزحيلي

٤٠ـ عمر بن عبد العزيز
«خامس الخلفاء الراشدين»
عبد الستار الشيخ

٤١ـ الإمام القرطبي
«شيخ أئمة التفسير»
مشهور حسن سلمان

٤٢ـ سعد بن الربيع
«النقيب الشهيد»
محمد علي كاتبي

٤٣ـ الإمام الغزالي
«حجة الإسلام ومجدِّد المئة الخامسة»
صالح الشامي

٤٤ـ الإمام الزهري
«عالم الحجاز»
محمد حسن شراب

٤٥ـ عبد القادر الجيلاني
«الإمام الزاهد القدوة»
عبد الرزاق الكيلاني

٤٦ـ الإمام البيهقي
«شيخ الفقه والحديث وصاحب السنن الكبرى»
د. نجم عبد الرحمن خلف

٤٧ـ محمد بن الحسن الشيباني
«نابغة الفقه الإسلامي»
د. علي أحمد الندوي

٤٨ـ أبيّ بن كعب
«صاحب رسول الله وسيد القرّاء في زمانه»
صفوان داودي

٤٩ـ الإمام مسلم بن الحجاج
«الحافظ الكبير وصاحب الجامع الصحيح»
مشهور حسن سلمان

٦٣ـ الإمـام الخطـابي
«المحدّث الفقيه والأديب الشاعر»
د. أحمد الباتلي

٦٤ـ مصطفى صـادق الـرافعـي
«فارس الكلمة تحت راية القرآن»
د. محمد رجب البيومي

٦٥ـ الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي
«مَعْلمة العلوم الإسلامية»
د. محمد رجب البيومي

٦٦ ـ جمـال الدين القاسـمي
«أحد علماء الإصلاح الحديث
في الشام»
د. نزار أباظـة

٦٧ ـ أبـو عبيدة بـن الجـراح
«أمين الأمة وفاتح الديار الشامية»
محمد حسن شراب

٦٨ ـ أم عمـارة (نَسِيبة بنت كعب)
«الصحابية المجاهدة»
أمينة عمر الخراط

٦٩ ـ أم المـؤمنين زينـب
«الصالحة العابدة، أمُّ المساكين»
أمينة عمر الخراط

٧٠ ـ صـلاح الديـن الأيـوبـي
«قاهر العدوان الصليبي»
د. محمد رجب البيومي